

ستة أيام في الخارج

فيحاء نابلسي



kotobati.com

إسم الكتاب: ستة أيام في الخارج

إسم المؤلف: فيحاء نابلسي

نوع الكتاب: رواية

التصميم والتنسيق: مكتبة كتوباتي

النشر الإلكتروني: مكتبة كتوباتي

www.kotobati.com

سنة أيام في الخارج

"تجربة الخروج من الجسد"

فيحاء نابلسي

رواية

مقدمة

في عام 2005 كنت أحضر دورة تدريبية في مهارات و تقنيات التعليم . طلبت منا المدربة المشرفة أن نوجه لبعضنا أسئلة بالزمن المضارع التام بصيغة " ما الذي لم تفعله حتى الآن ؟ " و كان جوابي " لم أقم بكتابة رواية حتى الآن."

بعد أن تفوّت بتلك الكلمات انتابني حالة من الدهشة , و لم أعرف لم قلت ذلك , فأنا لم يخطر ببالي قبل ذلك أن أكتب رواية أبدا . كنت أخط من حين إلى آخر بعض الخواطر أو بعض الأبيات الشعرية غير الموزونة و أعظم ما قمت به حتى ذلك الوقت هو كتابة قصة قصيرة لا تتجاوز الثلاث صفحات. بدت لي الفكرة أشبه بقروي ساذج اعتاد بناء الأكواخ و فجأة خطر له أن يبني ناطحة سحاب . ضحكت في سري و تناسيت الأمر .

في عام 2012 بدأت كتابة روايتي الأولى و بعد الانتهاء منها في أواخر 2013 شعرت أن ما قمت به لا يتعدى ردة فعل على ما مرّ بنا من أحداث خلال الأحداث السورية و الربيع العربي فرغّت فيه انفعالاتي و رؤيتي لما يجري من حولنا , و أنه ربما لا يتكرر هذا الأمر مرة أخرى .

الآن في بداية 2015 و أنا أتلقى الخواطر المتتالية في نفسي عن هذه الرواية شعرت بالرهبة . و توجهت بقلبي إلى الله قائلة " يا الله, أنت تعلم أنني أحبك , و لكني لا أجراً على اعتلاء المنابر و تصدّر المجالس لأقول ذلك . و إنني أرغب في أن أجعل ما يُرضيك يبدو جميلاً في أعين الناس حتى يحبوك مثلما أحبك . فأعني على ذلك ."

2015 /1/26 فيحاء نابلسي

اليوم الأول:

خلوة

يبدو كل شيء من حوله غير مألوف . الجدران الباهتة , السرير الحديدي , النافذة العالية , مكيف الهواء القديم بصوته الهادر والستارة الداكنة التي تضيء على المكان نوعا من الإحساس بالكآبة . تجولُ عيناه في أرجاء الغرفة , يرتطم بصره بالأشياء فيرتدّ إليه كئيباً . يملأه إحساس بعدم الانسجام مع كل ما يحيط به . يلوّكُ ضجره بنزق و يلقي بجسده المنهك على الكرسي الوحيد في الغرفة مغمضا عينيه محاولاً إقناع نفسه بالأمر . لا بأس في هذا التناثر الذي يشعر به تجاه المكان . في النهاية هو ليس في نزهة , الغاية من وجوده هنا الآن أن يعيش حالةً خارجةً عن المألوف والمعتاد والمكرر الذي أصاب نفسه وروحه بالصدأ .

عبقُ البخور الممتزج بروائح البهار ورائحة زيت جوز الهند الطاغية غمرت حواسه بدفقةٍ أخرى من عدم الارتياح ما لبثت أن تحولت إلى ابتسامة تتوارى بين العجب و السخرية . " الإنسان طير بلا جناح " . هكذا كانت تقول جدته . لم يحمله خياله في أقصى جموح له إلى أي بقعة تشبه هذا المكان في شيء . مع ذلك كان إحساسه بضرورة المضي نحو غايته أقوى من أي إحساس آخر .

لديه متسع من الوقت . بل لديه الوقت كلّه . منذ اللحظة , لم يعد للمكان و الزمان معنى بالنسبة له . البارحة أخذ قراره بالانفصال عن العالم والخروج منه . وهو هنا الآن لينفذ ما عزم عليه وخطط له بدقة و ترتيب . عليه الآن أن يستحضر وعيه الكامل ونفسه الجليّة للقيام بالأمر . أول شيء يتوجب عليه هو أن يجعل كل شيء واضحا و محددًا . عليه أن يخلّص نفسه من الشوائب و الأخطا التي تعكر صفاء الروح و تشوش سكينتها .

لذلك عليه أن يعدّ المكان بشكل جيد حتى لا يعيق تركيزه و يشتمت طاقته . عليه أن ينظف المكان وينظف جسده الخارجي قبل أن يبدأ بتنظيف نفسه وروحه . وقبل ذلك عليه أن يفرّغ نفسه من كل الشحنات السلبية المتراكمة في بؤرة الوعي حتى يصل إلى ما وراء الوعي , إلى النفس الصافية الشفافة التي ستوصله إلى الأحلام الجليّة , إلى العالم الحر الرحيب . من أجل ذلك عليه أن يخطّ كل ما في خاطره هنا على الورق ثم يقوم بإحراقه حتى يتخلص منه شعورا و إدراكا و حقيقة .

" بسم الله الرحمن الرحيم .

أنا راتب مصطفى .

أنا رجل .

أنا في السابعة و الثلاثين من عمري .

أنا الآن في صباح يوم السبت أول يوم من الأسبوع الأول من آذار من عام 2014 ميلادية .

أنا في الطابق الثالث عشر في غرفة على سطح بناء سكني في شارع الرولة في مدينة الشارقة في دولة الإمارات العربية المتحدة .

أنا أعمل محاسبا في شركة تجارية في جبل علي في إمارة دبي .

أنا في أول يوم من إجازتي السنوية .

أنا قررت أن أقوم بتجربة الخروج من الجسد .

أنا سأخرج من جسدي وأهيم في الأثير .

أنا راتب مصطفى . "

وضع القلم جانبا وأمسك بالورقة . أعاد قراءتها بصوت مسموع . أشعل ولاءةً وقرب الذهب من طرف الورقة . تأمل النار وهي تلتهم كلماته وتُحيلها هبابا يتطاير أمامه ويتساقط على ملابسه . نفض عنه الغبار الأسود ونهض واقفا . هكذا سينفض عن نفسه غبار سبع و ثلاثين سنة . هباب تراكم في ثنايا نفسه وأثقل جسده حتى لم يعد قادرا على حمله والسير به فوق الأرض . هنا في غرفة الناطور الهندي "نافيد" الذي ذهب في إجازة لعدة أيام. سيكون لوحده مع نفسه . الليلة سيخلع عنه الهم والكدر وسيطلق حرا طليقا بلا قيود ولا أغلال . سيطير إلى عالم أثيري شفاف , عالم الروح الرحيب.

شمر عن ساعديه و أزاح الستارة عن النافذة . غمر ضوء الشمس المكان . ربما لم تطأ قدم أنثى هذا المكان من قبل . لماذا ترتبط النظافة دائما بوجود المرأة. ؟ تساءل في سره وهو يتأمل طبقة الغبار المتراكم فوق النافذة وإطار السرير . البقع السوداء التي تغطي أرضية الغرفة والتي يصعب بأي حال معرفة مصدرها أو أصلها . موقد الطبخ الذي يتعذر معرفة لونه الحقيقي بسبب كتل الدهون الصفراء المتجمدة عليه والتي أضافت إليها بقايا القهوة والشاي وأشياء أخرى مزيجا من الألوان والروائح غير المحتملة . من المستحيل إزالة أشياء تراكمت خلال سنين في يوم واحد فقط . ليس أمرا مهما . على الأقل لن يبقى هنا للأبد . ليلة أو ليلتين وينتهي الأمر. يدع جسده ويحلق يوما واحدا بعيدا عن هذا العالم المجنون , ثم يعود إليه ليحمل قدره ويمضي في رحلته حتى النهاية. مرة واحدة فقط سيغادر سجن الجسد ويختبر هذا الشعور الذي لا يوصف بالكلمات.

فراغ

داعبت خيوط النور المتسللة من انتشاء الستارة وجهها باعثة إليها بتحية الصباح . ردت بنصف ابتسامة مثقلة بالنعاس . و تمطت في فراشها مرسله ذراعها بحثاً عن نصفها الآخر . وقعت يدها في الفراغ فأجفلت من الخواء .

" راتب ! "

خيالات من ليلة أمس تدفع عن جفنيها النعاس . وتفصح المكان لطيف من إحساس بالذنب .

" أنتظرك . لا تتأخري "

كان صوته مثقلاً بالرجاء . أحست به , ولم تكن لديها أية نية في أن تخبب رجاءه , ولكن سيل الكلام الذي لا ينتهي أخذها بعيداً . أخبار البلد . من استشهد ومن هرب ومن تهدم بيته ومن نزح إلى مكان أقل جنونا واستعاراً . كلام يفيض ألماً وحسرة كما تفيض حوارات فرسان السياسة العقيمة على وسائل الإعلام ضباباً وتدلليسا . عندما بدأ الخدر يُثقل أطراف أناملها تنبعت إلى أن الوقت قد تجاوز منتصف الليل . توقفت عن نقر مفاتيح جوالها وذهبت إليه . كانت تدرج أنه يقظان . تعرفه جيداً عندما يخيب رجاءه , يتوقف . يغدو مثل قطار خرج عن سكتته يقف ساكناً بانتظار من يعيده إلى مساره ليكمل الرحلة . مهمة بدت لها في غاية الصعوبة مع كل الأخبار الكنيبية التي نقلها لها

أصدقائها وأهلها عبر " الواتس آب " . ولكنها أضمرت في نفسها وعدا بأن تهديه صباحاً مميّزاً ينسيه خيبة أمس . كانت تعرف كيف تخرجه من خيمة الكآبة التي يضربها حول نفسه من حين لآخر . تفتلح أوتادها واحداً تلو الآخر وتسحبها بعيداً عنه لتعيد إليه حرارة الشمس و ضياءها . هذا ما كانت تنوي أن تفعله هذا الصباح . صباح السبت . في الأسبوع الأول من شهر آذار أول أيام إجازة زوجها السنوية . كانت تريده صباحاً مختلفاً بكل المعايير .

تذكر أنه غادر البيت عند صلاة الفجر . لم تنتظر عودته . عادت إلى السرير بعد الصلاة رجاء بضع لحظات من النوم تنسيها حوارات ليلة أمس المؤلمة لتبدأ نهاراً جديداً . ربما لم يعد إلى البيت بعد الصلاة . ربما ذهب يتمشى على البحيرة أو لعلّه في الصالة يخطط لشيء ما من أجل يوم العطلة .

" راتب " نادته عليه بصوت شجيّ بثت فيه دعوة مفتوحة لصباح دافئ.

تهاوت دعوتها في فراغ الصمت . لا جواب ولا أي حسّ . تناولت جوالها ونقرت المفاتيح بفتور باحثة عن شيء يسكن حيرتها .

" أنا لست هنا . تدبري أمرك . "

رسالة من زوجها مُرسلة في الساعة الخامسة فجراً . هو ليس هنا إذاً! ولكن " أنا لست هنا !! " هل يقصد اليوم ؟

الغد ؟ إلى متى ليس هنا ؟. إلى أجل غير مسمى ؟ .

لماذا راتب؟ هل هي دعابة ثقيلة تعاقبني بها على ليلة أمس. حصل هذا مرات كثيرة وكنا نتجاوز الأمر بهدوء. لم هذا الآن؟

تناولت جوالها من جديد وطلبت رقمه. أتاها الصوت أكثر إيلا من الصمت. "مغلق".

مغلق! كما الأفق الذي يضيق أمام عينيها ليغدو نقطة سوداء تكبر وتكبر لتملأ عينيها ظلما يحجب عنها الإجابة عن كل التساؤلات التي تندفق إلى رأسها كسيل جارف.

" صباح الخير ماما . وين بابا ؟ "

""

" هو مو في البيت . وين راح ؟ "

" راح عنده شغل . "

" بس هو قال عنده إجازة من اليوم . "

" يمكن شي خاص فيه . "

" و امتي رح يجي ؟ "

" بكرة أو بعده حسب ما يخلص . "

أوف .. طيب ... ما رح تعملينا فطور جعنا كثير ؟

" لا .. اتصل بمحل الفطائر واطلب لك ولأختك فطيرة جبنة وزعتر . "

" و أنت ما بدك فطيرة ؟ "

" لا .. "

" رح تبقي بالسرير ؟ "

" "

مصطفى و جنى . أول مرة تترك أولادها يتناولون الفطور لوحدهم .

أول مرة تشعر أنها غير قادرة على النهوض وأن الفراش قد استحال بركة رمال متحركة تعجز عن الانفلات من أسرها . تسحبها بقوة للأسفل تشلّ عزيمتها وتفقد القدرة على الحراك .

مصطفى وجنى جناحها اللذان تحلق بهما عاليا . جناحها اللذان يحملانها ويمنعانها من السقوط .

مصطفى وجنى عيناها اللتان أبصرت بهما الطريق في حلقة الظلام عندما حملتهما وهربت بهما من جنون الرصاص ولهب القذائف التي انهمرت على بيتهم في الزبداني . أخذتهم في حضنها وفرت بهما من مكان إلى مكان حتى استطاعت الخروج من سورية و الوصول إلى هنا ليعيشا معا عائلة واحدة . مصطفى وجنى اللذان كانت لهما أب وأم وكل شيء . عندما كان والدهما راتب يغيب شهورا طويلة كانت تحرص على أن تجعله حاضرا بينهم بما ترويه لهما عنه في كل يوم و كل ساعة حتى إذا حان وقت قدومه إليهم في الربيع كانوا يشعرون وكأنهم لم يفترقوا للحظة . كان يأتي إليهم في إجازة نصف السنة

إلى الشام . و يسافرون هم إليه في إجازة الصيف إلى دبي . كانت لديها دائما إجابة حاضرة لكل سؤال يسألونه عن والدهم في أي لحظة . والآن . ليس لديها أي جواب . تعرف فقط أنه ليس هنا . وأن عليها أن تتدبر أمرها .

بوهيمي

جال ببصره في أرجاء الغرفة وتنهّد بارتياح . الآن أصبح المكان أكثر ملائمة لوجود إنسان فيه . يبدو أن عمل ربّات البيوت ليس أمراً سهلاً . ضغط يديه على معدته . أمعانه الفارغة تصدر قرقرة تذكره أن النهار قد أوشك على الانتصاف ولما تحظى بشيء يملأ خوانها . ولكنه لن يستجيب لندائها . عليها أن تبقى فارغة أو شبه فارغة من أجل أن تظلّ نفسه مرهفة و شفافة . لن يثقلها بالطعام الذي يقوي فيها حسّها الترابي . هذا ما يتذكره من دورة اليوغا وفنّ التأمل التي حضرها قبل سنتين .

عندما دعاه صديقه ليشاركة تلك الدورة أخذ الأمر كدعابة , أو كتجربة مجنونة يملأ بها فراغ أيام العطلة التي يقضيها بعيدا عن عائلته و أهله . أو لعلّه ذهب بدافع الفضول لاستكشاف تلك الطاقات التي كثر الحديث عنها في كل مكان . قوة النفس و العقل الباطن وليعرف إن كانت حقيقة أو خيالات من شطحات الشرق المغرق في الروحانية . أثناء الدورة كان يقوم بتمارين التأمل والتركيز مع المجموعة , ولكنه لم يكن يصل إلى ما يتحدثون عنه من صفاء و شفافية . لم يستطع في أي مرّة أن يخلي ساحة تفكيره من صور عائلته وأهله يقبعون في بيوتهم, تفترس سكينتهم أصوات الرصاص والقذائف التي تنهمر عليهم ومن حولهم من حيث لا يدرون. لم يستطع في أي مرّة أن يتجرّد من مشاعر الحسرة على بيته الذي بناه حجرا فوق حجر وأودع فيه كل ما جناه في سنين غربته وشقاءه بعيدا عن أهله وبلده .

في إحدى المرات أغرق في ضحك هستيري عندما تذكر الأكواب البوهيمي . لم يدر لمَ خطرت له فجأة . مجموعة أكواب بوهيمي حمراء مذهبة , اشتراها بثلاثمائة دولار من معرض في دبي . لفها بالجراند ثم أحاطها بلفة كاملة من الشريط اللاصق وحملها بيده طوال الطريق إلى المطار, ومن المطار إلى بيته وأودعها في الفاترينة الزجاجية كتحفة تُشاهد و لا تُمس . لم يشرب بها أحد . ظلت حبيسة الزجاج شاهدة على ثراه و ذوقه الرفيع لتعود إلى التراب مع أول قذيفة تقتحم حرمة الأمن .

عندما عجز عن التوقف عن الضحك أخرجه المدرب خارج الحلقة . دخل إلى الحمام ليغسل وجهه وعندما التقى بنفسه أمام المرأة أغرق في البكاء .

عندما أنهى دورة التأمل وتنمية الطاقات النفسية أخبره صديقه عن تجربة الخروج من الجسد . أثارت الفكرة استغرابه و سخريته . قال لصديقه أن هذا ضرب من الجنون مع أن الآخر أكد له أن هناك من نجح في الخروج من الجسد و قام بفعل أشياء لا يظالها الإنسان إلا في الأحلام .. تظاهر باللامبالاة وغير دفة الحديث . ولكنه عندما خلى بنفسه و حار في الساعات الثقيلة التي لم يملنها صخب البرامج التلفزيونية المملّة , وجد نفسه يطوف المواقع الروحانية التي تتحدث عن الجسد الأثيري وتعلم كيفية القيام بالأمر بالخطوات والمراحل الدقيقة . بهرّه الأمر إلى حد كبير وكأنه سحرّ سلبه منطقته واستولى على تفكيره . أدمن التواصل مع أولئك الأشخاص الذين أكدوا له نجاحهم بالأمر وسردوا له مئات الحكايات عما قاموا

به في رحلاتهم خارج الجسد . بدت له الفكرة أكثر إغراء من مصباح علاء الدين الذي يحقق الأحلام . مع ذلك لم يجرأ في أي مرة على القيام بمحاولة .. كانت الفكرة ترعبه إلى حد ما . ربما خطر له ما إذا خرج من جسده ولم يتمكن من العودة إليه وظلّ تائها هكذا في العالم لا يراه أحد ولا يشعر بوجوده انسان . كانت الصورة أكبر مما يتحمّله عقله .

أول مرّة فكر في ممارسة ما تعلّمه في الدورة كان في السنة الماضية . في طريق العودة من جبل علي إلى بيته في الشارقة . كانت نهاية رتل السيارات على الطريق غير مرئية وأجل الوصول إلى البيت قد أصبح في علم الغيب . تمنى وقتها لو يستطيع الخروج من جسده , أو بالأحرى الخروج من هذه القوقعة المعدنية التي يقضي سدس يومه قابعا فيها , تحمله من مكان إلى مكان . سيارة الشركة التي تنقله إلى العمل كل يوم . يجلس فيها يراقب الطريق من خلف الزجاج . سيارات عن اليمين و عن الشمال , من خلفه ومن أمامه , سيارات تحيط به من كل مكان . علب معدنية تحمل أناس أتوا من كل أنحاء العالم , يحومون حول نار واحدة تجذبهم جميعا بوجهها ونورها , تحترق بلهبها لحظات شبابهم وأيام عمرهم , سنة وراء سنة تمضي بهم , يجرون خلف الحلم في طريق والواقع يجري بهم في طريق آخر .

في السنوات الأولى من قدومه إلى الإمارات , كان يمضي وقت رحلته إلى العمل وهو يفكر في "سلام" زوجته , أم أولاده وحبّه الأول . كان يفكر في مصطفى بكره الذي يحمل اسم أبيه وعائلته ويحمل في عينيه المتوقدتين نياهاً و ذكاءً واعدأ بتحقيق حلمه القديم في دراسة الهندسة التي حرّمته منها بضع علامات غبية من مقرر مادّة تافهة في الشهادة الثانوية . كان يفكر في جنى , في صوت مناغاتها في أناملها الحريرية تداعب وجهه وندائها الملاكي " با.. با.. با " . في أمه ودعائها له بالرّضي و الرزق والسعد . في أشجار التفاح والمشمش المنتصبة في حديقة بيته والتي تنتظر عودته لتهديه شهد العسل الذي ترتشفه من تراب أرضه الطيبة . كان الوقت يمرّ سريعاً رغم ازدحام الطريق وخنقة المرور . ولكن مع تتالي الأيام بدأت رتابة التكرار تسلبه أية متعة يحاول اقتناصها باستدعاء أطياف السعادة المخزونة في حنايا قلبه .

قبل سنتين أخذ قرارا بإنهاء عقد العمل في الشركة التي يعمل بها والرجوع إلى سوريا قبل أن يسرقه العمر من حلمه الذي يخطط له مع سلام . في الحقيقة كان في البداية حلمها هي , ولكنها جعلته حلمها عندما حققت له حلمه . لم تكن سلام تعني له شيئا ولم تكن تختلف في شيء عن باقي بنات البلدة حتى لمحها ذات صباح إلى جوار جدتها قرب التنور تناولها الأرغفة لتلقي بها إلى النار . ذاك الصباح , تمنى من كل قلبه لو كان قطعة عجيب تفرّكها بين أصابعها الطرية كما تفعل بالأرغفة . كانت تدعك العجين بهمة , تفرده ثم ترسله من كف إلى كف لينبسط الرغيف رقيقا شفافا فوق كفها الناعمة . كانت حبّه الأول وكان حبها الأول للخبز و من بعده كان هو حبها الثاني .

استيقظت رائحة الخبز الغافية في ثنايا ذاكرته . ملأته إحساسا بالجوع الصارخ من أمعائه الخاوية . و لكنه لن يستجيب . ليس هناك سوى تمرات و جرعة ماء تُبقي على الحياة الكامنة في جسده , إلى أن يهجره ويتحرر من أسره . جسده الذي يأسره دوما بالجوع , بالنعاس , بالظمأ إلى لمسات تطفأ لهيب النار المستعرة في أعماقه . لم يعد يريد جسدا . يريد فقط روحا شفافة تحلق بعيدا عن هذا العالم المجنون .

لو

" ماذا لو؟؟؟ .. "

مفتاح بوابة التيه . كلمة السر التي تفتح لك باب المغارة لتنزلق منه إلى نفق طويل مظلم لا يصل بك إلى أي مكان.

لم تفلح مرّة في الإجابة على سؤال افتراضي . كل سؤال يبدأ ب "إذا" لا جواب له في عقلها. ربما كان خيالها ضحلا لا يرقى

إلى تصور حالات متخفية في ثنايا الغيب يهياً الناس لها حلا وجوابا قبل أن تنكشف عنها الحجب . لم تستطع في أي مرة أن تتخيل ردة فعلها على أشياء لم تختبرها حقيقة وتعيشها واقعا تراه وتسمعه وتحسّ به . هي دائما ابنة اللحظة . لا تعرف ماذا ستفعل لو طال غياب راتب , لو لم يعد راتب , لو حدث أي شيء آخر. تعرف فقط ما ستفعله الآن. الآن ستنهض من السرير قبل أن يخرج وقت الظهر . ستتناول شيئا يسكت زرققة أمعائها الخاوية. ستفتح النوافذ و تنظف البيت كما تفعل كل سبت . ستطلب طعاما جاهزا لأن وقت تحضير الطعام قد مضى . وفي المساء ستذهب للتسوق لشراء لوازم الأسبوع . وعندما تعود ستجهز الأولاد للمدرسة من أجل يوم غد . ويوم غد ستفكر به غداً .

_ " ماما ما رح تقومي؟ انت مريضة؟ "

_ " لا مصطفى . رح قوم هلاء . طفّي التكيف و افتح الشباك . خلي يفوت هوا نظيف . فرجيني لوحتك جنى . شو رسمت حبيبتى؟ "

_ " تفاح .. تفاح أحمر وتفاح أخضر .. و هون أزهار . "

_ " وين الأزهار .. مو شايقة شي ؟ "

_ " هون ... تحت العشب .. النقط الصغيرة . "

_ " و ليش صغيرة هيك؟ "

_ " لا .. ماما .. هي كانت كبيرة .. و بس نزل عليها صاروخ واحترقت , ولما راح الصاروخ بدها ترجع تطلع , بس هلاء متخبية . "

_ " جنى ... تعالي لحضني .. أنت أميرة حلوة .. أنت حبيبتى . "

_ " و أنا ؟ "

_ " و أنت أمير . أنت بطل الأبطال . هلاء رح تساعد جنى بدروسها و تخلص دروسك على بين ما أنتهي من تنظيف البيت . طيب ؟ "

_ " طيب ماما . "

لا يمكن لدروب الحياة أن تمضي على استقامة واحدة . سيكون هناك منعطفات تغير مسارك في أي لحظة . المشكلة أنه لن تكون أمامك أية لافتة مكتوب عليها " انتبه . منعطف خطر " . ستجد نفسك أمامه فجأة, و لن يكون لديك سوى وقت قصير جدا لتأخذ نفسا عميقا وتقرر كيف تكمل رحلتك وأنت تدرك جيدا أنك تمضي في طريق **ذي** اتجاه واحد, لا يمكنك الرجوع فيه إلى الوراء ولا خطوة واحدة .

و قد تقودك الطريق أحيانا إلى منعطف يضعك فجأة وجها لوجه أمام الموت بكل رهبته . و لو قُدر لك أن تفر منه مرة واحدة فكل ما يأتي بعد ذلك سيكون بالنسبة لك أمرا عاديا . لن تختبر مجددا تلك النار التي تجتاحك من أخص قدميك حتى مفرق رأسك, تزلزل كل خلية في جسدك وتجعل شعرك ينتصب في رأسك كالإبر . تدور عيناك في محجريهما مبصرة الموت يحوم حولك وينفث أنفاسه في وجهك. لا تعي من حولك شيئا سوى أطفالك اللذين يتشبثون بك وهم يرتجفون كقطط مذعورة . عندما تتجاوز ذاك المنعطف وأنت ما تزال محتفظا بإيمانك بالله وبفسك وبقيمة الحياة فأى شيء سيمر عليك بعد ذلك سيكون هينا .

لا شيء أجمل من إزالة الغبار و التمتع باللحظات الأولى لنظافة البيت. يفوقها في الجمال فقط رؤية طفلين هادين يقرآن و يكتبان باهتمام واستمتاع . لوحة عائلية رائعة لا ينقصها سوى الركن الذي يلقي بظلال الأمان على الجميع ليمنحهم السكينة و السلام. لم يكن غيابه أمرا مقلقا في أي مرة ولكن حضوره كان دائما أمرا مريحا للغاية . في وجود راتب يصبح مصطفى و جنى زهرتين نضرتين تشعان بهجة وألقاً في وهج الشمس .لطالما كان حضوره أشبه بزخة المطر التي تروي عطش الأرض وتخرج الخبء من تحت التراب . بريق **عيني** مصطفى , حيويته , همته, انفراج أساريره , كل شيء فيه يصبح أجمل في حضور والده . في البداية كانت تسعد براتب لأنه يحبها. فيما بعد أصبحت تسعد به لأنه يمنح الحب لأعلى شيء في حياتها , مصطفى و جنى.

مصطفى مستغرق في كتابة فقرة على دفتره . عندما ينهمك في عمل شيء يظن من يراه أنه منصرف تماما عن كل ما حوله, لا يرى ولا يسمع إلا ما يقوم به. ولكن سرعان ما يكتشف عند حدوث أي أمر أن مصطفى يتابع كل ما حوله بكل انتباه من غير أن يلتفت عن عمله .. حدث هذا مرات كثيرة , عندما يصادف أن تتلقى أمه مكالمة على جوالها و تخاله منصرفا إلى دروسه فتسهب في الكلام و عندما تنتهي تفتأ به يسألها عن كل كبيرة و صغيرة تلفظت بها .. ربما كان في هذا أشبه ما يكون بأمه. ذلك النوع من البشر الذي يكون متيقظا لكل ما حوله دون أن يظهر أي اهتمام أو اكتراث ..

حتى ملامحه تشابه أمه أكثر من أبيه. يوافق ذلك الاعتقاد الذي يقول أن الولد يشبه أمه و البنات تشابه أباهن .. عيناه اللوزيتان الصغيرتان نوعا ما اللتان تشعان دائما ألقا ونشاطا وحيوية , متحفز للقيام بكل ما تتطلب اللحظة . عوده الفارع الطول الذي يضيء عليه للوهلة الأولى عمرا أكبر من حقيقته, تتلاشى النظرة سريعا حالما يتأمل الناظر إليه وجهه الطفولي السمح بوجنتيه الورديتين وشفته الباسمتين في أغلب الأحيان . مصطفى يحب الكلام والحوار في أي شيء ممتع ومثير للتأمل والتفكير ولكن غالبا ما ينفذ صبره من أسئلة أخته الكثيرة والتي يرى فيها منافسا له على حب والديه الذي استأثر به ثلاث سنوات قبل قدومها واستلابها لعرش الغنج والدلال في البيت . مصطفى حلم أبيه لمستقبل لم يطل الوصول إليه, و حلم أمه في سند قوي لابنتها المدللة .

جنى قطة البيت المدللة , هشة كقطعة حلوى , غضة كبرعم وليد , تعرف مكانتها في قلوب من حولها فتزداد دلالاتها إلى دلالات . صور طفولة راتب تؤكد إلى حد كبير أن جنى ابنة أبيها . عيونها الواسعة , ملامحها الدقيقة و أكثر شيء نظرة الدهشة و الحيرة الملازمة لعينيها العسليتين . لا يمكن لهذا النوع من

البشر أن يزعج أحدا سوى أن على من يعايشه أن يقول له دائما أين يتجه و ماذا يفعل و كيف . ولو أتيح له يد تأخذ بيده طول الطريق لكان أسعد ما يكون . كل ما ورثته جنى من صفات أبيها لم يكن ليزيدها إلا قربا من قلب أمها على الرغم من أن تلك الصفات نفسها كانت أكثر ما يوسع المسافة بين سلام و راتب و يحيجها إلى جسور تحيكها بيديها لتبقى على وفاق دائم بشريك حياتها ورفيق رحلتها . تبسّمت سلام بعجب وهي تتأمل طفليها المختلفين ,المنسجمين برباط أمومتها و حنانها الكبير.

كل ما ترجوه الآن أن لا يحدث شيء يعيد إلى طفليها لحظات الرعب والخوف التي عاشوها وهم يعبرون برزخ الحياة و الموت وهم يفرون بأرواحهم من براميل الموت و جحيم القنابل.

" بابا ! " _

لهفة مصطفى وهو يثبُ باتجاه الباب أضاعت في نفسها ومضة رجاء ما لبثت أن تلاشت عندما لمحت عينيه المنقلبتين بالخيبة وهو يعود حاملا طعام الغداء بين يديه ليهمس بفتور: .

" البرياني "

أن يأكل أولادها مما تطبخه لهم بنفسها كان أمرا لا جدال فيه في مملكتها التي تدير كل شيء فيها بطريقتها الخاصة . بعد مجيئهم إلى الإمارات كان البرياني فقط هو الشيء الوحيد الذي لم تستطع إقناع مصطفى أن بإمكانها تحضيره أفضل مما يفعل المطعم اليمني القريب من بيتهم . استسلمت للأمر لأنها لم تتخيل أن تكون سببا في حرمانه من الفرحة التي يشرق بها وجهه عندما يشم رائحة البرياني و يستمتع بمذاقه اللذيذ.

_ " ليش ملعتين بس ماما ؟ "

_ " آه . . جنى ! ما انتبهت حبيبتى . يا الله يا مصطفى تعال حبيبي "

_ " أنا رح أنتظر بابا "

_ " بابا ممكن يتأخر . نتعدى الآن و لما بجي ترجع تشاركه يا الله تعال " .

أول مرة تشعر أن في قلبها شيء على راتب . لم تكن قادرة على لوم نفسها . لا تشعر أنها ارتكبت تلك الخطيئة التي تستحق أن تعاقب عليها بتنغيص فرحة أولادها في يوم إجازتهم. لا يتحمل الموقف كل هذا الإحساس بالذنب. مثل كل البيوت لم تكن حياتهم تخلو من بعض الخلافات التي سرعان ما تنقضي كسحابة صيف عابرة دون أن تترك أثرا في نفسها. ولكن هذه المرة تشعر أن تصرفه مبالغ فيه وغير مقبول . ليست المرة الأولى التي يحدث فيها ذلك عن قصد أو غير قصد و كان دائما يتجاوز الأمر لأنه يعرف أنها تعوضه بأكثر مما يريد . لا يمكن أن يكون غيابه لسبب بسيط كهذا . ربما يكون حزنه على ابن أخته .. ذلك الحدث الذي أفقده التوازن و أصابه بالانكسار . هي أيضا صدمت لموته ولكن ما الذي يمكن فعله؟ و ماذا يفيد الحزن و أنفاس الحياة هذه تضطرب في صدورنا , تتدفق كمياه نهر جار لا يمكن لشيء أن يوقفها. حتى لو اعترضها حاجز أو عقبة, تتجمع خلفها إلى حين, ثم تلعو عليها و تتدفق شلالا هادرا يكمل طريقه حتى النهاية .

" يا الله جنى , يا الله مصطفى . بسم الله الرحمن الرحيم "

حُرقة

مضى أكثر النهار. دخل هذا المكان قبل الشروق, , وها هي الشمس توشك على الغروب و هو على حاله . لا بد أن كل شيء سار كالمعتاد . لا بد أن زملائه في الشركة قاموا بجمع الأرقام وتنظيم الجداول وتحضير سندات الاستلام والتسليم تماما مثلما يفعلون كل يوم, وهم الآن في طريقهم إلى بيوتهم. ربما يكونون عالقين في زحمة السير يحلمون بوجبة العشاء مع عائلاتهم ومشاهدة برنامج ترفيهي يخلدون بعده إلى النوم لينهضوا في الصباح ويكملوا الدوران في الحلقة المغلقة , الحلقة المغلقة على مشاعرهم و آمالهم وأحلامهم ,ينفلتون من أسرها فقط عندما تتوقف أنفاسهم وتهدأ قلوبهم في صدورهم , في لحظة لا يتسنى لأحدهم الاستعداد لها وهو في غمرة الحياة. يتوقفون فجأة و يُسلمون الدور لمن بعدهم ليتابعوا الدوران . الخروج من تلك الدوامة هو كل ما يريده الآن. كل ما يرجوه بشدة بضع لحظات يتوقف فيها , ينسلخ عن جسده ويطلق بنفسه بعيدا خارج المعتاد والمألوف .

عينا خالد ترفرفان حوله كحمامتين وجلتين . تحضره نظراته , ضحكته وفتوته المتدفقة كحقل سنابل يتماوج في ضوء الشمس, و يتضوع أملا و بشائر. قال له سأعطيك جنى عروسا . من أحق بها منك ؟ من يستطيع أن يظّلها بالهناء والمودة مثل خالد ؟ من يستطيع أن يجعله مطمئنا على ثمره فؤاده وسعادتها مثل خالد ؟

تناول القلم وأسند الورق الأبيض إلى ركبته .

" بسم الله الرحمن الرحيم

أنا راتب مصطفى

أنا حزين . قلبي ملتان كأن به جمرة تحرقه.

أنا حزين لموت ابن أختي خالد .

مات خالد , استشهد خالد , قُتل خالد . لا أدري أي واحدة تصح , و لكنّه لم يعد هنا . عاش ثمانية عشر عاما على الأرض و رحل. لن أراه مجددا . لن أسمع ضحكته . لن أرفّ إليه جنى عروسا عندما تكبر.

مات خالد في كمين دبّرّه عناصر الجيش . كمنوا لهم على مفرق البلدة وأمطروهم بالرصاص. قتلوا تسعة عشر شابا من شباب البلد.

أخي أحمد في الجيش . ربما كان مع الفرقة التي نفذت الكمين . ربما تكون رصاصاته نفذت إلى قلب خالد وفجّرتّه وأجبرت روحه على الفرار من جسده الفتى .

خالد وأحمد نصلا رمحين مغوسين في قلبي . جرحان مفتوحان ينزفان ألما و حسرة .

قلبي مثقل بالألم . بالوجع . بالسواد . أختي حزينة . كلمنتي وفي صوتها رضا وفي صوتها سكينه وحزن هادئ . لم أعزّها بموت ابنها . تاهت من فكري كل كلمات العزاء . حزنها تغلغل في عروقي وسكن دمي . دمي ألم , عظمي ألم , قلبي ينبض بالألم . كيف أكمل الطريق ؟

عندما وصل خبر خالد كنت في البيت , كانت سلام تعذّ العشاء. لم أستطع أن أتناول شيئا تلك الليلة . كان حلقي حقل أشواك بريّة وجوفي حفرة من نار . سلام أطعمت الولدين وأكلت معهما . قالت أنها حزينة . احتضنتني وربتت على رأسي. قالت لي خالد شهيد لا تحزن عليه , هو عند ربه و ربّه أرحم به من أمه وأبيه . ثم جلست إلى العشاء و أكلت . أنا لم أكل شيئا . سلام قوية . سلام لا تعرف أنني ضعيف . سلام لا تعرف أنني أخاف . سلام لا تشعر بموجات الرعب التي تغمر قلبي عندما أفكر برحيل من أحب . سلام لا تعرف كيف اشتعل قلبي حزنا على خالد و على أحمد . سلام قالت علينا أن نرضى بالقضاء و القدر و ألا ندع الحزن يهلكنا طالما نحن على قيد الحياة . سلام قالت أنه لا شيء يوقف الإنسان سوى الموت وأنا لم أمت بعد. أنا أتنفس . أنا حزين. أنا حي.

أنا راتب مصطفى .

أنا مسلم. أنا أوّمن بالله. أنا أوّمن بالقضاء و القدر . أنا أوّمن أن الموت حق . أنا أوّمن أن الموت انتقال من حياة إلى حياة . أنا راض بقضاء الله . خالد أصبح في ذمة الله . الله أرحم به .رحمك الله يا خالد . غفر الله لك يا أحمد."

وضع الورقة على صدره وأغمض عينيه . لا بد أنّ سلام تضع الأولاد في الفراش الآن . ربما يسألون عنه , عن سبب غيابه . أصبحوا يفهمون كل شيء . ولكنّه لا يريد أن يعيش بينهم صورة . خيال والد . يريد أن يكون والدا صالحا يفخرون به و لكنّ السأم واليأس و الوهن ينخر في نفسه كما تنخر الأرضة العصا. يخشى أنها ستنفذ إلى أعماقه وتفتت روحه و يوما ما سيهوي أمامهم بلا حراك . كيف يقودهم إلى بر الأمان وهو لم يعد يرى شطا ولا أفقا ولا يجد طوق نجاة . كل شيء أمامه مظلم فبأي اتجاه يسير و إلى أين يأخذ بأيديهم وهو لا يبين الطريق؟

رفع الورقة التي خطها قبل دقائق وأعاد قراننها بصوت عال. أشعل الولاعة وتأمل لسان اللهب يلتقم عباراته . كانت تختفي حرفا حرفا في سواد الران . لعنها تنسلّ من قلبه وتنمحي كما تنمحي عن هذه الورقة .

الآن سيخلد إلى النوم في سرير نافيد البارد المتشعب برائحة التوابل . سيصيبه التعب الذي يخدر أطرافه بالنعاس سيحمله بعيدا ويلقي به في أعماق السبات . لن يصبه الأرق. هذه الليلة سيغمض جفنيه على نية . وسيصحو على أمر مختلف .

ربما تمنحه هذه التجربة قوة جديدة. ربما تهبه معنى جديدا للحياة و مذاقا مختلفا يغيّر طعم المرارة العالقة في أحاسيسه و التي تدمغ بنكهتها دقائق وثواني أيامه المتشابهة .

كيسة الشكولا

مسحت نقاط الماء عن أرض المطبخ . سحبت بقايا الطعام العالقة في مصفى حوض غسيل الصحون وتأمّلت الماء يغور بسرعة محدثاً قرقرة في أنبوب التصريف . هذا ما يحدث أحياناً , تتراكم أشياء وتمنع الأمور من المضي في سبيلها وما علينا سوى إزالة العوائق لنجعل كل شيء يجري في مساره الصحيح . أول مرة وقفت هنا حضرتها صورة مطبخها في الشام . لم يكن ثمة مقارنة ممكنة بين ذاك المطبخ الواسع المضاء بنور الشمس و المظلل على خُصرة الحديدية المبهجة للنظر . الخزانات بلونها الخشبي المطلي بالورنيش اللامع و أصص النباتات على الطاولة والرفوف . الخزن المملوءة بأنواع المرببات و المكسرات وكل شيء من أرض البلد . الطاولة الكبيرة بمفرشها المطرز والكراسي الستة من حولها . و هنا ليس سوى حجارة معتمة ذات سقف واطى تطل على منور البناء من خلال نافذة صغيرة تفتحها أحياناً لتغيير الهواء فتحمل إليها روائح التوابل الهندية الحارة والتي غالباً ما تصيبها بالعثيان . وبعض خزن تخرج منها صراصير الخشب الدقيقة والتي تأبى أن تُنفى من موطنها . مساحة لا تكفي لوقوف ثلاثة أشخاص معا . مع ذلك لم تأخذ وقتاً طويلاً لتعتاد على هذا المكان . مسحت من رأسها بقليل من الأسف صورة مطبخها الرائع و وقفت هنا ترتب كل شيء بطريقة تساعدها على انجاز عملها بسرعة . استغرب راتب سرعة اعتيادها على المكان . و لكنه غلّف استغرابه بشيء من الفكاهة " و كأنك هنا منذ سنين ! " . ضحكت لقلوبه و لكن انشغل تفكيرها لدقائق محاولة تحديد إن كان يرى في ألفتها للمكان مزية أم نقيصة . شعرت أن عبارته تحتمل الوجهين و لكن لم تدر حينها أيهما يقصد .

لم يعد هناك شيء عمله هنا . كل شيء نظيف ومرتب وفي مكانه الصحيح . ألقى نظرة أخيرة على المطبخ ثم أطفأت النور و أتجهت نحو الصالة . لا تريد أن تخلو بنفسها و تستسلم للخواطر تبحر بها في كل اتجاه . لا تحتمل هذه الحالة أبداً . الأمور تجري في مسارها المرسوم سواء فكرنا فيها أم لم نفكر و ليس علينا سوى أن نملاً كل دقيقة من وقتنا بعمل و نترك الأقدار تجري في أعنتها ريثما تنجلي الأمور و يبين المستور . هذا ما كانت تقوم به دائماً و لكن يبدو أن الأمر هذه المرة تجاوز قدرتها على التزام الهدوء و التروي . **ينبئها** بهذا الرعشة في يديها و نبض قلبها المتسارع , بعض الوهن في ركبتيها و صوتها الذي يخرج ثقيلاً وكأنه يصدر من مكان بعيد . لا يمكنها تجنب هذا الشعور المخيف وكأنها تجذف لوحدها وسط البحر في مركب متقوب ., تخشى أنها ستتعب من التجديف فجأة و تُسلم المركب للأمواج .

__ " خلّصت واجباتك مصطفى؟ وين جنى؟ "

__ " جنى بالحمام . أنا خلّصت واجباتي و عملت واجبات جنى كمان . "

__ " مصطفى ! أنا طلبت منك أن تساعدها و مو عملها واجبها . "

__ " ماما .. جنى ما تعرف تقرأ . كررت لها الجملة ست مرات و ما قرأتها لوحدها . المعلمة رح تعطيه عقوبة . "

__ " حبيبي . المعلمة تعرف أن جنى ما تعرف تقرأ و ما رح تعاقبها . إحنا كلنا رح نساعدوها و هي رح تصير شاطرة . "

__ " بس ماما , أنا لما كنت بصف الأول كنت أقرأ . صح ؟ ليش هي ما تعرف تقرأ ؟ هي غبية ؟ "

- " ما تقول عن أختك هيك . جنى مو غبية . جنى أميرة . و هي حبيبتي . "
- " و أنا كمان أحبها . آسف ماما . ماما احنا ما رح نروح المول ؟ "
- " لا اليوم ما رح نروح . ما يلزنا أغراض . إذا احتجنا شي راح نجيبه بكرة و احنا راجعين من المدرسة من السوبرماركت اللي تحت . هلاء رح نحضّر حالنا للنوم حتى نقوم بكرة بكير . "
- " لا ماما لسه ما صار الليل . خلينا نروح مشوار . الجو حلو كثير . "
- " حبيبي آخر الشهر راح ناخذ العطلة و ان شاء الله نروح مشاوير كثير . "
- " طيب ممكن أنزل على البلاي ستايشن ألعب شوي . "
- " لا مصطفى .. أنا تعبانة .. "
- " بس أنا مو تعبان ماما . لو سمحت .. أنت زعلانة لأن بابا طوّل ؟ "
- " بابا عنده شغل مهم و لما يخلصه راح يجي . ايش رأيكم نعمل كيكة و عصير . "
- " أنا بدي العب المزرعة السعيدة على الآي باد . "
- " و أنت جنى تساعديني ؟ "
- " أي ماما أنا أساعدك بس بشرط . نعملها بالشوكولا . "
- " نعملها بالشوكولا . و نكتب عليها الأميرة جنى . "
- " و مصطفى . "
- " إذا جنى توافق نكتب . "
- " أي ماما . نكتب عليها جنى و مصطفى . "
- " ياالله . أحلى كيكة بالشوكولا لجنى و مصطفى . "
- " و لبابا ؟ "
- " و لبابا . "
- لا مفرّ من المواجهة مهما حاولت تجنّبها . سيأتي الوقت الذي تختلي بك نفسك . تعرض عليك قصاصات صور مبعثرة تلخّ عليك في إعادة تنسيقها و ترتيبها رجاء بعض السكينة التي تحظى بها حال إدراكها لصورة واضحة . و إذا ما أخفقت في ذلك فليس أمامك سوى الأرق و بحر من الضباب تتلاطم فيه خواطرك ورواك في منأى عن أي منطق أو معقول .
- أين هو راتب ؟ و لماذا يفعل هذا ؟
- مازال جواله مغلقا . لا فائدة من محاولة الاتصال به . لو كان يريد الكلام لاتصل . هل يكون في البرّ مع أصحابه في الرحلة التي أخبرها عنها قبل أيام ؟ لعلّه يكون . و لكن لم يغلق جواله ؟ ربما يحتاج لبعض

الخصوصية بعيدا عن أسنلتها و إلاحها على إخراجها من عزلته و صمته . و لكنها في الفترة الأخيرة توقفت عن إزعاجه . لم تعد تحاول اقتحام وحدته و لا حتى إخراجها من تأملاته الطويلة .

تبدو أجزاء الصورة عصية على التأليف . كلما ضمت جزءا إلى جزء بدا متنافرا غريبا لا يُسرُّ لها خاطرا و لا يهدأ لها بالا . رمقت جوالها بنظرة حانقة و أزاحتها بيدها بعيدا كما لو كانت تحمله مسؤولة غياب زوجها المحير . ضحكت من نفسها وتفكيرها الطفولي الساذج و هي تعاود حمله . لا يمكن أن تكون الأشياء سببا . هي النفس فقط لا شيء سواها ما يمكن أن يكون السبب في كل شيء يحدث لنا و ما الأشياء سوى أداة توجهها النفس كيفما تريد و تبغي . مع ذلك لا تشعر برغبة في تصفح النت أو الدخول إلى الواتس أب . فكرت في نفسها , عندما يعود راتب لن تفتح الواتس أب في حضوره , حتى لو كان منصرفا عنها بمتابعة الأخبار . ستحاول الانشغال بأي شيء و لكن لن تسلم نفسها لسيل الكلام الذي لا ينتهي و لا يفضي إلى نتيجة .

عندما يعود راتب ! أدهشتها الخاطرة . وهل يمكن أن لا يعود ؟ ربما . كل شيء ممكن في الحياة . ليس هناك شيء مستحيل .

أسندت رأسها إلى حافة النافذة المطلّة على الطريق من الطابق الثاني عشر في البناء القائم في شارع الرولة . الناس أشبه بدمى تتحرك في كل اتجاه على مسرح كبير . من هنا كل الناس متشابهون . لا يميز بينهم لون و لا ملامح . و لا أفكار و لا مبادئ . فقط يتحركون , يمضون إلى غاياتهم . علب مغلقة لا يعلم أحد ما بها . لم يخطر لها في أي مرة أنها تفضل أحد من هؤلاء في شيء . أيا كان أصلهم أو عملهم . هم في النهاية ذرات تدور في مدارها المرسوم كما تدور هي في مدارها , في رحلتها التي تعرف بدايتها , و لا تدري متى وأين ستنتهي , و من سيصحبها حتى المحطة الأخيرة . الأولاد نائمون . الصمت يلف المكان . الصمت و الوحدة يستدعيان الخواطر الغافية في بواطن النفس .

هل يمكن أن يكون راتب قد علمَ بسرّها ؟

هل يمكن أن يكون قد فطن لأمرها و ما تغلق عليه قلبها ومشاعرها ؟ كيف ذلك و هي لا تبدي له غير المودة والاهتمام . هل يمكن للإنسان أن ترشح مشاعره وأحاسيسه فيعلم بها من يعايشه وينظر إليه . ولكنه لم يعد ينظر إليها . لم تعد تراه يتأملها أو ينظر في عينيها . عيناه لا تحدقان سوى في الفراغ وفي يوم قادم لا تدرك هي كيف يتصوره و ماذا يعدُّ له . عالم مغيب عن إدراكها يشغلها عنه ما أوكله الله إليها من مهمات و واجبات . وحتى لو علمَ بأمرها . هل يسمح له ذلك بالتخلي عنها وعن ولديه تاركا إياها في وسط الطريق .

السرير فارغ كفلاة مقفلة . وهدوء مشوب بالكدر . لا تزعجها الوحدة في شيء . لطالما أمضت ليالي وحيدة تشغل نفسها بقراءة كتاب , أو مشاهدة برنامج أو حتى في التأمل الصامت الذي يهب نفسها السكينة و الصفاء , تُسلم نفسها بعده لنوم عميق يملؤها راحة و نشاطا . و لكن هذا الشعور بالملامة الذي يتسلل إلى نفسها كحية ملساء ناعمة تزحف إلى فريستها بسكون , هو ما يجعل هذه الليلة مختلفة عن سابقتها من الليالي , ملوحا بأرق مضن و قلق مرهق . النوم على الأريكة في الصالة سيكون أفضل الآن . ربما تحظى بفرصة تهدأ نفسها وتسكن في نوم مريح . لن تعطي السرير فرصة لإثارة كوامن نفسها الغافية . ليس هذا أسوأ ما حصل لها حتى الآن . ستتجاوزها بعون الله و لكن ربما يلزمها إعادة ترتيب بعض الأوراق من جديد .

ليس هناك سوى الصلاة . دعاء في سكون الليل يزيح الهمّ ويجلو الغم عن قلبها الوجل . كانت عاداتها دائما أن تختتم يومها بالصلاة رجاء أن يكون آخر عملها الاتصال بالخالق مدبر الأمور وشارح الصدور ميسر كل عسير . تبث إليه ما أثقل فؤادها من شؤون الدنيا وهمومها يعزيها في كل ذلك يقينها أن كل ما يمر بها أعراض زائلة ستنتهي في وقت يقدره الله العليم .

اليوم الثاني:

سفاري

ظلام حالك , صمت مطبق, حتى هدير مكيف الهواء أصبح جزءا من السكون. هل ما يزال على قيد الحياة . رمش بعينه محاولا استحضار إحساس ما أو إدراك ينبئه أنه حي. يشعر أنه جزء من السرير, ملتحم بالفراش والغطاء, بالجدران و السقف. هو امتداد لبقية الأشياء في الغرفة مثله مثل الطاولة, مثل الكرسي, مثل الجدار. هل انسلت روحه أثناء نومه وتركت جسده قطعة صلصال بارد بلا حياة؟. تقلصت عضلات وجهه , حرك رأسه يمينا ويسارا , حاول رفع جسده عن الفراش و النهوض . لم يستطع الحراك كما لو أن جبلا يجثم فوق صدره .

أنفاسه ثقيلة وكأنّ الغرفة قد أخلت من الهواء . استسلم للرقاد محاولا الاسترخاء . هو الآن يستعدّ للقيام بما عزم عليه و خطط له . عليه أن يعيد ترتيب الخطوات في نفسه . هذه هي اليقظة الأولى . الآن عليه أن ينهض . يدخل الحمام . يشرب قليلا من الماء ثم يعود إلى الفراش لينام مجددا . وعند الإفاقة الثانية يبدأ المحاولة . عليه أن يكون حاسما مع نفسه. التردد يعني الفشل . لقد حدد هدفه منذ البارحة . سيخرج من جسده ويحلق خارج الأرض . سيغادر هذا الكوكب المستعر بالصخب وفوضى الجنون ليتأمله من الخارج . يقف بعيدا ويتفرج. يُخرج نفسه من المشهد. يُخرجها من الوجدع والأسى والحسرة لدقائق ثم يعود خفيفا, نظيفا, شفافا, كنسمة الصباح .

جواله يشير إلى الساعة الثالثة . هناك مكاملة واحدة فقط من سلام . لم تعاود الاتصال به . سلام تعرف كيف تتدبر أمرها جيدا . لا يريد أن يشتت تركيزه بأي شيء الآن . هو يفعل كل هذا من أجل سلام . من أجل ألا يرى في عينيها تلك النظرة الفارغة من أي إحساس و كأنها تنظر إلى شيء من الأشياء التي تملأ المكان ولا تثير في نفسها أية مشاعر . هل أصبح حقا لا يعني لها شيئا؟ هل توقفت عن حبه؟ أم أنها لم تكن تحبه حقيقة, بل كانت تحب حبه لها فقط . و لكنه ما زال يحبها . لم يتوقف عن حبها يوما . هو فقط متعب حد الإنهاك, حد الذهول عن كل شيء حتى عن نفسه .

ربما يكون زملاؤه الآن في طريق العودة من سفاري . الرحلة إلى البر و قضاء ليلة في صفاء الصحراء وسكونها كانت فكرة مغرية , لكنها غير مناسبة . لو كانوا يقبلون بتمضية السهرة من غير الخمر والنساء لكانت فرصة رائعة لتأمل يغسل الروح ويجددها . لكنه لم يكن ليحظى سوى بمزيد من الصخب والجنون ولن يزيده ذلك سوى إرهاقا وتشويشا . لو أنه ينجح في الخروج من جسده ويطير إليهم ليرى عن بعد ما إذا كان ما يفعلوه يُسعدّه أم لا و لكن !! .

هل يشعرون بالسعادة حقا؟ كيف له أن يدرك ذلك والشعور يختلف بين الناس كاختلاف بصماتهم وألوانهم وأحوالهم . هو لا يسعده شيء يسخط الله الذي يعبده . الإله الذي يؤمن به ويعرف أن ما يأمر به حق وما ينهى عنه باطل . زميله أحمد استهزأ به . سخر من معتقده وما يؤمن به . تساءل متعجبا كيف يمكن لرجل تعلم العلم الذي أخرج الإنسان من الأرض أن يؤمن بالخرافات وأوهام الجنة والنار

والثواب والعقاب . قال أن الحلال والحرام شيء اعتباري أوجده الإنسان في وقت من الأوقات من أجل أن يوصّف به ما يرضيه و ما لا يرضيه. عندما كان الناس جميعا يعيشون حياة واحدة مستنسخة عن حياة أسلافهم . أما الآن فكل واحد له حلاله وحرامه ورؤيته التي يلزم الآخرين احترامها سواء أعجبتم أم لا . كان كلام أحمد غريبا و مشوشا مثل حركات يديه ونظراته وابتسامته المضطربة .

لمَ لم يعتبر أحمد أن وجهة نظره أيضا تستحق الاحترام ! أليست وجهة نظر على أي حال ؟

" يا رجل . أنت متعلم تستخدم الكمبيوتر وتعمل بالأرقام . "

"_ و لكن العلم يقول أن السُّكر وفوضى العلاقات الجنسية تُهلك الجسد . أنت يعني لا تؤمن بالعلم ولا تؤمن بالدين . بماذا تؤمن؟"

"_ أو من نفسي . أنا إنسان متصالح مع نفسي منفتح على الحياة . أعيش بسلام و انسجام مع الحياة ومع نفسي ومن حولي . الحياة تعيشها مرة واحدة . "

" هذه هي المشكلة . و لكن كيف تعرف أن نفسك على حق؟ "

"_ هههههههه . كل هذه الضغوط التي تتعبك ستبتخر وأنت تتأمل ساقى فتاة روسية ترقص أمامك . أعمدة المرمر تلك .مفعولها أقوى من السحر . خيال يا رجل . عالم آخر. "

"

كان مؤمنا أن ما يقوله زميله أحمد لا منطق له ولا ميزان و لكنه لم يكن قادرا على الجدل . لا يجب الخوض في أحاديث عقيمة مع أناس لا يسمعون سوى أصواتهم فقط . يشعر أن زحزحة صخرة من مكانها أيسر عليه من زحزحة إنسان عن رؤيته و مفهومه .

هل التأمل في ساقى فتاة روسية يمكن أن يساعده في دفع تكاليف جلسات العلاج لابنته وبقية أقساط المدرسة وتجديد الجوازات ورسوم الإقامة وأجرة البيت وفاتورة الكهرباء و و . هل يخرجها من نفسه ومن عالمه حقا . ولكن نفسه لا تطمنن إلا بالنظر إلى سلام . هزة رذيفها تصيبه بالدوار, تشتته, تخدره , انثناءاتها بطاقات سفر تحمله إلى أماكن بعيدة يتوقف فيها سمعه وبصره ليدرك العالم بحواس أخرى .

ارتشف قليلا من الماء . ابتلعه بصعوبة . تجنب النظر في المرأة . لم يعد يشعر بالجوع , كأن معدته أُلْفَت الخواء . ربما عليه أن يتناول بعضا من حبات التمر من أجل أن يحافظ على قوته , في النهاية لن تتمكن نفسه من البقاء من غير جسدٍ حي . و لكن هل النفس حقا شيء آخر غير الجسد . هل توجد حقا تلك النفس الجلّية بين جنباته تحيها جانبا النفس الواعية المنغمسة في مشاغل الحياة و هموم المعيشة . كيف له أن يصل إليها و يعيش بها تاركا هموم الدنيا تُردُّ عليه كما تُردُّ الإبل على الماء, تكدرها قليلا ثم تنصرف عنها ليعود إليها صفاؤها و رقرقتها و عذوبتها.

تناهى إلى سمعه صوت الأذان . هذا أذان الفجر . بداية يوم جديد . ها قد أمضى يوما كاملا خارج بيته . خارج عالمه . منفصلا عن دائرته التي يدور فيها منذ عشر سنوات. يوم كامل لم يسمع فيه أنباء الموت و الدمار و الخراب على الرغم من أن رحى الحرب مازالت تدور لم تتوقف و لم تهدأ و لم **ترتاح** مادام هناك أناس يديرون عصاها و يُلقون بين رحاها كل من قُدِّر له أن يوجد في هذا المكان و الزمان حتى لو لم يدرك عقله المنهك بترتيب أولوياته البسيطة بأي ذنب يهدر دمه و ماله و عمره. سيصلي لله و يتوجه

إليه بالدعاء أن يريح قلبه المضطرب . لم يعد يريد أن يفهم و لا أن يعرف لماذا يقوم أبناء آدم الذين أودع الله فيهم نفخة من روحه , بإراقة دمائهم و قتل أنفسهم و إفساد الأرض التي استخلفهم الله عليها . لا يمكنه أن يعلم . لأن الملائكة أيضا لم تعلم لماذا جعل الله في الأرض من يفسد فيها و يسفك الدماء وهم يسبحون بحمده و يقصدون له . لا أحد يعلم . فقط الله يعلم . الله الحكيم العليم . الله أكبر .

رفع رأسه من سجود طويل . هل يُغضب الله ما يقوم به الآن ؟ لم تكن حياته كلها طاعات . لطالما كان يقترب و يبتعد , و مرات كثيرة يحوم حول الحمى حتى يكاد يقع فيه . لكنه لم يفقد في أي مرة إيمانه بالله الواحد الأحد . و الآن يرغب بشدة أن يعيش حياة هادئة يسعد فيها بزوجه و طفليه . لن تُخسر هذه التجربة شيئا آخر . مجرد محاولة تعينه على متابعة الطريق . يجب أن ينام الآن , و لكن كيف يستدعي النوم . لم يجرب مرة أن ينام بإرادته . غالبا ما كان يغط في النوم من دون أدنى محاولة . لا يدع الإرهاق عادة له مجالاً للاستمتاع بلحظات السكينة و الاسترخاء التي تسبق الإغفاء . ربما كان ذلك يحصل سابقا عندما كان في الزبداني . بعد العودة من نزهة جميلة أو زيارة عائلية صاخبة أو مشوار طويل مع سلام و الأولاد في حقول البساتين المحيطة بدارهم هناك . وقتها كان يتمدد في فراشه و يسترجع مشاعر الغبطة التي كانت تغشاه فتصبح أكثر بهجة و أكثر حلاوة في نفسه , تغمر صدره بالانشراح و تشيع في أساريره سكينه تأخذه في نعاس لذيذ يجعله يطفو فوق السحاب . سيحاول استدعاء تلك الحقول , أشجار المشمش و التفاح . فراشات الحقول الزاهية , شذى أزهار النسيم في أذار . في مثل هذه الأيام . أزهار النسيم الصفراء و البيضاء الرقيقة , ترتعش في برودة الهواء و هو يرتعش معها و يغيب في سحر العبير .

الميثاق

انتبهت من نومها مجفلة . هل كان كابوسا أم أن وساوسها تسللت في غفلة النوم و حاكت لها من أوهامها خيالات أسدلت على روحها ظلالا قاتمة . هل هي رؤيا أم أنها حديث النفس و مخاوفها . عساها تكون ما تكون . ولكن ما بال رأسها و كأنه أضمرت فيه ناراً . نبض قلبها كدوي ناقوس ينذر بشيء غير سار . أغمضت جفنيها فعادت الخيالات القاتمة تتراءى لها من جديد . راتب يتمايل أمام شقراء روسية عارية الساقين . الكأس في يده و الشراب يسيل من جانبي فمه و يقطر على عباة البيضاء يلوثها ببقع سوداء داكنة تتفتش على الثوب كله و راتب يضحك و يتمايل و الشقراء الروسية تضحك و ألسنة اللهب تستعر . النار تضطرم في صدرها , في قلبها تكاد تحرقها . فتحت عينيها بسرعة . استعادت بالله و استجارت به من شر ما خلق . لا بد أنه كابوس . تعرف راتب جيدا . هو يخاف الله .

ولكن راتب في النهاية رجل . ورجل متعب أيضا . و الرجال عندما يتعبون يحتاجون إلى امرأة تزيل عنهم متاعبهم . و هي لم تكن حاضرة هذه المرة . تركته بملء إرادتها و تخلت عنه . شاهدته يغرق في همومه و أوهامه فأفلتت يده و تركت التيار يجرفه بعيدا عنها و عن أولادها . خشيت أن يغرقها معه إن بقيت متمسكة به . أخذت في نفسها قرار الانفصال و انفصلت عنه . لم يكن انفصالا جسديا . كان ذلك الانفصال الوجداني الذي يخرجها من عالمه و همومه و مشاغله . لم يعد راتب في مركز دائرتها كما اعتاد أن يكون دائما . نحتة جانبا و تابعت مسيرها . نكتت بالميثاق الغليظ .

" هل تقبلين براتب مصطفى زوجا لك ؟ "

" نعم "

لم تشعر وقتها أن تلك الحروف الثلاثة تحمل كل هذا الثقل . لم تدرك أن هذا الرباط الذي ينعقد بكلمة لا يجوز أن يُحلّ من طرف واحد تاركا الطرف الآخر يتخبط في الفراغ . لكنها لم تُخبره بما يعتمل في صدرها . لم تقل له شيئا عن قرارها . أخذته في نفسها سراّ و تابعت حياتها معه كما كانت . حاولت معه مرارا . اقتحمت عالمه الضبابي الكئيب مرات و مرات و لكنه لا يريد أن يخرج منه وهي لا تقدر على العيش فيه . هي تتألم لمصاب المهجرين و المشردين الجائعين و اليتامى و الثكالى و الأسرى و كل عباد الله البائسين في الشام و مصر و اليمن و العراق و حتى في بورما و أفغانستان و لكن هل يعني ذلك أن تتوقف عن الحياة ؟ و هل يعني ذلك أن تجعل حياة طفليها كئيبة لأن الأطفال في كل تلك الأماكن يعانون . كان عليها أن تأخذ قرارا بالحياة و تقفز من المركب الذي يغرق أمامها لنلا يغرق طفليها معه . راتب لم يشأ أن يقفز معهم . هل كان عليها البقاء إلى جانبه و معايشة همومه و أوامره و مخاوفه . هل كان عليها أن تتسمر إلى جانبه أمام التلفزيون تشهق مع كل صوت قنبلة و كل صرخة ثكلى و تذرف الدموع لرؤية الأطفال الحفاة يلتقطون طعامهم من القمامة ثم تغطي وجهها فزعا من صور الأشلاء المتناثرة فوق التراب المصطبغ بالدماء . ولكنها لا تحتمل ذلك . نفسها لا تطيق ثقل الهموم . لا يتسع صدرها لأكثر مما حملها الله . كل ما فعلته هو أنها تركت راتب في عالمه لوحده و رضيت بوجوده في حياتها صورة بلا حياة و لا أثر . رضيت بالهمّ و لكن يبدو أنّ الهمّ لا يرضى بمن يرضى به كما تقول النساء . ها هو راتب يخرج من حياتها صورة و معنى فماذا تفعل الآن ؟ .

أكدّ لها أنه لن يذهب . راتب لم يكذب عليها يوما . ولكن ماذا لو حدث ذلك حقا ؟ كل شيء في الحياة ممكن . تندفع الحرارة في رأسها . أغمضت عينيها وبدأت تدلك فروة رأسها و تسرح خصلات شعرها بأطراف أصابعها . يهدأ نبضها المتوتر . تتأمل في نفسها . هل ما يغضبها هو أن ينظر راتب إلى امرأة أخرى أم أنه يتجاوز حدود الله . هل هي غاضبة منه أم أنها تخشى عليه أثر المعصية . هل مرارة الإهانة لأنوثتها هو ما يكوي قلبها بنار الغيرة ؟ أم أنه خوفها عليه من غضب الله . كيف لها أن تعرف . ربما يكون كل ذلك خيالات و أوهام . ربما يكون فعلا مع أصدقائه في رحلة برينة يعود بعدها متخففا من أعباءه و همومه . ستقع نفسها بذلك حتى يعود راتب و تتبين منه كل شيء .

هل حظيت فعلا بنوم حقيقي ؟ تساءلت في سرها وهي تتمطى مستجدية بعض الطاقة المخزونة في أطرافها . لكنها لا تشعر بتلك الراحة التي تمنح الجسد إحساسا بالنشاط بعد نوم عميق . ما زالت تشعر بكل خلية في جسدها تنبض بتوتر مرهق . ربما لم يكن نوما حقيقيا . مجرد كبوات متقطعة على الأريكة الضيقة في الصالة لن تمنحها ما تحتاجه من راحة و استرخاء . على الرغم من أنها أحوج ما تكون اليوم إلى همّة عالية و نشاط قوي . بدأت ترتب في عقلها برنامج اليوم . ساعة الحائط تشير إلى الثالثة لديها متسع من الوقت ، عليها تحضير غداء اليوم قبل الذهاب إلى المدرسة . بعد ذلك توظف الأولاد و تجهزهم . و اليوم أيضا تبدأ مع فتيات الثانوي التدريبات الأخيرة على مباريات كرة السلة لفريق المدرسة . عليها النزول باكرا و انتظار مس ابتسام لتقلّم معها إلى المدرسة . عند العودة يلزمها بعض الأغراض ستشتريها من السوبرماركت القريب . و تعود إلى بيتها لتتظن كيف سينتهي هذا اليوم الثاني من غياب راتب عن البيت . لا وقت للتفكير الآن . كأس من النسكافيه سيجعلها تقفز كالحصان .

الانفصال

الإحساس بالسقوط في الفراغ وشهقة ملء الصدر . ثوان قليلة قبل إدراك الحلم واستيعاب الحالة . أبقى عينيه مغمضتين . هذه هي الإفاقة الثانية . عليه ألا يفقد اللحظة . الآن و بكل قوته و كل عزمته عليه أن ينفصل . استجمع طاقته قدر ما استطاع . أحس بحنجرته تتشنج , تتصلب . الحرارة تندفع في رأسه . حبس أنفاسه . وجهه تركيزه بالكامل على جسده , مسحه ببصره الإدراكي من أظافر قدميه حتى مفرق رأسه . عيناه مغمضتان . سيتجرد الآن عن جسده الترابي . سيخرج من شرنقته . بجسده النجمي الشفاف . سينسلخ عنه كما ينسلخ الثوب عن الجسد . ها هو جسده الأثيري يتحول موجات طاقة حارة . تتجمع فوق الأدمة , فوق البشرة , تكاد تنفذ من مسام جلده و تنطلق , تتحرر , تعلق بعيدا بعيدا . يجب أن يشعر بالدوار . أن يشعر بالارتعاش حتى ينسل جسده النجمي من كتلة التراب التي تعيقه . يحاول هز أطرافه . عيناه مغمضتان . ترتعشان و لكن جسده هادئ لا يتحرك فيه شيء ولا يخرج منه شيء , يهدأ نبض قلبه . تهدأ أنفاسه . برودة مفاجئة تسري في أوصاله . تتلاشى موجات الحرارة وتولي هاربة . يشعر بثقل جسده فوق الفراش . يحرك يديه و قدميه , يفتح عينيه , لا يرى جسما شفافا يطفو ويتهادى فوقه . لماذا توقف كل شيء . كان على وشك الانطلاق . ما الذي أوقفه .

خيوط النور تداعب بصره , تزيح العتمة من المكان . ضوء الصباح . يا الله ! كيف نسي الستارة مفتوحة ؟ لا يحدث الانفصال إلا في الظلام أو في ضوء خافت . يا للغباء ! كيف أضاع على نفسه هذه الفرصة ؟ كاد يفعلها و ينتهي . عاودته رغبته بالحاح أكثر . أصبحت أقرب إلى الإصرار والعناد . لن يستسلم . حتى لو بقي دهرًا يحاول . سيفعلها . وسيخرج من جسده .

نهض من الفراش متثاقلا . أغلق الستارة الداكنة . تلاشى النور . وسادت العتمة من جديد . لماذا لا تخرج النفس الأثيرية إلا في الظلام ؟ إذا كانت هي الحقيقية والجلية و الشفافة فلماذا لا تحب النور ؟ أليس النور أيضا حقيقيا وشفافا ويجعل الأشياء جلية واضحة ؟ به نبصر الأشياء و ندرك أبعادها وحقيقتها . النور يظهر الأشياء و الظلام يخفيها . فلماذا لا تظهر النفس الأثيرية إلا في الظلام ؟ لن يكون السؤال الوحيد الذي ينتظر الإجابة . سيخبئه في تلافيف دماغه الكثيرة ويدعه يغفو مع جميع الأسئلة التي دفنها هناك منذ اللحظة التي توقف فيها عن الشعور بجدوى الإجابة على أي سؤال . فكل ما هو مقدر يكون . علمنا علته أم جهلناها . فعلام التعب ؟ . هو يريد أن يختبر هذا الشعور ويعيش هذا الإحساس . يعتقد جازما أنه سيمنحه شيئا يغير حياته . ربما يحول مساره . ويجعل منه رجلا حقيقيا يملأ عيني سلام و قلبها . سيحاول مرة أخرى . لا بد أن ينجح . سيجرب تقنية الحبل وتقنية التآرجح وحتى طريقة العطش . سيجرب كل التقنيات التي تعلمها وقرأ عنها حتى يصل إلى ما يريد .

ضباب

الضباب ستارة بيضاء مسدلة . تخفي خلفها الأبنية العالية وأرتال السيارات الطويلة التي تشق أبواقها أستار الغبار. في الشام يسمونها العجاج و هنا لا تدري ماذا يطلقون عليها . رمال الصحراء الناعمة تهاجم كل شيء تتسلل من إطارات النوافذ و الأبواب تنفذ إلى الأجسام من تحت الملابس وتغشى العيون . تعلق بالرموش و تمتزج باللعباب حتى تستقر لذعتها في الحلق. لا تقدر المدنية مهما أبدعت على قهر رُسل الصحراء . هي حاضرة دائما تأتي متى وأنى تشاء.

أحكمت قبعة السترة فوق رأسي ولديها و تلفحت بشالها لتمنع عن وجهها هجمات الغبار. الهواء يَلُوح بالعباءة فتلتصق بها كاشفة تفاصيل الجسد. تشد العباءة بعيدا عن جسمها محاولة ستر نفسها . لا تصلح العباءة لهذه الأجواء . تلمح سيارة مس ابتسام قادمة فتسرع بولديها باتجاهها .

تحية الصباح أيضا يلفها الضباب مثل الجو الذي يغشى المكان . وجه ابتسام غائم , نظراتها مشوشة وفي صوتها فتور غير مألوف يوحي بألم دفين. مع ذلك , نظرة واحدة إلى وجه سلام جعلتها تبتسم ابتسامة من كشف الغطاء و عرف المستور. ربما أن النفوس المتألمة تشعر ببعضها . حتى لو اختلفت درجة الألم و لونه , تبقى النظرة الكسيرة تفضح الابتسامة الكليلة التي تحاول قهر الألم و ستر ذات الصدور .

يغلف الضباب كل شيء بالغموض و يجعل الأشياء باهتة , غريبة , لكنه يتبدد و يتلاشى عندما يلامس نفس سلام . لطالما كانت رواها واضحة و غايتها جلية لا يشوبها لبس ولا غموض. اصرارها يبدد سُحُب الحيرة و همتها العالية تذلل العقبات. لا تكسر صبرها و ارادتها و عورة الطريق .

أطبقت جفنيها عن معالم الطريق التائهة خلف الغمام العائم بين العربات, و عادت الى أيام خلت, كان الضباب يهاجم عالمها من كل جانب . يتسلل الى نفسها جاعلا معالم الدرب الذي رسمته في أحلامها تتماهى حتى لتوشك أن تتلاشى و تنمحي على حدود أفق ضيق لا يتسع الا لما أَلْفَهُ و دَرَجَ عليه .

" مجموع هندسة تضييعه في الرياضة !. "

" أقل شهادة في العيلة تجارة! "

", اللي أقل منك بدرجات راحوا رياضيات و فيزيا . و انت تروحي رياضة !"

تركت كل واحد يفرغ دلوه في ساقيتها المفتوحة على كل الاتجاهات و عندما انتهوا كانت بركتها رائقة لا يتفرق فيها سوى حلمها الكبير و لا يتلألأ على صفحتها سوى رؤيتها الصافية صفاء قطر الندى أول النهار.

عندما قررت دخول كلية الرياضة بعد الثانوية كانت تعي تماما أن ذلك لم يكن خيارها الوحيد الذي ألجأها إليه مجموعها في الثانوية . كانت تدرك جيدا نظرة المجتمع و تصنيفهم للبشر حسب ترتيب شهاداتهم و مستوى دراستهم و أن الرياضة في مجتمع يزن كل شيء بالمال و المنصب لا معنى لها . السر الذي لم تُطلع عليه أحد , أن خيارها هذا و اصرارها عليه رغم المصاعب كان نوعا من ردّ الجميل و الاعتراف بالفضل لشيء كان إلى حد كبير جسرا متينا عبرت عليه من ضفة المراهقة المرهقة إلى ضفة النضوج و الأمان و السلام .

في الوقت الذي بدأت براعمها تتفتح, و أزهار ربيعها النضرة تورق, كانت أشياء كثيرة تحدث لها دون أن تعرف كيف و لم يحدث كل ذلك . لم تنهض تلك التلال , و تستدير تلك الهضاب , يمتشق عودها كنخلة تتثنى مع الريح و يصدح صوتها كوشوشة النسيم في غابة صنوبر . كل ذلك تحت أنظار عيون ترقب وترصد وتتصد أي هفوة لتصويبها و أي عوج لتقويمه و لكنها لا تدري شيئا عن الزوابع التي تعصف بها, و البراكين التي تصب بحممها الملتهبة في عروقها الغضة لتفيض نزقا و جنونا و خوفا من كل شيء. في بيئة تتسع فيها دائرة الممنوع و تضيق دائرة المسموح لتصبح إطارا لا يكاد يتجاوز حدود الجسد الذي تعيش فيه النفس التائهة بين عالم خارجي يحكمه كلام الناس و نظرتهم و عالم داخلي منفصل عن كل ما حوله تقوده الرغبة العارمة و التوق الشديد لشيء من المنطق و المعقول .

تعلمت في المدرسة خرائط العالم وتضاريسه و لكنها بقيت تجهل خريطة جسدها و ما يجري له وفيه و عليه . و بعد قراءات كثيرة و تفكير طويل فهمت أخيرا لماذا كان يجرفها الحزن كسيل أهوج يتلوى بين الحقول و لماذا كانت سكينتها تحترق فجأة كجناحي فراشة تحوم حول النار. و لماذا كانت تستحوذ عليها رغبة عارمة في الانزواء والاختباء أحيانا حتى تتمنى لو أنها حشرة صغيرة تختبئ بين الأعشاب و مرات كثيرة تجد نفسها عملاقا قادرا على تغطية العالم كله خلف ابهامه . الى ذلك الوقت الذي وصلت فيه الى بر الامان كانت جدتها مع الرياضة المتاحة لها , هما المجدافان اللذان أبحرت بهما وسط الأعاصير و العواصف و عبرت بهما كل التيارات والأنواع. وكان التخلي عن أي منهما لا يقل لؤما عن بحار جاحد يكسر مجدافه وقاربه حالما تطأ قدمه الرمال.

في الفناء الخلفي لدارهم في الزبداني كان لها جولات و صولات مع جدار المطبخ الخارجي حيث لا تززع أحدا بضوضائها . كانت تمطره بضربات متواصلة من كرة المضرب لأشواط طويلة لا يقطعها سوى نداء أمها طالبة منها عوناً في مهمة أو عمل. ذاك الجدار كان خصما عنيدا يصد كراتها كلها ولكنها لم تكن تقل عنه صلابة وعنادا. في أيام البرد والثلج كانت تقفز بالحبل داخل غرفتها لساعة كاملة فاتحة بوابات طاقتها على العالم تنساب من أرجاء جسدها كل الأحاسيس المكبوتة و المشاعر المرهقة , لتتركها صحيحة نشيطة حتى اذا أمسكت كتابا لم تجد الخيالات و أوام الخواطر سبيلا الى نفسها اليقظة لتنجز في ساعات قليلة ما تنجزه رفيقاتها في نصف نهار و أكثر . و بقدر ما كانت سعيدة و ممتنة لنجاحها في قيادة نفسها الى بر الامان كان اصرارها على اشاعة تجربتها و نقل خبرتها الى الفتيات الشابات رسالة عاهدت نفسها على أدائها لكل من تجمعها به الأقدار و يجمعهم بها مشوار الحياة أينما كانوا.

thank you ""

كلمة الشكر الوحيدة التي تسمعها هنا . تدخل السرور على قلبها حتى لو كانت من جهاز قارئ البصمة الذي يسجل ساعة و دقيقة وصولها الى الدوام . الآن تدخل عالم آخر تخلع على بابه كل مخاوفها و همومها و تمنح نفسها بالكامل لما تقوم به مع الفتيات. و لكن , هل ستتمكن اليوم من ترك راتب و غيابه المقلق خارج باب المدرسة أم سيصحبها خياله و بحر احتمالات تعصف أمواجه بخاطرها دون أن تحملها الى بر و لاشط .

مصطفى

مدّ بصره و أرخى بخياله حبلاً يتدلى من السقف . يتلوى كأفعى تتمايل على أنغام ناي شجية . صدره يعلو و يهبط مع أرجحه الحبل . أنفاسه و الحبل يتناغمان بتردد واحد . يمدّ يديه الأثيريتين . يمسك طرف الحبل . يتعلق به و يتأرجح معه كرقاص ساعة قديمة . يسحب نفسه للأعلى يداً فوق يد فوق الحبل الأثيري . يتسلق بهدوء ، يلف رأسه الدوار ، تغشاه الرعشة . يتابع الصعود بإصرار . يكاد رأسه الشفاف يلامس السقف . يكاد يصل . أصابع قدميه تهتران . يسري الاهتزاز إلى ساقيه ، إلى فخذيه ، أمعاؤه تتخبط في بطنه . يشعر بحركتها كفئران تجري في صندوق مغلق . يصل الاهتزاز الى صدره ، إلى حلقه ، يكاد يصل إلى رأسه . يوشك على الخروج من جسده ، يوشك على الانطلاق حراً . يتأمل جسده الأثيري في الأعلى .

تغشى عينيه صورة ضبابية . وجه مصطفى يملأ السقف . عيناه تمتدآن على اتساع المكان . عينان مشدوهتان . و فكه السفلي يتدلى ، ينساب منه اللعاب و يتدفق رمادياً لزجاً كحلزون هلامي عملاق . يتسع فمه فجأة كمغارة كبيرة ، يقضم الحبل المفتول . يطيح الجسد الأثيري في فضاء الغرفة . يتناثر كأشلاء فقاعة صابون . تتطاير ذراته الأثيرية كوهج ألعاب نارية في ظلام حالك .

أطبق جفنيه على دمعة حارة شقت طريقها بين شعرات لحيته النابتة و غارت في خيوط عباءته التي تنتفض مع أنفاسه المضطربة . كان دائماً يخشى تلك اللحظة التي سيخطو فيها ولده خطواته الأولى على طريق الجمر . كان يدرك أن هذا سيحدث في وقت ما كما حدث له قبل عشرين سنة . و لكن لم يتوقع أن يأتي هذا اليوم بهذه السرعة . مصطفى الطفل البريء الذي ما يزال يشترك مع أخته في عراك لأجل لعبة أو كلمة تثير غضبه ، كيف وصل إلى هذه الهوة؟

قبل أيام كان مصطفى ممدداً على الأريكة يلعب لعبة الكترونية على الآي باد الذي أحضره له . فجأة غشيه النعاس و أغمض عينيه مستسلماً للنوم . سحب من بين يديه الآي باد و حمله الى سريره و مدّ فوقه اللحاف . عاد إلى الآي باد يقلب فيه متشاغلاً عن صور الدم و الدمار على شاشة التلفزيون . أخذ يقلب في الصفحات التي يدخلها مصطفى . لم تكن لديه أي نية و لم يخطر له بأي شكل أن يرى غير ألعاب تستهوي طفلاً في التاسعة من عمره . و لكن الصفحة كانت موجودة في لائحة المواقع التي دخلها . لم يتحمل العبارات الصادمة . مواقع إباحية وكلمات لم يتلفظ بها في أي يوم في حضور أولاده و لا حتى أمام أي شخص . غشيته الرعشة و سرت في أوصاله قشعريرة انتصبت لها أوبار جسده ثم أخذ العرق يتحدر من جبينه . أحس بلهب نيران تتقد في شحمة أذنيه ثم تسري إلى جسده حمى ترتعش لها أوصاله . بقي ممسكاً بالجهاز الإلكتروني دقائيق غير مصدق . كانت سلام في المطبخ تغسل صحون العشاء و تترنم بأغنية شامية قديمة . لم يدعها تنتبه . مسح الصفحات المشينة عن جهاز ولده بأصابع ترتعش حسرة و خوفاً . ولكن النار التي اجتاحت رأسه لم تخدم . كان يهتز كأرجوحة فارغة . يلوك أسئلة لا يجد لها جواباً .

كيف ستتحمل عروقك الغضة يا مصطفى تسونامي التسترون الحارة التي تتدفق في الشرايين كنفار في الهشيم ؟ . كيف ستتحمل ناصيتك الفتية أعاصير الهراء الذي يجتاح خلايا الدماغ ليتركها كعصف مأكول ؟ . ستصبح يعسوباً آخر و ستهمس في أذنك أنك ذات ليلة بعد أن تمل برودك بأنك بارد كغاز خامل لا

تعطي وهجا ولا حرارة. وربما ستحلم في سرها بأن تختفي من حياتها لتلتقي برجل حقيقي. ستكتشف هذا صدفة عندما تقرأ على قصاصة تنساها بين أوراقها قول عنتره " فوددتُ تقبيل السيوف لأنها لاحت كبارق ثغرك المبتسم ".

مثمًا كتبت سلام ذات ليلة على قصاصة كانت ترسم عليها دوائر متداخلة و تسرح ببصرها بعيدا الى ألف و خمسمائة عام مضت عندما كان الرجال رجالا.

لم يقل لمصطفى أي شيء . في الصباح الذي تلى الفاجعة , أحس أن في لسانه ألف عقدة و أنه غير قادر على أن يتلفظ بحرف واحد. غير قادر على أن يمدّ يده و يسحب ولده, فلذة كبده , عن الدرب التي تنتهي إلى جرف هاو . لم يجروا حتى على النظر في وجهه, و وجد نفسه عاجزا عن إخبار سلام بشيء . فتح صرة أحزانه. ألقى فيها حزمة أوجاع أخرى. أعاد ربطها بإحكام و مضى الى عمله. و لكن ها هي الصرة قد انحلت عقدتها و خرجت منها أوجاعه تدبُّ حوله كعناكب سوداء تفترس إرادته و همته و تمنعه من الخروج من جسده المثقل بالإحباط. ليبقى حبيس الخيبة يستجدي الأمل في خيالات تعيد إليه الصفاء و السكينة.

سجود

هدأت عاصفة الغبار و حطت حملها على العربات و أطراف النوافذ الزجاجية و أوراق الأشجار, بانتظار زخة مطر تغسل آثار غضب الصحراء.

أسرعت سلام بولديها إلى سيارة مس ابتسام التي كانت تدير المحرك و تهتم بالانطلاق . بدت ابتسام و كأنها لا ترى شيئا أمامها . العبوس الذي علا جبينها جعل سلام تشعر بأنها ضيف ثقيل على زميلتها . و لكنها ابتلعت انكسارها و جلست في المقعد الأمامي إلى جانب ابتسام بطريقة توحى بأنها على وشك القيام. تركت حزام الأمان ملقى على جانب المقعد بانتظار أن تنبهها ابتسام إلى وجوب ربطه . و لكن يبدو أنه لا شيء سيكسر ذلك الجليد الذي غلفت به ابتسام قسما و وجهها و جعل صوتها يتجمد في حلقها فلا تنبس ببنت شفة. اجتاحت سلام رغبة كبيرة بالاختفاء . تمنت برجاء كبير لو أنها تكون في أي مكان في العالم غير هذا المكان . أمسكت مقبض باب السيارة و أدارت وجهها تنظر إلى السيارات المجاورة . كانت تفكر في أن تفتح الباب و تنزل لتوقف سيارة أجرة لتكمل الطريق إلى البيت قبل أن تفيض الدموع من عينيها و تغرق في نوبة بكاء . أحست بشيء في حلقها أشبه بصوت تكسر أوراق جافة تحت نعال ثقيلة . صرت على أسنانها و استجمعت قوتها من أجل أن تنطق ببعض كلمات تذيب الصقيع .

__ " تعرفي مس صادقة الهندية اللي تدرس دين لغير العرب ؟ "

__ " آه .. "

__ " شافتنى اليوم و أنا أصلي الظهر في غرفة الصلاة .. "

__ " ... أيوه .. "

" لما انتهيت قالت لي أن سجودي غير صحيح .. هي تقول أنني لازم أنزل للسجود بيدي و ليس بالركب . قال هذا اسمه سجود البعير . هذه أول مرة أنتبه أنني أنزل للسجود بركبي . ما فكرت بهذا الشيء من قبل . أنت تستقبلي الأرض بيديك أم بالركب ؟ "

" .. بالركب ... بالأكواع .. و لا حتى بالرأس ايش المشكلة ؟ "

" ايش فيكي ابتسام ؟ ! "

" آسفة سلام . أعتذر . أنا "

" أنا ممكن آخذ تكسي إذا كان وجودنا يتعبك " .

" .. سلام ... "

اخذت ابتسام بعبرات تتغرغر بين أهدابها . مدت يدها واحتضنت يد سلام بقوة بينما كانت تضغط بيدها الأخرى على مقود السيارة . شعرت سلام أن أي كلمة تنطق بها الآن ستكون رصاصة طائشة . شبكت أصابعها بأصابع ابتسام المرتعشة و لظمت الصمت . أول شارع الوحدة وقف المرور . كانت نهاية أرتال السيارات غير مرئية . مشهد ينذر بأنهم سيكونون عالقين في زحمة مرور لوقت ربما يزيد عن نصف ساعة في أفضل الأحوال . تذكرت ولديها . نظرت إليهما في المقعد الخلفي . جنى تسند رأسها إلى كتف مصطفى و يغطان في نوم عميق . شعرت بالراحة أنهما لن يرهقاها بالشكوى من طول الطريق . ابتسام تدفع السيارة أمتارا قليلة كل عدة دقائق . تذكرت كلام راتب عن معاناته في زحام الطريق أثناء رحلته إلى العمل كل يوم . شعرت بشيء من وخز الضمير لأنها لم تبد له تعاطفا . لم تشعر وقتها أن الأمر يستحق الكلام . الآن تفهم لماذا كان يصل إلى البيت منهكا و يلقي بجسده المتهالك على الأريكة لساعات . كان راتب يستحق منها تقديرا أكبر .

" سمعت المدرسات يتحدثن عني اليوم ؟ "

" لا . ابتسام ! أنت تعرفي أنا أمضي أغلب الوقت في الملعب أو في قاعة الرياضة . بس ليش المدرسات يحكوا عنك ؟ "

" رح أقدم استقالتي في نهاية الأسبوع . "

" ما السبب ؟ "

" يعني ما سمعتي بشيء ؟ "

" ابتسام تعرفيني ما أعطي أذني لكلام أحد . بس ليش الاستقالة الآن على آخر السنة ؟ "

" طبيب المدرسة الدكتور ابراهيم ... أنهوا عقده مع المدرسة الأسبوع الماضي . "

" و مالك أنت ؟ "

" بعض الأهالي اشتكوا من تصرفاته مع الأولاد . "

" طيب و مالك أنت "

__ " في بداية السنة لاحظت أن الأولاد يقضوا وقت زيادة في عيادته . نبّهت المشرفة و قلت للمديرة بس ما اكرثوا للموضوع. من اسبوعين أجت وليّة أمر و اشتكت إلى الادارة أن الدكتور داعب ابنها بطريقة غير مقبولة . المديرة لامنتي أنا و قالت أنه كان لازم أكون أكثر انتباه و حرص . "

__ بس انت تقولي أنك لفتي نظرهم إلى الأمر . ليش يحملوك المسؤولية أنت ؟ "

__ " قال كان لازم أكتب تقرير و أوثقه بأسماء الطلاب اللي حصل معهم تجاوزات . المديرة قالتلي " وين كانوا عيونك؟ " سلام .. أنا لمحت للدكتور عدة مرات و لكن خجلت أكلمه بشكل مباشر . تعرفي هو رجل كبير . أنا الحقيقة كنت أحس أن في شيء غير طبيعي بس شعرت بالإحراج من الكلام معه . ما تخيلت أن الأمر ممكن يوصل لهاد الحد . هو في عمر جدهم . و أنا ما شفت شيء بعيني . صحيح الأولاد كانوا يقضوا وقت زيادة عن اللزوم في عيادته بس صعب أتخيل الأمر بهاي الطريقة . "

__ " ابتسام ! هاي الأشياء ما فيها خجل . بس بكل الأحوال أنت ما تتحملي المسؤولية لوحك . على الأقل أنت نبهتهم . لازم ياخذوا هاد الامر بعين الاعتبار . "

__ " هم بدهم يرضوا وليّة الأمر حتى لا تسحب ابنها من المدرسة و يلموا الموضوع مشان سمعة المدرسة و وعدوها أنهم راح يحاسبوا المسؤولين و طبعاً فصلي من المدرسة هو أقل الحلول خسارة يعني تعرفي .. اللي يدفع هو دائماً صاحب الحق مو اللي يقبض .. مثلنا . "

__ " لا حول و لا قوة إلا بالله ... و ايش راح تسوي ؟ "

__ " كيف راح تروحي على المدرسة ؟ "

__ " ربنا يدبرها . ممكن أروح مع مس حنان المصرية . "

__ " مس حنان ماشية على آخر الشهر . أجاها رفض أمني . "

__ " ... أنسق مع باص المدرسة باقي ثلاثة شهور بس و ما أحد يعرف شو بيصير بعدها... انت ايش ناوية ؟ "

__ "

تنبهت ابتسام لصوت بوق سيارة من خلفها يحثها على التقدم للأمام بعد ان حُلت عقدة الإزدحام و تدفقت السيارات لتكمل طريقها كل إلى وجهته .

زمت سلام عينيها و علت جبينها عقدة خفيفة انبسطت بعد شبه ابتسامة مدّت معها بصرها إلى السماء . عندما تتأمل ابتسام في عجائب خلق الله تتبدل ملامحها لثواني قليلة لا يتمكن أحد من رؤيتها قبل أن تعود إلى هيئتها المعتادة . في تلك اللحظة كانت سلام تتعجب في سرها كيف أن كل هؤلاء البشر المختلفين في كل شيء و الذين لا تعرف أي منهم موجودون معها الآن في نفس البقعة من الأرض . كيف يمكن للحياة أن تجمع المتفرق و المختلف في لحظة معينة . في لحظة واحدة يكون آلاف البشر الذين لا ينتمون إلى بعضهم في أي شيء , في مكان واحد و زمان واحد لا يجمعهم شيء سوى اطار المكان و الزمان من غير أن يشعر أحد منهم بذلك و كأن العالم لوحة الكترونية عملاقة تتبدل الصورة فيها كل عدة ثوان . لم تكن سلام بحاجة لأن تتعب عقلها بالتفكير في اليد التي تحرك و تبدل هذه اللوحات البشرية , فقد كان إيمانها بالله شيء لا يقبل الجدل و حتى لو بدت لها تلك اللوحة عصية على الفهم في وقت من الأوقات فإنها كانت تعزي ذلك إلى محدودية إدراكها التي يستحيل أن تحيط بكل شيء في هذه الحياة . أدارت

سلام وجهها جهة الطريق مخفية ابتسامة أكثر اتساعاً طفت على وجهها و هي تتسائل في نفسها إن كان أحد من البشر الموجودين هنا يفكر كما تفكر .

آي باد

سَلِّمَت يميناً و شمالاً و بدأت تعدّ التسبيحات على أطراف أصابعها و هي تتأمل ولديها . مصطفى الغارق في تأمل ألعابه الالكترونية على الآي باد و جنى المنهمكة في تلوين إحدى الرسومات . عادت تفكر في كلام مس صادقة الهندية معلمة الاسلامية . كلام مس صادقة كان يجول في رأسها وهي تنظف مائدة الغداء و تتسائل في نفسها ان كانت صلاتها كل تلك الأيام غير صحيحة . في الصلاة أيضاً دفعت عن نفسها ذات الخواطر محاولة التركيز فيما تقرأ و عندما همت بالسجود ترددت لحظة و هي تفكر ان كان عليها أن تستقبل الأرض بيديها أم بالركب و الحقيقة أنها في الركعة الأولى استقبلت الأرض بيديها أما في الثانية فشردت قليلاً و انتبهت الى نفسها بعد القيام من السجود بأنها عادت الى عاداتها السابقة و استقبلت الأرض بركبها و لكنها لم تستطع أن تدفع تساؤلاً ملحاً صاحبها في الصلاة كلها ان كان الله يرد علينا صلاتنا ان لم نسجد كما تقول مس صادقة أم أن سجود القلب أولى بالقبول من سجود الجسد .

_ " ناواني الأيباد ا مصطفى لحظة . بدي أبحث عن شغلة . "

_ " ماما و ين موبايلك ؟ عما ألعب .. أجيبك الموبايل ؟ "

_ " لا مصطفى .. عطيني الآي باد لحظة . ما رح أطول . "

_ " لحظة ... أطلع من اللعبة .. بس شوي . "

_ " لا تطلع منها خليها .. هات .. ثواني بس . "

نظرات الرعب في عيني مصطفى و هو يمد يده بالآي باد جعل سلام تنسى كل شيء عن السجود و كيفية السجود . تناولت اللوح الالكتروني من يد ابنها كالمسوعة بينما كانت تبذل أقصى جهدها لإحفاء مشاعر الاضطراب الذي اجتاحت كيانها دون أن تدرك سبباً واضحاً له سوى أنه حدس أم تشعر بغريزتها أن ولدها ليس بخير.

لم تكتب شيئاً عن السجود و لا عن الصلاة . كانت تنتقل بين الصفحات الأحدث زيارة و المفضلة و المواقع التي تم الدخول إليها سابقاً و هي تتمنى في سرها أن يكون احساسها خاطئاً . و لكن تماماً مثل ما حدث لها في ذلك اليوم البعيد الذي لا يمكن لها أبداً أن تنساه , عندما ماد بها السلم الخشبي الطويل المسند إلى شجرة المشمش و رأت نفسها تطير في الهواء ثم تحط فوق التراب لتبقى فاقدة لكل احساس إلى أن أعادتها إلى الحياة قرصة نملة كانت تدب فوق وجهها . الآن وفي هذه اللحظة كانت تتمنى بشدة أن يدب فوق جسمها جيش من النمل ليقرصها آلاف المرات , علّ ألم الجسد يهون عليها أنات الروح النازفة بالذهول . لم تدر بأي كلمة توبخ نفسها و بأي عبارة تلعن أمومتها المغفلة التي أهملت ابنها و تركت في يده مفتاح باب يقوده إلى ألف هاوية .

وضعت اللوح الإلكتروني من يدها و عادت للسجود . لم تكن تصلي . كانت تخفي دموعها و تمتم بدعاء تسأل الله فيه أن يلهمها الصواب . لا تعرف ما الذي يجب عليها فعله . هل تعاقب مصطفى و تمنعه من استخدام الآي باد ؟ هل تحاوره و تشرح له مخاطر الأمر ؟ هل تضربه ؟ ما لذي يمكنها أن تقوله لولد في التاسعة ؟ كيف تأخذ بيده بعيدا عن هذا الكهف المظلم دون أن تعرضه للأذى و دون أن تترك في نفسه أثرا يؤلمه بقية عمره ؟ غياب راتب أضاف ثقلا أكبر للموقف . للحظة شعرت أنها أب و أم في جسد واحد و أنها غير قادرة على احتمال كل هذا الضغط و أن ما يحدث لها يفوق طاقتها بكثير .

سحبت نفسا عميقا و نهضت من سجودها . كانت جنى قد غفت على جانب الأريكة و أقلام التلوين متناثرة إلى جانبها . بينما كان مصطفى في الحمام . سمعت صوت المياه . يبدو أنه يطيل المكوث هناك عمدا . لا بد أنه عرف بأن أمه اكتشفت أمره . ربما يكون خانفا من العقاب . يجب أن تطمئنه . يجب أن يشعر أنه لن يتعرض للأذى من أمه مهما كان خطاه . مع ذلك يجب أن يدرك إلى أي مدى كان خطاه كبيرا

__ " مصطفى .. "

__ " نعم ماما "

__ " شو رأيك نعمل تبولة للعشا ؟ تساعدني ؟ "

__ " أي ماما .. شو بعمل ؟ "

__ " أنا رح أفرم البقدونس و انت تقطع البندورة . ماشي ؟ "

__ " ماشي . "

__ " ياالله .. تعال للمطبخ "

__ " هاي البندورة . أنا أقطعها شرائح و انت تقطعها مكعبات . هاي الدقة على الطاولة . "

__ " أقطعها صغيرة , ماما ؟ "

__ " مثل ما تحب حبيبي .. يعني مو صغيرة كثير و لا كبيرة , عادي . مصطفى ! .. مين رفاقك اللي تمشي معهم في البريك ؟ أعرفهم أنا ؟ "

__ " عبد الحميد المصري و عبد القادر الجزائري و أنيس من سوريا بس هو من حلب ماما مو من الشام وفي كمان تامر من مصر بس تامر من القاهرة و عبد القادر من دميال . "

__ " لا مصطفى . اسمها دمياط . و شوب تعملوا في البريك بتلعبوا و لا بتحكوا مع بعض ؟ "

__ " يعني حسب . مرّات منحكي و مرّات منركض منلعب بالكرة أو شغلات تانية .. أحيانا نحكي عن الألعاب و الآي باد و الأفلام و هيك . "

__ " خلّصت البندورة مصطفى ؟ خد البصل قطعه على الدقة . "

__ " لا ماما أنا ما أحب البصل بيحرقلي عيوني . "

__ " بس انت وعدتني تساعدني صح ؟ و أنا لسه ما خلّصت . يا لله , حظهم على الدقة و قطعهم . "

لم يكن من عادة سلام أن تطلب مساعدة أولادها في المطبخ و كان مصطفى يدرك بطريقة ما أن في الأمر شيء غير مألوف غير أن الاحساس بالذنب جعله يستجيب لطلب أمه ربما لإحساسه بأنه قد سبب لها خيبة أمل إذا ما كانت قد رأت الصفحات التي دخل إليها على الآي باد و كان يريد إرضاءها بأي طريقة حتى لو اضطر لاحتمال رائحة البصل التي تحرق عينيه و تجعل أنفه يسيل . و لكن للحظة رمى السكين من يده و فرك عينيه بكفه .

__ " ماما .. حررت .. ماما .. عيوني بيدمعا .. ماعدت شايف شي .. ماما .. "

__ " تعال مصطفى .. امش معي للحمام اطلع بالمراية .. شايف عيونك كيف حمرا و منفخة .. حلوة هيك ؟ "

__ " "

__ " ممكن تقلي ليش عيونك توجعك يا مصطفى ؟ "

__ " لأن البصل بيحرق العيون ماما .. "

__ " اغسل وجهك و تعال معي للصالون . "

وقف مصطفى أمام أمه ينتفض كعصفور بلل المطر جناحيه و غدا عاجزا عن الطيران . كان الماء مازال يقطر من غرته و عيناه ما تزالان حمراوان تذرفان دمعا متقطعا . أمسكت سلام يدا مصطفى بين يديها و ثبتت نظرها في عينيه و هي تخاطبه بصوت أقرب ما يكون إلى الهمس .

__ " كل شيء نعمله يا ابني يترك علينا أثر . البصل يحرق العيون بريحته الحدة و ينزل الدموع . بس لو شميت وردة كان رح يصير فيك هيك ؟ "

__ " لا ماما .. "

__ " طيب الصور اللي كنت تشوفها على الآي باد و أنا شفتها .. انت تعرف شو الأثر اللي تتركه عليك ؟ "

__ " لا ماما . ما أعرف . "

__ " حظ ايدك على جبينك . هون بنص الجبين . شايف هاد المكان . هون مكان الفهم والذاكرة و المعلومات . اللي يشوف أشياء حلوة بيكون هاد المكان عنده نظيف و بي فهم كل شيء و بيتعلم و بيصير شاطر . بس اللي يشوف أشياء ما بترضي ربنا , هاد المكان بيتلف و بيتخرب و ما بيعود بي فهم شي و لا بيتذكر و بيصير غبي و كسلان . انت ترضى تصوير غبي و كسلان و ما عاد تفهم شي و لا تتذكر الأشياء اللي تعلمتها و درستها ؟ "

__ " لا ماما ما أرضى . "

__ " طيب نحنا ما حكينا من قبل ان هاي المناطق من جسمنا عورة و ما يصير أي حدا يشوفها . صح ؟ "

__ " صح "

__ " مو بس نحنا نستر عورتنا كمان ما يجوز نشوف عورة الناس حتى لو هم كشفوها نحنا ما نتطلع لأن اللي يشوف العورات ربنا بيغضب منه . و لما ربنا بيغضب من انسان هاد الانسان ما يكون سعيد بحياته . طيب انت ليش تطلع على هاي الأشياء "

__ " ماما .. رفقاتي في الصف بيحكوا عن هاي الأفلام و بيقولوا نحنا لازم نشوفها لأنه لما نكبر نحنا كمان رح نعمل هيك و هم بيحكوا ان الكبار كلهم بيعملوا هيك . صحيح ماما ؟ "

__ " صحيح مصطفى. بس انت ممكن تقلي انت لما تدخل الحمام ليش تسكر الباب وراك ؟

__ " حتى ما حدا يشوفني . لأنه عيب . "

__ " و انت مو عيب تشوف حدا و هو بيعمل هيك ؟ هاي الأشياء صح بيعملوها الكبار بس ما يصير حدا يشوفها هاي أشياء خاصة . و انتو الان ما يصير تفكروا بهاي الاشياء . تذكر مصطفى حبات المشمش الخضرا اللي كنت تقطفها من الشجر و هي صغيرة . كيف كانت طعمتها ؟ "

__ " أتذكر .. كانت مرّة و مو طيبة . "

__ " و لما كانت تكبر و تصير حمرا كيف يصير طعمها ؟ "

__ " كانت تصير حلوة و طيبة . "

__ " صحيح , في شغلنا اذا عملناها قبل وقتها بتكون غلط بس لما يجي وقتها بتصير صح و حلوة . انت بتفهم علي مصطفى . "

__ " أي ماما بفهم . "

__ " طيب لو رفقاتك بيحكوا عن هاي الأفلام انت توعدي انك تفهمهم الحقيقة و تقلهم كيف رح يصير فيهم اذا بيشفوا هاي الصور . "

__ " ماما .. رفيقي عامر بيقولهم عيب بس هم بيضحكوا عليه و بيقولوا عنه انه بيبي و مارح يصير رجّال . "

__ " وهو شو بيعمل لما بيقولوله هيك ؟ "

__ " بيتركهم و بيروح يمشي مع حسن , ما يرد عليهم . "

__ " طيب و انت هلاء تعرف ان هاد الامر يغضب ربنا . انت رح تساير رفقاتك ولا ترضي ربنا . "

__ " لا ماما . أنا رح أرضي ربنا . اذا بيحكوا هيك أنا رح اتركهم و أمشي مع حسن و عامر بس انت رح تقولي لبابا ؟ "

__ " ما أعرف . بس ... توعدي انك ما عاد تشوف هاي الاشياء يا مصطفى . "

__ " أوعدك ماما .. و رح تاخدي الآي باد ؟ "

__ " رح أخده شوي و أرجعلك اياه طالما انت وعدتني و انت ما تكذب . ما هيك ؟ "

__ " لا ماما ما أكذب . بس .. رح نكمل التبولة ؟ "

__ " رح نكمل التبوّلة و نصحي جنى نتعشى سوا . "

__ " و بابا امتى يجي ؟ "

__ " بكرة بإذن الله . بكرة يجي تعال مصطفى إلى حضني أنت تعرف اني بحبك و بريدك تكون أحسن واحد بالدنيا صح؟ "

__ " أعرف ماما و أنا بحبك .. "

ضمت سلام ابنها إلى صدرها و غاب رأسه بين ذراعيها كطائر صغير يختبئ تحت جناحي أمه . دموع مصطفى التي بللت صدر أمه أعادتها سنوات طويلة إلى زمن افتقدت فيه صدرا تسند رأسها إليه تشكو له ما يتعبها و يحيرها من أمور الدنيا الغريبة . و لكن لم يكن هناك شيء سوى وسادة تحضنها قبل النوم تذرف عليها بعضا من دموع الحيرة و عدم الاستيعاب لأشياء تتكشف لها في هذه الدنيا دون أن تجد أحدا إلى جانبها تجرأ على البوح له بما يقلقها و يتعب عقلها الصغير . لسنوات طويلة كان لديها اعتقاد راسخ أن الآباء و الأمهات عربات نقل توصل الأبناء من محطة الغيب إلى محطة الدنيا و تتركهم ليكملوا رحلتهم بأنفسهم يكتشفون يخطنون و يصيبون و يتعلمون من كل هذا كيف يسير هذا العالم .

في كل مرة كانت سلام تكتشف أمرا جديدا كانت تتخيل كيف ستعلم ما عرفته لابنها أو ابنتها عندما تكبر و يصبح عندها أولاد و بيت و عائلة . كانت تتصور الكلام الذي ستقوله لهم في كل مرحلة من مراحل عمرهم و كيف ستشرح لهم الأمور بطريقة تخفف عنهم صدمة المعرفة . لكن ما قالتها اليوم لمصطفى لم يكن مما تخيلته من قبل و لم يكن مما تصورت نفسها تقوله و تفعله لأولادها لتعبر بهم من لجة الشك و الحيرة إلى شاطئ الحقيقة البسيطة العفوية التي يجري بها هذا الكون الفسيح .

بعد أن نام أولادها و فرغت لنفسها تراجع ما مرّ معها هذا اليوم المرهق . شعرت أن ذلك الكلام الذي كانت تقوله لابنها كان يتدفق من بقعة ما في نفسها كما كانت تتدفق جداول المياه المنسابة في طرقات الزبداني ، من بقع الثلج المكوّم فوق السطوح و بين شقوق الصخر و على أطراف الطرق حالما تسطع عليه شمس نيسان ليجري في دروب البلدة ماضياً إلى حيث ينتهي به المسير .

زوبعة مصطفى أنستها إلى حد ما كلام مس صادقة عن السجود . عادت إلى الآي باد الملقى على الأريكة و بحثت عن الاعدادات التي تحظر مواقع تحوي كلمات إباحية و جنسية . تأملت اللوح البللوري الذي يفتح على العالم نافذة واسعة ربما لم يتصورها خيال مؤلف سندباد و ألف ليلة و ليلة عندما حلم بالكرة السحرية التي تكشف الأسرار و تظهر المخبوء من الأقدار .

كتبت في مربع البحث كلمتين " سجود البعير " . ظهرت لها عناوين كثيرة . قرأت واحدة للشيخ ابن عثيمين و أخرى للشيخ اسحق يعقوب . الاثنان يستدلان بنفس الحديث " إذا سجد أحدكم فلا يبرك كما يبرك البعير " ، و لكن أحدهما يقول بوجود النزول للسجود بالركب و الآخر يقول بوجود النزول باليدين . أغلقت الصفحة قبل أن تفكر في قراءة آراء أخرى . تبسمت و هي تسترجع كلام مس ابتسام " ننزل بالركب باليدين و لا حتى بال ... " كلامها صحيح . المهم رغبة العبد في النزول إلى موضع السجود ليسبح ربه و تتساقط همومه من رأسه كما تتساقط الأوراق اليابسة عن فروع الشجر .

تنبّهت فجأة إلى إحساس يتمطى في نفسها و كأنه ينهض من سبات طويل .

" رسائل الله "

لم يساورها هذا الاحساس منذ وقت طويل . لا بد أن تعليق مس صادقة كان إلهاما إلهيا من أجل أن تكتشف حال ابنها وما يجري معه من أمور .

قراءة كل حدث يجري معها على أنه إشارة من الله , كان شيئا تعلمته من جدتها والدة أبيها. أي شخص يرافق جدتها و لو لوقت قصير سيساوره شك أن تلك المرأة العجوز على اتصال دائم ومفتوح مع الله . بطريقة ما , كانت جدة سلام التي تبلغ من العمر الآن مئة عام بحسابها هي , و مازالت في كامل قواها العقلية , تفسر كل شيء يحدث لها على أنه إشارة من الله , لها حكمة وعلة . لم تكن الجدة العجوز من أصحاب الشهادات ولكنها كانت فطنة بطريقة ملفتة للنظر . على الرغم من أن المكان الوحيد الذي تعلمت فيه القراءة كان الكتاب الكائن في حيهم في الشام و الذي تعلمت فيه قراءة القرآن كله من الفاتحة حتى سورة الناس , إلا أنها كانت تتعلم وبشكل مستمر من كل شيء يحدث معها وحولها . كانت تتعلم من النحل و الفراشات و قطع الحطب المتأجج في تنورها من الشجر الذي تقطف منه الثمار و من طاحونة الحجر التي كانت تطحن بين رجاها القمح و الشعير وحتى الأرز أحيانا لتصنع المهلبية و كانت حتى تتعلم من المهلبية نفسها عندما يتعشق دقيق الأرز بالحليب و السكر و ماء الورد ليصبح شيئا آخر غير ما كان عليه . يستحيل بأي حال التعرف على كل معلمي جدة سلام لأنه و بكل بساطة كان كل شيء في حياتها معلما لها .

و الآن هل يمكن أن يكون غياب راتب المحير أيضاً رسالة من الله إليها؟ . هل غفلت عنه هو أيضاً كما غفلت عن مصطفى فوصل إلى مكان يحتاج فيه إلى أحد يمد يده إليه ليعود به إلى الطريق الصحيح ؟

بعض الأمور تحتاج إلى إعادة ترتيب و تنسيق من فترة لأخرى. تماما مثل رفوف المطبخ و خزانات الملابس . في غمرة فوضى الحياة ,واللهات اليومية خلف الوقت الهارب على الدوام, نتناول كل شيء على عجل , و نجري لندرك ما علينا أدائه و ربما لا يتسنى لنا ملاحظة التغيير الذي يطرأ على لوحة حياتنا كل يوم, و لكن حالما نتوقف لنأخذ نفسا عميقا و نهدأ لبعض الوقت يرعبنا ما أحدثناه من فوضى في كل شيء حولنا و نبدأ بالتفكير هل يمكننا حقا إعادة كل شيء إلى ما كان عليه ؟

هل تحب راتب ؟

آخر مرة وجهت هذا السؤال لنفسها لم تفلح في الإجابة عليه . تركته سوألا مفتوحا إلى أجل غير مسمى . كان ذلك منذ إحدى عشر سنة عندما سئلت راتب في إحدى زيارته لها :

__ " ليش خطبتني ؟ "

__ " استمرارية .. "

__ " !!! "

__ " الحياة استمرارية .. نولد .. نتزوج ... نموت ... هذه هي الحياة . "

__ " "

بعد عدة أيام تذكرت شيئا اعتقدت أنه ربما يكون السبب في جوابه البارد . كان ذلك عندما سألتها قبل ذلك بفترة :

__ " ليش قبلت في ؟ "

ـ " لأنك بتحبنى. "

لعلّه ردّ الصدمة بالصدمة . ربما كان ينتظر منها جوابا رومانسيا يسمع فيه كلمات ترضي رجولته الخجولة . و لكنها تذكر تلك اللحظات تماما , عندما اندفعت الكلمات منها دون تفكير و كأنها كانت تنتظر مثل هذا السؤال لتخبره بالحقيقة الماثلة في وعيها و الواضحة وضوح الشمس .

لماذا قبلت به ؟

السبب الأقوى كان ما قالت له ولكن كان هناك بالتأكيد سبب آخر فضلت الاحتفاظ به لنفسها . و كانت تعي جيدا أن ما دفعها للقبول به في الدرجة الثانية هو رغبتها العارمة بل حلمها الكبير في الرحيل عن مملكة الملل و السأم التي عاشت فيها اثنتان و عشرون سنة , رافقها فيها أمل واحد و هو أن تحصل على زوج لا يشبه والدها و أن تكون زوجة مختلفة عن أمها . لأن أمها و بكل بساطة كانت قمرا منيرا ا لوالدها تدور في فلكه بلا توقف حتى باتت سلام تعتقد أنه اذا ما أتى ذلك اليوم الذي يغيب فيه والدها عن الحياة فإن أمها ستنتقل من الجاذبية و تنيه في الفضاء الرحب بلا مدار و لا مسار وربما سيبتلعها ثقب أسود يلقي بها في الفراغ المجهول . لم تتقبل سلام طوال فترة حياتها في بيت أهلها أن يعيش انسان حياته كلها من أجل الآخرين دون أن يفكر في عمل شيء لنفسه . و أكبر رعب كان يقفها حيال المستقبل هو أن يضع القدر في طريقها رجلا مثل والدها ثم يجعل منها نسخة أخرى عن والدتها . و لذلك عندما تقدم لها راتب و عرفت أنه يعمل في الخارج و أنه لا يريد أن يأخذها لتعيش معه حيث يقيم عرفت بأن الله حقق لها حلمها .

قبلت به نعم و بسرور أيضا مع أنها لم تر فيه ما كانت تحلم به من صفات في شريك حياتها . أعجبتها بعض صفاته و كان هناك الكثير مما لم يعجبها فيه . قبلت به كما تقبل بأداء مهمة لا بد لها من القيام بها . و لكنها كانت تعي أنها لم تكن تحبه على الأقل كما يفترض لكلمة حب أن تعني . لم يكن ذلك الشعور الذي كان مضمرًا في خيالها منذ تفتح أولى أحاسيسها على النصف الآخر, ذاك الذي يجعل الصوت يضطرب, واللسان يتلعثم, والخطوات ترتبك والحرارة تغمر الجسد بفيض نشوة تخرجه عن المعتاد والمألوف والمعروف .

يوم زفافها كان يوما مميزا. لا يبرح ذاكرتها ذاك الاحساس بأنها بزواجها هذا تؤدي واجبا تكمل فيه حلقات حياتها المتتالية .. كان يوما خاليا من أي بهجة سوى الشعور بالرضى والارتياح بأنها أنجزت خطوة مهمة واجتازت مرحلة من مراحل رحلتها الطويلة ..

ومع أنها وحتى هذه اللحظة لم تستطع أن تدرك للحب معنى ثابتا يمكن صياغته في كلمات و لكنها كانت تشعر بطريقة ما أنه يشبه تلك " الآه " التي تطلقها عندما ترى كأس ماء بارد وهي في غاية العطش . بهذه الصورة كانت سلام متأكدة تماما أنها لم تشعر بالحب حتى الآن . ليس كل الحب طبعًا و إنما فقط حب المرأة للرجل . أما الحب بأشكاله الأخرى فقد كانت متألفة معه إلى حد كبير و أكثر ما وعته منه حبها لولديها جنى و مصطفى .

و كان أمرا مؤكداً أيضا أنها لا تكره راتب , كان هذا أمرا لا يقبل الشك . لأنها لو كانت تكرهه لم تكن لتستمر معه بأي حال فهي فاشلة إلى أبعد حد في التمثيل أو حتى في التظاهر بما ليس في قلبها فعلا . و بعد تفكير غير مطول اتفقت مع نفسها على أن ما تشعر به حيال راتب هو " القبول " . كانت تقبله أو تتقبله كما هو و إن كانت كثيرا ما تحلم بنسخة معدلة منه , تكون أكثر حيوية و إثارة , أكثر مرحا و فطنة أكثر أريحية و انسيابية و أقل ارتباكًا و خجلا .

ولكنها و حسب نصيحة جدتها العجوز التي طبقتها بكل رضى و حصدت نتائج مبهجة منها كانت تعتني بحياتها الزوجية مع راتب كما تعتني بنباتات الزينة في بيتها . على مدى عشر سنوات كانت تعيش فعليا مع راتب ثلاثة شهور في السنة. بما أن التواصل الالكتروني لا يحتسب حياة فعلية . و لذا فإن حياتها معه لم يكن يشوبها نكد و لا تنغيص لأنها تعرف جيدا أنها حالة مؤقتة ستعود بعدها إلى حياتها المعتادة . و لذلك كان للفترة التي تقضيها بصحبة زوجها طقوس و مراسم و تعاليم تطبقها قبل اللقاء و أثناء اللقاء حسب الفترة التي ستقضيها بصحبته .

عندما تتأكد من موعد وصوله تبدأ فترة الحمية التي تعيش فيها على التمر واللبن و التفاح أسبوعا كاملاً من أجل تنظيف الجسم و الحصول على بشرة جميلة . تمتنع بعدها عن تناول البقول و الحبوب لفترة من أجل المحافظة على معدة مسطحة . يتبعها زيارة لصالون التجميل تختار فيها لونا جذابا لشعرها و قصة تظهر ملامح الجمال في وجهها . و في كل مرة كان قميص النوم الجديد مع عطر الخزامى المحبب لديها أمرا بديها لا يمكن إغفاله . و بشكل دائم و من دون انقطاع , كانت هناك تمارين الأيروبيك التي تشد الأرداف و تمنع ترهل الساعدين و تنشط الدورة الدموية و تزيد الحيوية و النشاط . كانت الفترة التي تمضيها بصحبة راتب فترة ترفيهية تحضر لها برنامجا متكامل يجعل من كل يوم يقضيها معهم لوحة مبهجة . كانت تحضر في خيالها القصص و الأحاديث التي ستحدث بها زوجها و الأماكن التي سيزورونها سوياً , و الأطباق التي ستطبخها له كل يوم. و حتى أنها كانت تدرج و لديها على أداء بعض الأغنيات و الحكايات و تشاركهم إياها لتظهر عنايتها بهم في غياب زوجها . على الأغلب كانت تخطط لحياتها الزوجية كما تخطط لتسديد رمية إلى السلة . خطوة , خطوتان, ثلاثة ثم التسديد إلى الهدف. هكذا و بكل بساطة بدا لها كل شيء تقوم به أشبه بإضافة حجر جديد إلى حصن زواجها يزيده قوة و متانة .

وكانت راضية بحياتها إلى حد كبير و تعتقد أن كل سنة من زواجها ستزيد من رصيد راتب في قلبها إلى أن يأتي اليوم الذي يترك فيه العمل في دبي و يعود ليستقر معهم في الزبداني و يحقق حلمها في إنشاء المخبز الكبير, عند ذلك الوقت كانت سلام تشعر أنها ستكون قد أحبته حبا حقيقيا يجعلها تمضي معه ثلاثمئة و أربع و ستون يوما متواصلة دون سأم أو ملل . و لكن الزلزال الذي هدم الحلم و الحقيقة و قلب كل مخططاتها رأسا على عقب جعلها تتخبط في حال لم تكن تحسب له حساب .

الآن مضى ثمانية أشهر على قدومها إلى الشارقة و منذ اليوم الأول كان كل شيء مختلف عن زيارتها السابقة إلى هذه المدينة . المشاوير المتواصلة و المضنية إلى الدوائر الرسمية من أجل طلبات الإقامة . الزيارات المتعددة إلى المدارس الخاصة من أجل البحث عن عمل , تصديق الشهادات و معادلة الشهادة و الموافقة الأمنية , كوابيس يقظة لا ينهاها سوى لحظات نوم عميق يريح البدن بعد نهار مضم . و مع انتهاء الشهر الأول لأقامتها في الشارقة كان النمط الذي أرادته لحياتها و عملت على إنجازه عشر سنوات قد انهار بالكامل و حل محله روتين نمطي لا يتغير في شيء باستثناء يوم الجمعة الذي حاولت جاهدة أن يكون تعويضا عن أيام الأسبوع الباردة و المكررة . و لكنها لم تفلح هذه الجمعة في تكسير ألواح الصقيع التي تتراكم طوال الأسبوع . ربما أصابها الملل من هذا العمل أو أنها شعرت أن على أحد غيرها أن يقوم بالقاء حجر في بركتهم ليحرك المياه الراكدة و لو إلى حين . و لكن ها هي النتيجة . رجُل البيت في الخارج وهي لا تدري عنه أي شيء .

غثيان

" أنا راتب مصطفى .

أنا الآن في غرفة نافيد الناطور الهندي .

أنا أحاول منذ يومين أن أخرج من جسدي .

أريد أن أتخفف من سحب الظلام الكثيفة التي تجثم على روحي وتحجب عنها نور السماء . أريد أن أرى سمائي صافية , مضيئة , زرقاء . كلما حاولت الانفلات من سجن الصلصال هبطت علي إحدى تلك السحب وغمرتني بالعناء . هل أتوقف و أعود إلى ماكنت عليه . كثور يدور في ساقية ؟ .

و لكني أريد أن أخلق في فضاء الراحة والسكينة الخالية من السحب , كل السحب . أريد أن أطفو كغمامة بيضاء تجوب الأرض و تتأمل كل شيء من الأعلى دون أن تدنو من الأرض .

هل أتوقف ؟ هل أحاول مرة و مرة و مرات ؟

أنا راتب مصطفى . أنا متعب , منهك , مرهق , كئيب .

سلام زوجتي , نصفي الآخر , ليست مثلي . سلام قوية . تسبح في بحر الحياة بقوة . تجدف بذراعيها القويتين . تبقي رأسها تحت الماء عندما تأتي موجة كبيرة . تدعها تمر من فوقها و تمضي . و عندما تتعب تستلقي على ظهرها و تسلم نفسها للماء . هكذا قالت لي سلام . هكذا تعيش و تمضي أيامها . سلام تعرف إلى أي ركن تأوي عندما يضرب الزلزال . هي تمسك بيدي و تسحبني معها إلى الركن القوي . إلى الأمان . و لكني لا أريد يدها . أريد منها نظرة تقدير . أريد أن أمد لها يدي و أقودها . أريدها أن تتبغني أن تغمس عينيها و تضع يدها على كتفي و تمشي . أنا أمشي و سلام تتبغني . و لكنها لا تتبغني . لا تأخذ يدي . أنا لا أمد يدي لها . يدي قصيرة , يدي مغلولة .

أنا لا أستطيع . أنا ضعيف . سلام لا تعرف أني ضعيف . لا تعرف كيف تترسب في قعر روحي خيبات الأمل و الانكسارات . و كيف تثقلني و تجعلني أغوص بعيدا بعيدا إلى أعماق اليأس . هناك حيث أرقد في الظلام بلا بهجة و لا ضوء . فقط الظلام الظلام الظلام .

سلام لا تستسلم . تلفظ الخيبة من نفسها كما تلفظ نوى التمر و الزيتون . تبصقها , تخرجها من قلبها من عقلها من روحها و تكمل . سلام قوية . راتب ضعيف . راتب يخاف . راتب متعب . راتب مرهق . راتب كئيب ."

كؤور الورقة بيده . فتحها مرة أخرى و قرأها بصوت عال . كؤورها من جديد فركها بين أصابعه بقوة أطبق عليها كفيه و ألقق يديه بصدرة . نهض متثاقلا و بدأ يدور في الغرفة . وقف فجأة و بدأ يدور حول نفسه على مهل . الجدران تدور معه . السرير , النافذة , و هبات الريح في الخارج تدور معه . القمر يدور حول الأرض و الأرض تدور حول الشمس و المجرات تدور . الكون كله يدور . كل في فلك يسبحون , و هو يسبح في الفضاء , يتيه في العدم . تماهت الاتجاهات و اندثرت الأصوات لا شيء سوى ظلام يدور في ظلام . فجأة وجد نفسه ساكنا على الأرض , هامدا بلا حراك . و لكن السقف فوقه مازال يدور و الأرض من

تحتة تدور. يتلمس الفراغ بحثاً عن نفسه. يحس بالغثيان. دفق حموضة يملأ جوفه يندفع من فمه حارا و يسيل على الأرض . رائحة الحموضة تملأ حواسه . يشعر بالتقزز و لكنه يغمض عينيه و يهوي في متاهات الغياب.

اليوم الثالث:

حيرة

تعوم في لجة فضية , في برزخ يموج بين الحلم و اليقظة. تغوص بها الرؤى إلى قاع بعيد ثم تطفو على موجات لطيفة تهددها كأيدٍ ناعمة فوق مهدٍ وثير . تحضن نفسها بذراعيها كجنين في رحم أمه . هنا على الأريكة القاسية ليس ثمة متسع للإحساس بفراغ أو غيابٍ . حيز ضيق لا يترك مجالاً لشعور بالفقد أو النقصان . ضيق المكان يُثبت في وعيك طعم الوحدة و يجعلها أمراً مقبولاً و مريحاً إلى حد ما . تغفو إغفاءات متقطعة تنتفض بينها كزهرة أجفلتها قطرة ندى , تحرق في ما حولك لثوان . وعندما تدرك أنه لا جديد . تعود لإغفاءة أخرى رجاء راحة مشتهاة .

صوت يكسر الصمت. يحملها من غيبوبة النوم إلى دهشة اليقظة . صوت مفتاح يوضع في قفل الباب محاولاً فتحه. تنتفض مشرعة قامتها مستنفرة جميع حواسها لأمل يغزو احساسها على استحياء راتب!!! هل يمكن أن يكون هو ؟.

أشتات من مشاعر نقيضة تطوف بخاطرها . تجعل رأسها يدور في غيبوبة الغموض . يغمرها بغتة شعور طاغ بالامتنان و الراحة . تزفر تنهيدة طويلة كغريق لامست قدميه رمال الشاطئ . تتأمل انعكاس صورتها على لوح الزجاج. تعدل ملابس النوم بيدين مرتجفتين . و تصلح بضع خصلات من شعرها المتناثر على وجهها . تسحب نفساً عميقاً و تخطو باتجاه الباب . تنقل خطوات ونيدة تعيدها سنوات عشر إلى تلك الليلة التي خطت فيها خطواتها الأولى إلى باب بيتها الجديد. تجتاحها تلك الرعشة التي تسبق الخطوة الأولى فتستكين لرجاء يخفف عنها عناء اللحظات الثقيلة .

تبصر من خلال العين الساحرة رجلاً يقف أمام باب بيتها . يقبل مجموعة مفاتيح يختار واحداً و يدخله في قفل الباب ولكنه لا يدخل . يخرج المفتاح و يستبدله بآخر . وجهه مطرق بالأرض . هذا ليس راتب . هذا أطول قليلاً و أضخم . و يرتدي أفرولاً أزرق كملابس العمال . ليس راتب . تراجع قليلاً إلى الوراء , فركت عينيها و عادت تنظر من العين الساحرة . ليس راتب . سرت قشعريرة باردة في أوصالها و أحست بدبيب أسراب من النمل في رأسها يتغلغل بين شعرها. يشتعل رأسها حرارة فيغشى بصرها سواد يحجب عنها المشهد . تضع يدها على فمها لتكتم صرخة فزع . هل يكون أحد من سكان البناء قد علم بغياب رجل البيت ففكر في اقتحام حرمة ؟ و لكن الباب متين و مقفل بمزلاجين و المفتاح في الباب . لا يمكن فتحه من الخارج بأي حال . ماذا لو رأى أحد من السكان رجل غريب يحاول فتح بابها ؟ ماذا سيظنون بها ؟ و لكن لا أحد في البناء يعرف الآخر . ربما يعرفونها و لا تعرفهم . هل تصرخ و تطلب النجدة ؟ أم تصمت حتى يبأس الرجل و ينصرف ؟ هل تتصل بالبوابة ؟ هل توظف مصطفى و تجعله يصرخ حتى يعرف الرجل أن في البيت أحد معها ؟ هل تمسك بالسكين الكبير و تنتظر خلف الباب ؟ و لكن الباب لا يفتح من الخارج .

عادت إلى الباب لتتظر من العين الساحرة . الرجل يتراجع خطوات إلى الوراء . ينظر إلى المفاتيح . يرفع رأسه إلى لوحة الباب , ربما يتأمل رقم الشقة . يتراجع خطوة أخرى و يضرب جبينه بكفه . يعيد مفاتيحه إلى جيبه و يضرب بكفه على صدره و كأنه يعتذر . يهز برأسه متعجبا , متأسفاً , متعباً .. و يغيب في ظلام الممر ..

تتشظى آمالها و يهوي بها وجع الخيبة إلى الأرض كورقة ذابلة. تسند ظهرها للباب و تدفن رأسها بين كفيها . تسيل أوجاعها عبرات حارة تتلقاها وجنتان ظامنتان للمسة حنان تخفف عنها ما بها . تنتحب ألماً , تنتحب خوفاً و تعباً و حيرة . تكاد آهاتها تشي بها في سكون الليل فتكتم أنفاسها و تحمل نفسها إلى الداخل لتهوي على الأريكة الباردة و تكمل نوبة النحيب ..

يوقظها رنين المنبه من كبوة قصيرة قطعت عليها نوبة البكاء . الآن يبدأ يومها الثالث بعد غياب راتب . الساعة الثالثة صباحاً . الأولاد نائمون . كل شيء ساكن و صامت . تعاودها القشعريرة حالما تمر بخاظرها صورة الرجل أمام الباب . تجر قدمين مثقلتين إلى الحمام . تستند بكفيها إلى حافة المغسلة و تحقّق في المرآة . تقطب حاجبيها و هي تمنع النظر باحثة عن نفسها . يبدو لها الوجه الظاهر في المرآة أمامها وجهها غريباً , لا تعرفه , عيان حمراوان منتفختان تحيط بهما هالتان من السواد الباهت . و خصلات شعر متناثرة حول وجهها و هناك في عمق عينيها ثمة فراغ يمتد كبيداء مقفرة .

" هذه ليست أنا " حدقت في المرآة لبرهة و فتحت صنبور الماء . ملأت كفيها و رشقت وجهها , مرة و مرتان , ثلاث مرات . الماء يتدفق من الصنبور و هي تملئ كفيها و ترشق وجهها به ثم تعاود النظر إلى المرآة باحثة عن شيء لا تعرف تماماً ما هو . تنهدت بلهات متقطع . ثمة أشياء تسكن وجوهنا أحيانا لا يمكن للماء أن يغسلها و يزيلها . مذهب حقا كيف تطفو مشاعرنا على صفحة الوجه فتعيد تشكيل ملامحه و قسماته بطريقة تجعله غريباً حتى عن أصحابه . لا يمكن أن تكون هي سلام التي اجتازت طريق الرعب تحت النار و القصف و خرجت من عالم الموت إلى عالم الحياة عندما كانت السيارة تنطلق بها على طريق الزبداني - دمشق و صوت الرصاص يملأ سمعها و أنفاسها المتسارعة مع نبضها تلهج بالدعاء و التوسل تحسب كل نفس تسحبه من الهواء العابق برائحة البارود و الدم آخر أنفاسها في الحياة . و الآن مرأى رجل يقف على بابها يجعلها تنهار؟ . كيف يمكن للإنسان أن تتناوبه حالات القوة و الضعف بهذا الشكل . أي واحدة هي؟ تلك التي اجتازت عالم الرعب بقوة الأمل أم هذه التي وقفت ترتجف خلف باب يفصل بينها و بين رجل أعزل لا تعرفه و تعرف أنه لا يقدر أن يمسه بسوء . لا... ليست القصة قصة رجل . هناك ما يحتاج إلى تأمل و ترتيب . و لكن كل ما تحتاجه الآن شيء تتكى عليه لترى المشهد على حقيقته و هذا ما يعزّ عليها في هذه الحالة . ليس ثمة شيء واضح مع ذلك لا يمكنها إلا أن تتابع المسير . غسلت وجهها مرات أخرى . ثمة شعرات بيضاء تلوح داخل خصلة تكشفت عندما رفعتها فوق أذنها .. هل يغزو الشيب رأسها و هي ما تزال في أول الثلاثين؟ ربما .. و ما علاقة الشيب بالسنين؟؟

بسملت , تعوذت و هللت مرات و مرات قبل أن تسبغ الوضوء على وجه أرهفته الحيرة . مع ذلك ستمسك بengan يومها هذا و تستفتح بخير .

اليوم ستقوم بتحضير فريق البنات لمباراة كرة السلة التي ستجري يوم الخميس . سيكون التدريب مكثفاً و مرهقا تحتاج إلى أعصاب هادئة . و هناك الافطار الجماعي في وقت الفسحة . اختارت أن تحضر طبق " حراق اصبعه " نزولا عند رغبة زميلاتها المعجبات بالطبخ الشامي . و في المساء هناك موعد الطبيب الذي سيجري الاختبار لجنى . سيكون يوما عصيباً و مرهقا و لكن سيمرّ مثل كل الأيام التي مرّت و لم تترك وراءها سوى صوراً تنهب الذاكرة بسرعة البرق .

ألوان

كما النور يدفع الظل بعيدا ليبيسط مكانه الضياء , كان الوعي يتسلل إلى نفس راتب على مهل ليدحر الغياب و يحل محله الحضور و الإدراك الموجع . كمسافر عائد بعد غياب طويل, تترابط الصور أمام عينيه ليصبح المشهد شيئا فشيئا أقرب إلى الوضوح . رائحة الحموضة المقززة تستنفر همته فينهض متناقلا كمصارع أنهكته جولات طاحنة يجزّ قدميه ليزيل عنه آثار القتال . في الحمام الضيق يقف تحت الماء المنسكب من الرشاش . يسيل الماء خيوطا تتحدر على جسده و تتلاشى في فتحة الحوض ساحبة معها رائحة القيء العالق على ملابسه و جسده . يرتجف تحت الماء البارد, ينتفض ثم يسترخي مستسلما لرطوبة الماء المنعشة . ينزع عنه ملابسه و يلقي بها تحت قدميه في الحوض . يتناول عن رف قريب قطعة صابون يابسة , يطوف بها على جسده . يخلل أصابعه في شعره ويفرك فروة رأسه بشدة . يتمنى لو ينفذ الماء من عظام جمجمته و يغمر خلايا دماغه المتعبة , يغسلها و يعيدها نظيفة كأول مرة تلقت فيها دفقة من هواء هذا العالم العجيب.

يطوف بنظره في المكان الضيق باحثا عن فوطة يجفف بها جسده . لا شيء في الحمام غير ملابسه المبتلة في الحوض . لا شيء يستر عورته . اعترته رهبة مفاجئة من وجوده عاريا في مكان غريب . نفض عن نفسه الماء بكفيه و خطا إلى الخارج على رؤوس أصابعه . عاودته الرهبة رعشة استشعر معها منات العيون لمخلوقات خفية تحدق فيه . لمح على علاقة خشبية فوطة بيضاء ببقع بنية كأنها آثار صباغ . قربها من جسده , وخزت خشونتها جلده, كأنها تبللت و جفت مئة مرة و هي في مكانها . أعادها وتناول قطعة قماش ملون معلقة إلى جانبها . ربما هذا هو المنزر الذي يلتف به نافيد . لفه حول وسطه و تأمل فيه . ليس هناك لون من ألوان الدنيا لا يوجد على هذا المنزر . كيف يتحمل الهنود صخب الألوان إلى هذه الدرجة . أم لعل تمازج الألوان يعينهم على قبول الحياة بكل ألوانها. تأمل نفسه في الحلة الغربية . تحسس المنزر الملتف حول وسطه. أحس به يمنحه شعورا بالحرية . نظر إلى انعكاس صورته في المرأة . قُطب حاجبيه ثم ابتسم ابتسامة مبتورة ما لبثت أن غارت لدى احساس صادم بالصغار . كتفاه المنحنيان للأمام و عضلات زنوده الضامرة صدره النحيل بعظامه البارزة . بإمكانه أن يتلمس عظام قفصه الصدري واحدة واحدة . ليس معتادا على رؤية جسده عاريا. ثمة صورة مخزونة في ثنايا وعيه لمعنى الرجولة , الصدر الواسع ذو الشعر الكثيف , عضلات الزندين الضخمة و ساعدين قويين قادرين على إرضاخ أنثى بضمة واحدة . ليس له من ذلك شيء . جسد نحيل و ساعدين معروقين يرتجفان رهبة حالما يلمح جسد سلام الوارف الطول و المصقول كتمثال اغريقي عريق. فردّ عوده و تطاول على أطراف أصابعه . نفخ صدره كفتوة يتباهى بفتوته . باغته احساس بالخدر سرى من وسطه إلى قدميه . تراخت عضلاته و تعثر بخطواته إلى الأمام و الوراء . تماسك من جديد و ثبت قدميه في الأرض .

لطالما رجته سلام أن يمارس الرياضة و يقوم بتمارين بناء العضلات . و لكن بعد يوم عمل شاق و طويل كانت أي حركة تبعده عن الأريكة الوثيرة تبدو له عقوبة قاسية . هوى إلى الأرض بساعديه . حاول رفع جسده ليقوم بتمرين الضغط . لم يقوى ساعديه على حمله . هوى مجددا و التصق صدره بالأرض . كان يفعلها عندما كان صغيرا . كان يتشقلب في الهواء و يحط على الأرض كبهلوان . امتصت طاولة المكتب لياقته سنة وراء سنة . أصبح جامدا كما المعدن الذي يلتصق به أغلب يومه . عاود المحاولة مرة أخرى

. ارتفع عن الأرض قليلا . ثبت نفسه فوق ساعدين نحيلين منتصبين كوتدين يركزان خيمة قديمة . حافظ على ثباته دقيقة ثم عاد ليلتصق بالأرض من جديد . دقات قلبه تدوي في أذنيه كدقات عقارب تجري وراء الزمن . عندما هدا نبضه قليلا وعى على احساس في صدره . كأن معدته تُطحن بين حجري رحى . ألم الجوع أعاد إليه بعضا من احساس بالغياب .

نهض بلهفة يفتش عن شيء يسكت صراخ معدته الخاوية . راوده شعور أن بإمكانه أن يلتهم ثورا بلقمة واحدة . تبين احساس الجوع رعشة في أصابعه و ارتجاف شفثيه و نقاط سوداء تتراقص أمام عينيه كذبابات تحوم في الفراغ . لعل نافيد يكون قد ترك شيئا يؤكل . رائحة رطوبة تنبعث من البراد و كأنه لم يفتح من أيام . على الرف العلوي حبات متغضنة من البندورة و بضع حبات من الخيار الباهت . عدة أرغفة من الخبز الأفغاني السميك مغلفة بكيس من النيلون و قطع من جبنة المثلثات . لا شيء آخر . زم شفثيه شاعرا بالخيبة . عاد ألم الجوع يعصف بأحاسيسه كلها . في الخزانة المجاورة لحوض غسيل الصحون وجد علبتي سردين غطى الغبار تاريخ صلاحيتهما . إلى جانبها صحن بلاستيكي يحوي كرات صفراء تفوح منها رائحة الكرم و الكاري . يعرفها جيدا حلوى بدقيق الحمص , طعام هندي يأكلونه في المناسبات . قدموه له مرة في أحد أعيادهم فعافته نفسه لرائحته القوية .

حمل كل ما عثر عليه و وضعه على الطاولة و أخذ يتأمل الوليمة التي ستند هجمة الجوع المباغت . لم يحدث أبدا أن تناول طعاما بهذا الشكل . لطالما حرصت سلام على تدليله بأنواع الطعام . كل ما تطبخه يمنحه شعورا بالرضى و الامتنان . أكثر شيء الخبز الذي تعجنه من فترة لفترة و تخبزه على الصاج . رائحة خبزها تجعله يشعر و كأنه ملك يتربع على عرش تمتد أمامه الموائد العامرة بما لذ و طاب . الأرغفة التي تخبزها سلام تدغدغ الحواس بطعم الهناء حيث تسري في الجسد يسري معها احساسا بالسعادة .

مع ذلك أخذ يقذف باللقيمات إلى فمه و يزردها بسرعة و كأنه يتناول دواء ضروريا لصحته . الخبز الأفغاني يصعب مضغه و هذا يبدو بانئا مضت عليه أيام . أنهى علبتي السردين و قطع الجبن و حبات البندورة و الخيار . و عندما تناول كرة الحلوى الأولى أحس بالغثيان . بدت له و كأنها صنعت من أيام طويلة و ربما تسلل العفن إليها و أكسبها شيئا من الحموضة . مع ذلك ألقى بها إلى معدته و عب الماء خلفها بسرعة . لم يكن يفكر بطعم أو مذاق كان فقط يرغب في الشعور بالامتلاء ليدحر خور الجوع الكافر . مرّ بخاطره صور أبناء عمته في المعضية في الشام . قالوا أنهم أكلوا أعشاب الأرض لشهور حتى باتوا يحلمون بملء كف من الأرز يملئ أمعائهم الخاوية . هذه هي المرة الأولى التي يختبر هو فيها احساس الجوع . و لكنه جاع باختياره . يستطيع في أي لحظة أن يعود إلى بيته و يتناول ما يشاء من بزاده العامر بكل أنواع الطعام .

لم سارت الأمور على هذا النحو ؟ تعجب في نفسه و هو يتأمل بقايا الوليمة الفقيرة . لماذا وضع نفسه في هذا الموقف الغريب ؟ و حتى الآن لم ينجح في الوصول إلى مبتغاه . حالما تجف ملابسه سيرتب المكان و يحمل نفسه عائدا إلى بيته . سيرتاد النادي الرياضي في شهر إجازته . سيعمل على بناء جسد قوي يحظى باعجاب سلام . سيغير من أسلوب حياته . سيأخذ عائلته عند المساء ليركضوا على البحيرة كما تحب سلام . سيقرا كتبا مهمة و يتحدث عنها معها . ستعرف كم هو مثقف و راق و يستحق التقدير .

أحس بنعاس يثقل جفنيه . يصعب عليه مقاومة كبوة قصيرة بعد امتلاء معدته . تكره سلام عاداته هذه . ترمقه بنظرات حائقة و هي تنقل الصحون إلى المطبخ بنزق بينما يجر قدميه شبه غاف ليلقي بنفسه كشوال الطحين , كما تقول , فوق الأريكة . سيحاول أيضا أن يغير هذه العادة . سيفعل أي شيء ليحظى

منها بنظرة إعجاب . و لكن الآن لن يكون باستطاعته سوى الاستسلام لموجة النعاس التي تغمر أوصاله و تسحبه بعيدا إلى عالم تتماوج فيه الصور كخيالات باهتة تغرقه في عالم النوم الجميل .

تمارا

كانت الشباك الخضراء المحيطة بملعب المدرسة ماتزال مثقلة بالرمال الحمراء التي تغلغت في مسامها من عاصفة يوم الأحد باعثة في الجو رائحة الغبار الخائق . مع ذلك كانت الفتيات داخل الملعب يتألقن حيوية و طاقة و هنّ يتحلّقن حول مس سلام و هي تلقي تعليماتها لفريق السلة من أجل مباراة يوم الخميس . أغلب خطابها كان باللغة الانكليزية من أجل الطالبات الذين يصرون على عدم فهم العربية بينما الطالبات العربيات يتحدثن و يفهمن الانكليزية بدرجة لا تقل كثيرا "non Arab" عن زميلاتهن الأجنبيات . هي عقدة الغالب و المغلوب تصبغ كل شيء في هذا العالم . بدأت سلام خطابها بصوت قوي :

"_ لدى كل واحدة عينان . واحدة ستكون على بنات فريقها لتتابع كل حركة يقمن بها و تكملها و عينها الأخرى على فريق الخصم لتتوقع الحركة التي سيقمن بها . بقدر ما ننجح في توقع حركة الخصم بقدر ما نقدر على التحكم في المباراة . الفريق وحدة واحدة , من غير هذا الشعور الفشل بانتظارنا . إذا لعبت كل واحدة لنفسها الخسارة أكيدة . التميرير ل سناء و ساندني . الدفاع ل هادية و التسديد ل جودي و تمارا . بنات الاحتياط أيضا مراقبة تامة للملعب من أجل تحديد أخطاء فريقنا و نقاط ضعف فريق الخصم و سأنظر تقريركم في الاستراحة . الاحتياط متأهبون دائما للنزول إلى الملعب . في الاستراحة الأولى سنستبدل جودي ب ساندرا و أي تبديل آخر وارد في أي لحظة . التسديد الافتراضي سنقوم به جميعا خمسة دقائق كل يوم . نغمض أعيننا . نتخيل التسديد بدقة و كأننا نقوم به فعلا . خطوة أولى, ثانية, ثالثة, تسديد . سيمنحنا التمرين انسيابية في الملعب الحقيقي . اليوم سننقسم فريقين و نلعب شوطا واحدا. و في درس الفنون سنأخذ إذنا لبنات الفريق بمتابعة التدريب في الحصة الخامسة . هل هناك أي استفسارات "

" مس , تمارا تريد الانسحاب من الفريق " . _

"_ ليش تتكلمين عنها عنها ؟ ليش ما تقول هي اللي تريده . صحيح تمارا تريدين الانسحاب الآن قبل المباراة بيومين ؟ "

"_ " ... مو أنا .. في أحد يريد هذا الشي . "

"_ " آه . نعم . مين يريد تمارا برا الفريق ؟ "

"_ " " .

" _ بدي حدا يفسر لي الأمر . جودي . خليني شوفك بعد التدريب . يا الله خلينا نبدا . تمارا خذي الكرة و انزلي الملعب " .

فطور جماعي

في غرفة المدرّسات كانت المستخدمة ينزعن أوراق السوليفان عن الأطباق المغلفة و يكشفن أغطية العلب الحافظة للطعام و يصففن الصحون و الملاعق البلاستيكية و إلى جانبها الكاسات الورقية و البلاستيكية . الطاولة الكبيرة امتلأت بأطباق كثيرة كل طبق من بلد مختلف . في وسط المائدة طبق التبولة الكبير و الذي أصبح أساس أي وليمة في الامارات الآن، إلى جانبه الحراق اصبعه و اليالنجي من الشام و البرياني من باكستان و من مصر هناك الملفوف على الطريقة المصرية و إلى جانبه الكشري المجلل بحلقات البصل المقرمش . المدرسات الهنديات أطباقهن متجاورة الصالونة الحارة مع البراتا و كرات حلوى دقيق الحمص بالكاري و الكرم . هناك أيضا صينية المغربية بالخضار و الدجاج من المغرب . السمبوسك المحشي بالخضار و الجبن أطباق الفلسطينيين و معه حلوى حبة البركة بطعمها اللاذع الغريب . حلوى أخرى مصفوفة على يمين الطاولة اطباق ملونة و قوالب الكيك المغطى بالشوكولا، صحون الجليليه المزين بقطع الفواكه . علب العصائر الملونة توزعت بين الأطباق . كوكتيل الفواكه و عصير العنب و المانجا و الأناناس بأسماء و صور تثير الشهية . أطباق أخرى تحتاج بطاقات تعريف لمعرفة أسمائها و مكوناتها . تأملت سلام في الطاولة العامرة . تحتاج بطاقات سفر كثيرة للذهاب إلى كل تلك البلدان و التعرف على حضاراتها و طعامها و ذوقها و لكن هنا في الامارات كل الحضارات تأتي إليك لتعرفك عن نفسها و تعرض عليك ما لديها . لا يمكن أن تحظى بجو غني بكل هذا التنوع في مكان آخر .

المائدة أشبه بمعرض أطباق متعددة الجنسيات . لا يمكن بأي حال أن يتذوق الشخص كل ما هو موجود . طافت سلام ببصرها على المائدة و حدّدت في نفسها ما الذي ستتناوله . قطعة من السمبوسك ، ملعقة من المغربية و اصبعين من الملفوف ، تختمها بقطعة من حلوى حبة البركة التي تعجبها لذاعتها في الفم مع كأس من عصير المانجا . لمحت في آخر الطاولة كرات الحلوى الهندية الصفراء . أخبرها عنها مرّة راتب و حكى لها كيف أصابته بالغثيان عندما تذوقها . غصت و هي تمضغ قطعة السمبوسك . لم تشعر بأي نكهة فيها . ترى أي طعام يحظى به راتب الآن حيث هو ؟ كل الاحتمالات قائمة . عساه يكون بخير . أغمضت عينيها و هي تضمّر أمنيتها في قلبها بأن يكون بخير على أي حال .

أصوات المدرّسات المتداخلة جعلت الغرفة تبدو و كأنها إحدى قاعات هيئة الأمم المتحدة . كل مجموعة تتحدث بلهجتها و عندما يكون التعليق عاما يتحدثون بالانكليزية و كأنها اللغة الرسمية للجميع . أثارت دهشتها مدرّسة الفنون المغربية و هي تتحدث على الجوال . بدا حديثها و كأنه كلمات تعويذة سريانية من كتاب قديم . كلماتها ثقيلة لا يبين منها السامع أي لفظ مفهوم . ضحكت المدرسة حالما لمحت نظرة الاستغراب على وجه سلام .

" _ تتعجبين من كلامي ؟ "

" _ آه ... لا أسفة ... بس يعني هل هذه هي اللهجة المغربية ؟ "

" هههههههه .. لا حبيبي . هاي لهجة أمازيغي على فرنسي على عربي, ما أحد يفهمها غيرنا , خليط . فهمت شي من كلامي ؟ "

" لا أبدا ... "

" و لا أحد يفهم .. ههههه . بس احنا نفهم لهجتكم . من المسلسلات الشامية . "

" آه .. أيوه .. نعم .. "

صفتت مس نجاة أمينة السر بكفيها و تحنحت:

" هاي .. يا لله صبايا , تيتشرز .. عايزين ناخذ صور مع بعض .. الكل مبتسم .. سمايل كبيرة أوي .. الصور ها تنزل على موقع المدرسة و ها تكون في فايل الأنشطة عشان الاعتماد الأكاديمي ... مس نادرة .. قربي من التيتشرز الهنديات لو سمحت عايزين جو تآلف مش كل وحدة تدبق في بنت بلدها .. يا الله .. لازم تطلعوا في الصور بتحبوا بعض كده جو أخوي .. نادولي على المستخدمات يتصوروا معنا .. يا الله بسرعة قبل الأكل ما يخلص مس سلام ,, حبيبي ممكن تناولي طبق الكيك لمس صادقة و انتي مبتسمة عشان الصورة , ربنا يوفقك .. يا الله سميلات حبايبي يا الله .. هي الابتسامة بفلوس ؟ .. مس نجوى .. قوليلهم نكتة كده خلي سنهم بيان . "

" طب اسمعوا دي .. واحد سلفي بتسأل أمه , كيف تريد عروستك يا ابني ؟. قالها , عاوزها كده , أستغفر الله العظيم , أستغفر الله العظيم , وحدة زي الأخت اللي ربنا يستر عليها و يهديها , هيفاء و هبي .. "

المدرّسات الهنديات لم توضح لهن الترجمة المعنى فاضطرت مس نجوى أن تريهن صورة للفنانة هيفاء على جوالها و هي تعيد النكتة مرة أخرى .. و لكن الظاهر أن النكتة لم تبد مضحكة كفاية بالنسبة لهن فاكثفن بابتسامة فآترة و هن يغرفن من طبق البرياني مع الصلصة الحارة .

مس عفاف المصرية تساءلت و هي تغرف من طبق الحراق اصبعه :

" إيه الحمض اللي انت حطاه في الطبق مس سلام ؟ "

" تمر هندي "

" و الله ! حسبته دبس رمان . السنة الماضية عملته مس لبنى كمان من سورية بس كانت عملاه بالمكرونه . انت حطاه فيه عجين . صح ؟ . "

" أي في ناس بتعمله بالمعكرونه بس أنا بحب العجين , و هو أصله بالعجين . "

" أيوه .. و انت بقى تحبي الأصول .. ما شاء الله عليكى . "

علقت مس نادرة الفلسطينية و هي تملء صحنها بالبرياني و تضع إلى جانبه اليالنجي . و عرفة من التبوله .

" طبعا أحب الأصول . حدا ما يحب الأصول ؟ "

" يعني . الناس في ما يعشقون مذاهب . على قولة المثل . بس يعني غريبة , عجبك الملفوف ؟ شفتك سكبت منه . "

__ " لذيذ و الله طيب كثير " .

__ " بس هو غير اللي بتعملوه . طريقة مختلفة " .

__ " عادي . غير بس لذيق, وين المشكلة ؟ " .

__ " يعني حسبتك ما تحبي الأشياء المختلفة " .

__ " بالعكس . أنا اللي أحب الأشياء المختلفة . شوفي كل اللي سكبته مختلف عن أكلنا يعني , الانسان يتعرف على الآخر و يجرب . لذيق و الله . رح آخذ كمان معلقة كشرى شكله نايس " .

تعليق مس نادرة على الملفوف كان له صدى في نفس سلام أعادها إلى ذكرى مشادة حصلت بينهما قبل شهرين . حدث ذلك عندما نشرت مس نادرة على الواتس فيديو للشيخ أحمد ديدات يعلن فيه عن اكتشاف خطير يثبت أن احتفال المسيحيين بعيد ميلاد المسيح في شهر كانون ليس صحيحا . و ان المسيح عليه السلام لا يمكن أن يكون قد ولد في الشتاء بأي حال . كان الشيخ ديدات يستدل على ذلك بذكر الرطب الناضج فوق مريم و الماء الجاري تحتها و أن ذلك لا يكون في بيت المقدس إلا في الصيف . علقت سلام في وقتها بأن كلام الشيخ ديدات يحتمل الصواب و الخطأ لأن وجود الرطب و الماء الجاري في الشتاء من الممكن أن يكون جزءا من المعجزة طالما أن ظروف حمل المسيح عليه السلام و ولادته كلها معجزة .

رُد مس نادرة كان أكبر من الموقف . انتقدت مس سلام انتقادا لاذعا يكاد يطعن في ايمانها و صحة دينها, و أصرت على صحة كلام الشيخ ديدات و أنه عالم ملهم لا يخطئ في شيء. كان موقفها مفاجئا لسلام التي شعرت ان زميلتها تحمّل الأمر أكثر مما يحتمل . عندما حاولت أن تشرح لها أن الشيخ ديدات كان عالما جليلا و داعية مخلصا و أنها تحترم آرائه و لكن كلامه في النهاية ليس وحيًا منزلا و أنه انسان يخطئ و يصيب و فوق كل ذلك الأمر كله لا يستحق الخلاف, فما الفائدة أن نعتقد أن المسيح عليه السلام كانت و لادته في الصيف أم في الشتاء . كان كل ما أرادت إيضاحه سلام هو أن أحمد ديدات انسان مثلها مثله و أنه يحق لها أن تفكر مثلما يحق له أن يفكر بكل بساطة . الصدمة كانت عندما اكتشفت سلام أن مس نادرة حظرتها من المجموعة و مسحت تعليقها على المنشور .

موقف مس نادرة أثار في نفس سلام ألماً كبيراً جعلها تغرق في ضحك موجه لأيام . عندما عادت إلى المدرسة بعد العطلة وجدت مس نادرة تحاول تحاشيها و عدم التواجد معها في نفس المكان و لكن سلام أصرت على اللقاء السلام عليها في الاستراحة . و في غرفة المدرسات قامت بصب فنجانين من الشاي ناولتها واحدا و جلست إلى جانبها تحتسي فنجانها على مهل و تبتسم و هي تنظر في عيني مس نادرة المحرجة . بعد ذلك ظننت سلام أن الموقف مضى و انقضى و لكن يبدو أن في بعض الصدور متسعا للمشاعر السيئة أكثر مما تحتمله صدور أخرى .

لفت نظر

"thank you "

رفعت سلام اصبعها عن جهاز قارئ البصمة حالما سمعت كلمة الشكر و همت بمغادرة الغرفة متتبعه أثر مس ابتسام التي كانت قد سبقتها بخطوات. فجأة اعترضتها مس نجاه أمينة السر على باب الغرفة و سلمتها ورقة و قلما و طلبت منها أن توقع في أسفلها .

_ " على أي شيء أوقع ؟ "

_ " ده استيضاح . معلى مس سلام ماتزعليش بس النهارده الصبح انت مرّيت من جنب زميلاتك و ما صبحتيش و لا التفتت بالمره . انت عارفة احنا عندنا اعتماد أكاديمي بعد اسبوع . اللجنة بتلاحظ كل تصرف و كل شيء بيتسجل على المدرسة , و تصرف زي هيك ممكن يسبب نقطة سلبية . لازم تنتبهي . "

_ " عفوا مس نجاه بس أنا ما في شي بيني و بينهم يعني عادي يمكن كنت شاردة أو مو منتبهة بتصير يعني غير مقصودة أكيد . الأمر ما يستاهل . "

_ " من وجهة نظرك . بس من وجهة نظر اللجنة تصرفك يدل على أن العلاقة بين المدرسات علاقة غير ودية و حاجة زي كده بتقلل من كفاءة الكادر التدريسي. يعني و بتأثر على جو التعليم .. انت عارفة بقى معايرهم غير .. معلى ده بقى لفت نظر عشان تبقي تنتبهي . ربنا يبسرلك مش ناقصين . الادارة كلها متوترة و على أعصابها لا سمح الله أي غلطة نروح كلنا . "

_ " آه ... أيوه ... خير ان شاء الله . "

أمسكت سلام بيدي ولديها المنتظرين في الردهة و انطلقت خلف مس ابتسام . كانت الدهشة ماتزال مرتسمة على وجهها و هي تضبط أحزمة السلامة لمصطفى و جنى و تعدل جلستها إلى جانب مس ابتسام التي ضغطت برجلها على دواسة البنزين و انطلقت في طريقها تتبعها سحابة من الغبار المتطاير تنطلق من تحت عجلات السيارة . فجأة تنهدت سلام و هي تنظر للوراء باتجاه المدرسة التي أصبحت بعيدة .

_ " آه نسيت .. كان لازم شوف طالبة قبل ما نروح .. يا الله خير . "

_ " شو في ؟ " تساءلت مس ابتسام .

_ " في مشكلة بفريق طالبات الثانوي ما فهمت شو القصة تمام بس كنت بدى أستفسر من طالبة منهم . "

__ " بذك نصيحتي , سلام , لا تدخلني بين الطالبات بيورطوكي . الوضع هون غير . بتكوني بمكان بتصيري بمكان ثاني . "

__ " كيف يعني ما فهمت . يعني اذا في شي غلط ما أحاول أصلحه ؟ . "

__ " ما بعرف شو بدي قلك . بس الأمور مو بالبساطة اللي انت شايفتها . إذا بذك راحة راسك خليكي برة مشاكلهم . صدقيني . "

__ " أيوه .. هلاء أكيد بدي راحة راسي يعني مو ناقصين مشاكل . بس يعني الظاهر نفس الحالة مثل عنا . ضلينا بدنا راحة راسنا حتى راح البلد و راحت روسنا معها . طيب خير . كان عندك اصابة اليوم ؟ كان في طالبة على الكرسي المتحرك بتدخلها عندك . "

__ " هههههه .. أي هاي سلمى الصومالية . ما فيها شي . بس من شهر وقعت و انكسرت رجلها . وقتها ما صورناها و نحنا منسغفها . بدهم صور و تقرير عن الحالات الإسعافية اللي تمت بالمدرسة مشان فايل الاعتماد الأكاديمي . رجعنا مثلنا الحادثة و صورناها . بس هيك . "

__ " لا . بتمزحي .! عن جد ؟ يعني اذا صارت اصابة تترك المصاب و تقعد تصوريه؟ أي منطق هاد ؟ "

__ " منطق اللامنطق .. و صدق أو لا تصدق .. ههههه . لسه بتشوفي كثير . "

__ " يعني شو هاد الاعتماد الأكاديمي . حاسة المدرسة كلها مرعوبة منهم يعني تقولي منكر و نكير مو هيك . "

__ " هههههه ضحككتيني و ما لي نفس أضحك .. الله يسامحك . أي شي مثل هيك .. عزيزتي الاعتماد الأكاديمي في أغلبه هو حالة نفاق موثق بالتقارير و الصور . "

__ " لا و الله بجد . "

__ " هاد ياستي لجنة مختصة تقيّم المدرسة من كل النواحي و على أساس تقييمها المدرسة بتكون على المستوى المطلوب فترفع أقساطها أو أقل من المستوى المطلوب ف ما بترفع أقساطها أو في أسوأ الأحوال بيلتغي ترخيصها و بتسكر . "

__ " و الله !.. يعني خربان بيوت بجد مو مزح . "

__ " طبعا . لكن ليش شايفتيهم مرعوبين . "

__ " أيوه .. و و ين النفاق بالموضوع ؟ "

__ " يعني هو مو دائما نفاق . يعني فيكي تقولي تجمل نوعا ما . يعني هم بيعملوا كل شيء حتى يكسبوا رضى اللجنة بس مو بالضرورة تكون هاي سياستهم بالحالة العادية . يعني مثلا بوحدة من المدارس قالتلي طالبة أن المدرسة شالت الصابون من الحمامات و هي اللجنة لسه بتطلع من المدرسة . يعني شي هيك تمثيل مثل ما شفتي اليوم بالإفطار الجماعي و قس على ذلك . "

__ " أيوه .. منشان هيك البنات قاعدين ينكتوا عليهم .. يعني الطلاب يعرفوا .. "

__ " طبعا كله فاهم كله .. طالبة اليوم قالتلي يا نرس هم عارفين ان نحنا عارفين انهم بيكذبوا . بس يعني منضحك على بعض . عزيزتي هون كله بزنس . هيك البلد ماشية . "

__ " معقول .. الكل هيك . "

__ " الأغلب .. بيبقى التعميم غلط .. يعني وحدة صاحبتني بتشتغل في مدرسة مشهورة و على مستوى . المدرسة صاحبها داعية اسلامي معروف . سألته مدرّسة عنده في اجتماع أنه المدرسة بتشتغل على أساس دعوي و لا بزنس ؟ قالها بكل صراحة , لا بزنس .. بس بقلك في مدارس بتشتغل على كفاءتها طول الوقت يعني بيبكون بيهمها تحافظ على مستواها بس بقى قليل . يعني أغلب المدارس الخاصة طبعا على هاد النهج . "

__ " آه .. على هيك اليوم جابوا أدوات رياضة جديدة .. كرات و مضارب كرة طاولة و حلقات الهيلاهوب للبنات . أبوه .. هيك يعني .. "

__ " أي بكرة لما يخلص الاعتماد ما عاد تشوفي منهم شي .. هههههه . بترجعي على ون تو أب داون . هههه . شو رأيك قديش العلقة اليوم . قولك بتمشي بربع ساعة و لا راحتها ساعة .. استعنا على الشقا بالله . "

رفعت مس ابتسام قدمها عن دواسة البنزين و أسندت رأسها إلى مسند المقعد و كأنها على وشك أن تأخذ غفوة ..

__ " لا .. ان شاء الله نمشي بسرعة .. اليوم عندي موعد مهم لازم أرتاح شوي قبل ما روح .. "

تململت سلام و هي تمد بصرها للأمام محاولة تحديد طول رتل السيارات أمامهم .

__ " و الله .. كان بدي قلقك إذا منروح المسا على البحيرة . حاسة حالي مخنوقة بدي شوف مساحة ممتدة أمام بصري هيك شي مفتوح .. يا رب .. تهوّن علينا مصايب الدنيا .. "

__ " ان شاء الله بكرة ما عنا شي . "

__ " تحبي أوصلك و لا رايحة انت و راتب .. إذا زوجك مشغول لا تخجلي و الله عادي بروح معك .. "

__ " بابا مو بالبيت . ما عاد اجي من ثلاث أيام ..!!! " "

انطلقت الكلمات كرصاصة طائشة تردد صداها في سكون الصمت لتوان محطما بعض التماسك الذي حاولت سلام الاحتفاظ به لأيام . التفتت سلام إلى المقعد الخلفي حيث يجلس ولديها اللذين حسبتهما نائمين . أصابتها المفاجأة بالذهول فأخذت تحرق في الطفلين محاولة تحديد من هو الذي كشف الغطاء عن سرها المخبي و باح به .. كانت جنى غافية وقد تدلت ذراعاها على المقعد, بينما مصطفى ينظر بعينين نصف مغمضتين إلى وجه أمه الذي قرأ فيه نذير عقوبة أليمة ... لم تحتج سلام لتوجيه أي ملاحظة لابنها . نظراتها له جعلته يغمض عينيه من جديد و يتظاهر بنوم عميق ..

__ " شو في سلام ؟ خير ان شاء الله .. وين زوجك ؟ "

شعرت سلام و كأنها أمام معادلة بثلاثة مجاهيل لا تعرف من أين تبدأ بحلها. تمتمت بنبرة مرتعشة بقدر ما استطاعت أن تستجدي صوتها الغائر في أعماق قلبها الحائر .

- __ " تصدقي لو قتلتك ما أعرف .. يعني .. في .. ما أعرف ... ما أعرف . "
- __ " عادي سلام .. شو فيكي . عادي .. بتصير . لا تهمني حالك .. يا ستي .. الحال من بعضه . "
- __ " زوجك كمان مختفي ؟ "
- __ " ههههه . علّواه .. من وين ؟ لازق بالبيت أربعة و عشرين ساعة .. "
- __ " و شغله ؟ "
- __ " يا ستي خفضوله راتيه بالشركة . ضربته نوبة كرامة . قدم استقالته . و هاي قاعد بالبيت و أنا رح أحصله . يعني الاتنين رح نصير بلا شغل . الحمد لله .. على هيك مشتية أطلع أغير جو شوي يعني .. يا الله . "
- __ " و على شو ناويين ؟ "
- __ " هلاء على النوايا فيه كثير ... خير الله .. شغال على كل الاتصالات على مستوى العالم و الله . أصحابه كل واحد بيحكيه من مكان . شي من الجزائر , شي من ألمانيا , ماليزيا , تركيا , و لسه واحد حكى امبارح من كينيا كمان .. ممكن بكرة تلاقينا بزمبابوي ما تعرفي . الاحتمالات مفتوحة و الحمد لله . كل يوم بيدخل على بلد شكل على جوجل و بيتفرج عليها و على تعالي شوفي و شو رأيك كأن الشغلة موقفة على رأيي . ربك يفرج عن العباد . و الله حاسّة كأنها نكبة ثانية الله يستر " __ " لا ... لا سمح الله .. بعيد الشر .. ان شاء الله بتزبط الأمور و منرجع كلنا . الله كريم . "
- __ " امبارح ابن خاله حكاه من السويد .. لسه قاعدين في كاتينات . بيوزعوا عليهم أكل و ملابس و لهلاء ما لقي شغل . أولاده بيروحوا كل يوم من الصباح ل الساعة 4 بيدرسوا و بيتعلموا لغة . ما بيعرف عنهم شي . لا شو بيتعلموا و لا شو بيعملوا . و زوجته حيصيها اكتاب كل النهار و الليل ناظرين شي ما بيعرفوا شو هو... واحد تاني من العيلة بيقول لقي شغل و استاجر بيت و حالته منيحة . و ربك أعلم . الله يتلطف بالعباد . و الله مو باينلها حلّة و ما حدا رايدها تنحل .. الله ينتقم منهم كلهم خربوها و قاعدين يتفرجوا عليها .. "
- __ " وصلنا .. مر الوقت بسرعة .. ما حسينا "
- __ " طبعاً.. ما في غير الكلام بيسرق الوقت .. الله معك حبيبي .. ان شاء الله بكرة منشوفك على خير . "
- __ " قادت سلام ولديها عبر الطريق الترابي حتى وصلت إلى باب البناء . كان المصعد ممتلئاً فتراجعت إلى الخلف بانتظار عودته مرة أخرى . أدار مصطفى وجهه إلى الحائط متجنباً نظرات أمه العاتبة . كان رأس سلام كخلية نحل صاخبة تأزّ . برجع أفكار تروح و تجيء كلمع البرق في ليلة عاصفة . غياب راتب . موعد جنى لدى الطبيب . قصة ابتسام و زوجها . فريق البنات و التقارير المرفقة بالصور التي طلبتها منها مس نجاة من أجل الاعتماد الأكاديمي و الآن مصطفى الذي فضح سرا ظنت أنه لن يطلع عليه أحد . وصل المصعد خاليا فاندفعت هي و ولديها إلى الداخل و تركت جنى تضغط على الرقم 12 لينطلق بهم صاعداً إلى بيتهم الذي لا ينتظرهم فيه أحد سوى السكون و الصمت . "
- __ " قبل أن يسرع مصطفى إلى الحمام ليغسل يديه على عادته , استوقفته أمه و أخذته من يده إلى غرفة الجلوس . جلست على الأريكة محاولة السيطرة على انفعالاتها قدر ما تستطيع "

__ " مصطفى !.. التصرف اللي عملته اليوم في سيارة مس ابتسام غلط . نحنا متفقين أن الأشياء اللي نصير بالبيت ما نحكيها برة . صح ؟ "

__ " "

__ " ليش ساكت ؟ الشي اللي عملته صح و لا غلط ؟ "

__ " غلط .. ماما ... أنا آسف .. ما ... بس بابا امتي رح يرجع هو طول . ما خلص شغل لسه ؟ "

__ " أي ماما في سيرك بالقصبا الجمعة الجاية رفيقتي سنا قالت انه أبوهم رح ياخدم عليه .. اذا اجي بابا منروح كمان نحنا . ؟ "

__ " أي حبيبتي منروح باذن الله ان شاء الله بابا بيكون اجي لوقتها .. طيب .. ماشي الحال .. اغسلوا ايديكم انت و اختك و تعالوا تغدوا . رح سخن الدجاج و الرز . "

__ " و انت ما رح تتغدي معنا ماما ؟ "

__ " لا حبيبتي .. أنا أكلت مع المدرسات في المدرسة . كان فيه فطور جماعي . "

__ " ماما .. رفيقي عبد الكريم أمه جابتله صحن فيه سمبوسك و كيك و محشي من غرفة المدرسات و عطته هو في الفسحة . انت ما جبتي شي . "

__ " حبيبي .. الفطور كان للمدرسات بس ما قالوا انه ناخذ كمان للأولاد . لو قالوا كنت أخذتكم . يا الله تتغدوا و تغسوا ايديكم و ترتاحوا . أنا بدي أنام شوي على الصوفا .. بعد ساعة بدنا نروح على دبي حتى الدكتور يشوف جنى . ما بدي اسمع أصوات . أنا تعبانة . "

__ " حاضر ماما . "

لو تصرف مصطفى بهذا الشكل في وقت آخر لكانت عقوبته أكثر من كلمة تأنيب تنتهي باعتذار بسيط . ولكن حالة سلام لم تترك لها قدرة على التفكير في عقوبة تهذب بها ابنها على خطأ يعرف جيدا أنه يثير غضب والدته إلى حد كبير . فرحة مصطفى بالنجاة من العقوبة جعلته يندفع لترتيب الطاولة و مساعدة أمه على حمل الصحون و علب اللبن و فتحها بهمة عالية محاولا التعويض عن إساءته التصرف .

تمددت سلام على الأريكة تراقب ولديها يتناولان طعام الغداء . كانت صور من الإفطار الجماعي في المدرسة ماتزال تتوارد على صفحة خيالها ملونة ملامحها بشيء من الذهول و الاستغراب لحالة لم تتخيل يوما أن تشهدها وتعيشها . استرجعت في نفسها بعض الإفطارات الصباحية التي كانت تحدث في مدرستها في الزبداني . كانت تُحَضَّر بعفوية و بساطة . صحن المكدوس المغمور بزيت الزيتون الزكي الرائحة , مناقيش الزعتر و الجبن و الفليفلة . أطباق الفول المدمس و فتة الحمص بالطحينة و مع كل ذلك كأس الشاي الرائق الذي يلمع في الكأس كحجر عقيق حجازي . ضحكات المعلمات و تعليقاتهم العفوية من غير الابتسام لصورة أو تقرير .

كم هي غريبة الأيام ! كيف تنقل الانسان من حال إلى حال . علا رنين جوالها منبها لرسالة تم استلامها . من دون أي شعور بالفضول فتحت الرسائل و قرأت . مس نجاة تؤكد عليها ضرورة توثيق التدريبات للمباراة بالصور من أجل البورتوفايلو الخاص بالرياضة . أحست بشيء من التنغيص . حتى في ساعة

راحتها في بيتها عليها أن تبقى فكرها مشغولا بشؤون المدرسة . عندما قال لها راتب أن العمل هنا استنزاف للإنسان لم تدرك معنى كلامه . الآن فقط تفهم ما الذي كان يتحدث عنه

. في هذه البلاد يعملون على مكنتة الإنسان . على تحويله إلى آلة تسجل و تأرشف كل حركة و سكتة تقوم بها . حالة من استشعار الرقابة الدائمة تقتل ابداع العفوية و بساطة الأداء ليتحول العامل إلى روبوت مبرمج على مزاج صاحب العمل و رضاه . في هذه البقاع من بلاد العرب لن تدخل جحافل تدك الدور و القصور , لتقوض أركان البلاد كما حدث في أماكن أخرى . على العكس , هنا , يشيدون الحجر و يهدمون البشر . يسرقون منهم انسانياتهم و يحولونهم إلى آلات تنتج و تعمل و تفكر بالعمل و تحلم به في نومها حتى . بينما مالكيهم يتحولون إلى صرافات آلية تعد المال و تستفه . هنا الدمار أشمل و الخسارة أكبر .

صورة جنى و مصطفى يتناولان الطعام كانت تلوح كخيال باهت بينما جفني سلام يرتعشان مستسلمان لنعاس بدأ يسحبها بعيدا إلى حيث تتماهى الصور و تختفي مخلية ساحة الشعور لفراغ مديد ينحي جانبا ضوضاء الأفكار المقلقة و المرهقة للنفس و البدن . بدأت تدخل في حلم زهي حملها إلى سوق الحميدية . سمعت صوت بائع العرقسوس ينادي على الشراب البارد و هناك أمام الجامع الأموي عربية شراب التوت الشامي المثجج . لون التوت الخمري يلمع في ضوء الشمس و حمام الأموي تطوف في الساحة تنتظر الحب الذي يرميه لها الناس .. الحمام يطير فجأة دفعة واحدة فتنتفض سلام مجفلة .

لم تدر كم من الوقت طالت كبوتها عندما هبت مرعوبة على صياح جنى و مصطفى يقفزان و يصيحان أمام باب الشرفة . أحست أن خلايا جسدها كلها انتفضت و اختلطت مع بعضها تاركة اياها في حالة من عدم الاتزان و الإدراك . ما الذي يجري ؟

راتب ؟

تقلقت الباء في رأسها كصوت مطرقة . هبت عن الأريكة و هي تحاول أن تستجمع شتات نفسها المضطربة .

_ " ماما .. ماما .. تعالي شوفي .. عصفور على البلكون .. ماما .. عجلي قبل ما يطير .. "

حنان أمومتها طغى على نكد الافاقة المرعبة . ازدردت حنقها و قامت على مهل تستطلع الأمر الذي أثار ولديها إلى هذه الدرجة . على الشرفة كان هناك عصفور ينتفض كورقة ترتعش في الهواء . يبدو من عصافير الزينة الغالية الثمن بريشه الأصفر و الأخضر . كان يرتعش بشدة و صدره ينبض بسرعة كبيرة . ربما تكون صدمة الحرية أصابته بالرعب . يبدو و كأنه كان هاربا من قفص من إحدى شقق البناء ثم تعب و حط على شرفتهم . كم يبدو مسكينا و مثيرا للشفقة .

_ " ماما .. أنا أفتح الباب بهدوء و انت ترمي عليه الشال و نمسكه .. أي ؟ .. بسرعة قبل ما يطير .. ماما .. بسرعة . "

و كأنها منومة مغناطيسيا تحركت سلام بهدوء و فتحت باب الشرفة الضيقة على مهل . تناولت الشال الحريري عن الأريكة و رمت به على العصفور الذي انتفض هاربا قبل أن يقع الشال عليه .

_ " ماما .. لا .. خوفتيه ... راح ... خلص .. "

_ " ما تزعلوا .. خلص .. بس يجي بابا نروح نشترى عصفور و قفص . "

.. " و نروح السيرك ؟ "

.. " و نروح السيرك .. بإذن الله .. يا الله .. هلاء نحضر حالنا حتى نروح على الدكتور . يا الله يا ولاد ..
الله يبسر لنا."

لم تكن سلام من النساء اللواتي تُرهبن تحمل المسؤولية فطالما تدبرت أمرها جيدا في غياب زوجها الطويل . مع ذلك كانت الرحلة إلى دبي لزيارة الطبيب النفسي للكشف على جنى قد أخذت من تفكيرها الشيء الكثير . منذ تم تحديد موعد الزيارة قبل اسبوع من الآن لم تستطع أن تتوقف عن التفكير في طبيعة ذلك التشخيص الذي سيجريه الطبيب لابنتها . و الان وقد أصبح عليها أن تقوم بهذه الرحلة لوحدها ومن دون زوجها تضاعف القلق ليغدو أكبر . لم تكن واعية تماما ما الذي يثير قلقها الآن . هل هي نتيجة التشخيص أم ذهابها لأول مرة إلى دبي لوحدها برفقة ولدين . كانت تعرف أن أخذ سيارة من الشارقة إلى دبي سيكلفها أكثر من ثلاثين درهماً و تعرف أن باستطاعتها توفير شيء من هذا المبلغ إذا ذهبت إلى خلف مجمع صحارى و اجتازت الخط الفاصل بين الشارقة و دبي لتأخذ سيارة أخرى من هناك إلى المكان الذي تقصده . سيكون باستطاعتها توفير عشرين درهماً على أقل تقدير في رحلة الذهاب و العودة . الان و مع غياب راتب الذي لا تدري أجلا محددًا لنهايته , أصبحت تفكر في كل درهم تنفقه و كل درهم متبق في حوزتها . مدت بصرها إلى السماء من خلال باب الشرفة الزجاجي و كأنها تستجدي عونا ممن رفع السماء فوقها من غير عمد . تنهدت بعمق و انطلقت في سبيل غايتها .

جنى

ألم رفيع يتلوى في أمعائه كأفعى تزحف على مهل و تنفت سمها رويدا رويدا .. تحسس صدره العاري بيده .. حاول النهوض قليلا . فاجأته ألوان المنزر الملتف حول وسطه . سرح بصره في خطوط القماش المتداخلة كأغصان الأشجار الاستوائية . غابت هندية تفوح برائحة الرطوبة . تسلل إلى لوحة القماش و سرت فيه حرارة الغابة و عبقها . رأى نفسه يمتطي فيلا يجري به بين أعواد القصب العالية . هواء حار يهب عليه يلفح جبينه . ينتصب واقفا على ظهر الفيل . يمد يديه إلى غصن قريب . يتعلق به و يعتلي شجرة وارفة . يتسلق الأغصان واحدا بعد الآخر جسده خفيف كريشة يحملها الهواء , يعلو و يعلو حتى يرى صفحة السماء الزرقاء الصافية . أمامه محيط واسع . تنهادى الأمواج فيه و تتماهي في رمال الشاطئ البيضاء حالما تصل إليها .. تتغلغل في الرمال .. يطير محلقا و يحط على الرمال الناعمة . يغرس قدميه في الرمل . يتفجر الماء من تحت قدميه رائقا عذبا باردا .. تسري البرودة من قدميه إلى جسده . تسري فيه رعشة ترتجف لها شفثيه . و يغمض جفنيه مستشعرا الانتعاش . هنا قدميه مغروستين في الرمال . سيدغ جسده عالقا بين الماء و الطين و يحلق عاليا . تغوص قدماه إلى الأسفل و تتمطى نفسه محاولة خلغ ردانها الصلصالي السميك . يشعر بها تخرج كأبخرة تتصاعد من رأسه . تنسل من أوصاله من أطراف أصابعه كدوائر الدخان التي يرسلها الهنود الحمر . تطفو و تحلق عاليا عاليا .

صيحة حادة تشق السكون, و خفق أجنحة تصفق بجنون " جنى .. جنى ... جنى ... " خيال بيبغاء خضراء , صفراء , حمراء و أرجوانية. ها هي تقفز من غصن إلى غصن تنحت في لحاء الغصن حرفا بمخلبها تكمل رسم حرف آخر ج , ن تخفق أجنحتها بشدة و تحفر حرفا ثالثا ي . تشير بمنقارها إلى

الكلمة . جنى تقف على الأرض أمام الشجرة تنظر إلى الببغاء برعب . تفتح فمها محاولة تهجئة الكلمة . تنطق بالجيم . تتلثم بالنون و تفغر فمها دهشة .. تقف حائرة تنظر إلى الببغاء بهلع . الببغاء تصيح . تتخبط بين الأغصان . يتطاير ريشها في الهواء . ريش أحمر , ريش أخضر .. أصفر .. يتلون الجو بجميع الألوان . تهوي الببغاء إلى الأرض و تقع هادمة على الأرض . تنظر إليها جنى بخوف .. تسيل دموعها على خديها .. تأتي موجة تهزول باتجاهها تغمرها و تسحبها إلى البحر . تختفي جنى بين الأمواج و تغيب .

آآآه . شهقة عالية أطلقها من أعماقه , و كأنه خرج لتوه من بين الأمواج بأخر نفس في صدره . يعتدل جالسا في الفراش . يتحسس أطرافه . يتحسس بيده كامل جسده . ما زال هنا . لم يغادر جسده بأي درجة . ما زال حبيس القفص الترابي الطري . لن يستطيع أبدا أن يخرج منه . كلما همّ بما يريد تعلقت همومه بنفسه و شدّتها إلى جسده كما تشد الحبال خيمة إلى وتد عالق في الأرض .. لا يستطيع الانفلات .. همومه تثقله . مشاكله تتشبث به كجذور تمتد عميقا في الأرض تمنعه من النهوض , من التحليق , من الخروج من هذا السجن المقدر عليه إلى أجل غير معلوم .

صحاري

_ " جنى راتب مصطفى ؟ "

_ " نعم . "

_ " اتفضلي . "

_ " ممكن أدخل معها ؟ "

_ " لا آسفة . هي تدخل لوحدها .. "

_ " شكرا .. "

تبسمت سلام في وجه مصطفى و هو يتبع بنظراته أخته التي توارت خلف باب غرفة الطبيب . تناولت مجلة عن الطاولة أمامها . فتحت صفحة منها و حاولت القراءة . بدت لها الكلمات خطوط متداخلة كشبكة عنكبوت . لم تتبين شيئا من الصفحة و لا التي تليها . قلبت المجلة باحثة عن صور تتشاغل بها عن صوت نبضها المتسارع . تخيلت صفحة وجهها مكفهرة فحاولت الاسترخاء و ترديد بعض التسيبجات أو الأدعية . لم يفلح لسانها في النطق بشيء فاستحضرت في خاطرها "بسم الله" . همس السين تردد في أذنها مانحا اياها شيئا من الهدوء و الاستسلام . تجنبت النظر في ساعة الحائط . لا تريد أن تشعر بالوقت الآن . لا تريد أن تفكر بشيء و لا أن تشعر بشيء .

و لكن على غفلة منها تسلّلت أطياف لحظات ماضية مازالت تثير في نفسها احساسا بالألم .. أيام الأزمة و أصوات النار و الدمار التي أذهلتها عن ابنتها و متابعتها في ما تتعلّمه في الروضة .. لم تجد في نفسها وقتها القوّة و الصبر لتعيد عليها دروسها و تقرأ معها أولى حروفها و كلماتها حتى باغتها الصدمة .

ابنتها الوحيدة في السادسة من عمرها و لا تميّز الحروف و لا تقرأ .. كان احساسا قاسيا جدا جعلها تشعر أن زهرتها الجميلة بلا رائحة و أن كل ما حقّتها به من دلال كان بلا معنى و هي تتركها تائهة في قفار الجهل . هل كان ذنبها حقا ؟ أم أن البنت تعاني من مشكلة تمنعها من القراءة ؟ لم تستطع تحديد السبب . مصطفى قرأ الحروف في عمر الرابعة و كان يحسب على أصابعه و هو في عمر الخامسة .. هل تراها تستدرك ما فاتها و تعوض لها ما ضاع منها ؟

يقلّب مصطفى مجلة أطفال ثم يرمي بها معيدا اياها إلى الطاولة .

__ " ماما عطيني موبايلك . بدي لعب كاندي كراش . "

__ " لا . مصطفى . اقرأ قصة من المجلة . هاي مجلة أطفال . "

__ " ما لقيت شي كلهم بايخين .. عطيني الموبايل ماما بلعب لعبة وحدة . "

__ " تعال أدور أنا و انت . خلينا نشوف ... "

أطلّت الممرضة من غرفة الطبيب و توجهت إلى سلام بخطابها :

__ " عفوا مدام ! الدكتور يريد يشوفك .. "

__ " طيب .. شكرا .. هاي مصطفى ! خلي الموبايل معك على بين ما اطلع من عند الدكتور . انتبه لجنى أي "

خرجت جنى من غرفة الطبيب و وجهها مشرق بابتسامة فرحة . ركضت إلى أمها و ألقّت بنفسها على صدرها .

__ " ماما .. الدكتور قال اني شطورة .. "

__ " الحمد لله .. خليك مع مصطفى هون على بين ما شوف الدكتور . اتفرجي على المجلات . "

__ " حاضر ماما .. "

أمسك مصطفى بمجلة أطفال و فتح على صفحة قصة مصورة . أشار إلى كلمة في أعلى الصفحة كتبت بخط كبير .

__ " جنى .. شو هاي الكلمة هون .. تعرفي تقرأياها .. "

__ " ممم آه .. ما أعرف .. "

__ " كيف ما تعرفي . مو هلاء فحصك الدكتور .. وقال انك شطورة . "

__ " أي بس ما عطاني دوا .. يعني بكرة بصير منيحة و بقرأ كلشي . "

__ " مصطفى . لا تزعج أختك . ما عاد تحكيها هيك . "

ربتت سلام على رأس جنى و انطلقت إلى غرفة الطبيب بخطى وجلة . كان فضاء تفكيرها خاليا من أي صورة أو أي احتمال لما ينتظرها خلف الباب المغلق على مفاجآت .

الطبيب شاب في نهاية الثلاثينات . حالما نطق بعبارة الترحيب , عرفت سلام أنه تونسي . شعرت بشيء من الاطمئنان و هي تجول ببصرها في أرجاء الغرفة . لوحة آية الكرسي التي تتوسط الجدار خلف مكتب الطبيب أهدتها بعض السكينة جعلت نبضها المتوتر يهدأ الى حدا ما مكنها من سماع صوت الطبيب بوضوح . بدت محاولته لاستخدام لهجة قريبة إلى الفصحى تصرفا راقيا منحها شعورا بالارتياح .

__ " أهلا .. مدام تفضلي .. "

__ " ... أهلا بك .. "

__ " مدام أحب أطمئك بنتك لا تعاني من شدة أو صدمة نفسية . الاختبار يقول انها طبيعية تماما , و استجابتها لا تشير إلى وجود أي مشكلات سايكولوجية بتاتا . "

__ " بس هي الحقيقة مرت بظروف صعبة أثناء خروجنا من البلد و المشرفة النفسية في المدرسة اقترحت أن هاد ممكن يكون سبب في عدم تمكنها من القراءة حتى الآن . "

__ " أختي الكريمة . ليس بالضرورة أن كل ظروف صعبة تسبب شدة نفسية . سايكولوجية الانسان مصممة على تحمل المصاعب إلى درجة كبيرة . عندما تكون البنية النفسية قوية . بمعنى , اسمحي لي أن أوضحك الأمر . يعني لما يكون الانسان مستوفي احتياجاته النفسية و العاطفية و الوجدانية, يعني لديه إشباع عاطفي, بشكل سوي, يملك قدرة على تخطي المصاعب بأقل ضرر نفسي ممكن , يعني مثل البناء المتين اللي يتعرض لزلزال , ممكن يهتز نوعا ما و لكنه لا يتحطم . استجابة ابنك للروايز أظهرت أنها على سوية نفسية جيدة , و هذا يعني أنها لا تعاني من هشاشة نفسية تؤدي الى ظاهرة سلوكية أو إدراكية . أتمنى تفهميني . "

__ " أفهم دكتور . بس حضرتك تشوف أن عدم قدرتها على القراءة حتى الآن و هي في عمر ست سنوات أمر طبيعي ؟ أخوها بدأ يقرأ في عمر أربع سنوات . "

__ " أختي الكريمة أولا المقارنة غير واردة . القدرات العقلية و النفسية تختلف من انسان لآخر . ثانيا عمر ست سنوات ليس مقلقا كثيرا بالنسبة لمهارة القراءة و الكتابة . ممكن يكون مسألة وقت لقابلية استجابة يتم استكمالها بوقت متأخر . ممكن يكون أمر آخر . نقدر ننتظر البنت فترة إلى آخر العام الدراسي, و نشوف تطور استجابتها للتعلم . إذا لم تحدث استجابة أرجح أن تكون حالة " ديسلكاسيا . "

__ " عفوا .. ! "

__ " الديسلكاسيا " حالة عسر القراءة . تشبه عسر النطق نوعا ما , و سببها عضوي و ليس نفسي . "

__ " اعاقة عقلية تقصد !.. هي تحفظ أغاني كثيرة من برامج الأطفال و ذاكرتها جيدة في تلقي المعلومات الشفهية و حفظها و حتى أنها ترسم أشكال في لوحات معقولة على مستوى عمرها . "

__ " لا أختي الكريمة . ليست إعاقة بالمعنى الدقيق . هي خلل معين في الدماغ في المنطقة المسؤولة عن القراءة فقط تجعل الطفل يرى الحروف تتراقص أمامه و لا يستطيع تبين الكلمة بوضوح . و لكن أنا لا أقول أن ابنتك لديها ديسلكاسيا . أنا أقول هذا احتمال و الاحتمال يحتاج إلى اختبار آخر لنفيه أو تثبيته . "

__ " الحقيقة الوضع الآن ما يسمح بإجراء اختبار آخر .. يعني .. هل الأمر مكلف نوعا ما ؟ "

__ " ليس إلى درجة كبيرة .. أتفهم وضعك مدام .. ولكن .. أقدر أساعدك إذا تحبني .. "

__ " ياريت .. "

__ " أوكي .. في طالبة علم نفس, شابة, مثقفة و نشيطة وهي بتشتغل على رسالة ماجستير و بحثها في البرمجة العصبية اللغوية في مجال الديسلكاسيا . هي بحاجة إلى حالة تجري عليها دراستها . إذا تواصلت معها ممكن تجري الاختبار لبنتك و تحدد ما إذا كان لديها ديسلكاسيا أو حالة أخرى . و هي ممكن تساعدنا في العلاج لو عندها الحالة من غير ما يكلفك الأمر شي لأنها حتكون مشروع رسالتها و يعني هذا اقتراح أتمنى يكون مناسب .. "

__ " مناسب جدا .. أشكرك دكتور . الله يجزيك الخير .. "

__ " لا أختي هذا واجبنا .. نحن أخوة .. الله يصلح الأحوال .. "

__ " آمين يا رب .. "

__ " أوكي مدام .. حضرتك تتركي رقمك عند النرس برة و إن شاء الله نبعته للطالبة و هي تتواصل معاكم .. هي اسمها جميلة .. و هي كمان من تونس .. شابة نشيطة و تحب المساعدة .. أتمنى تمشي أموركم تمام . "

__ "شكرا كثير دكتور . الله يعطيك العافية . "

عندما تجاوزت سلام الشباك الفاصلة بين إمارة دبي و إمارة الشارقة و عبرت الطريق الترابي إلى أمام مجمع صحارى التجاري شعرت أنها قامت بإنجاز كبير . صحيح أنها لم تتوصل إلى حل لمشكلة ابنتها بعد, و لكنها وضعت قدمها على أول الطريق و هي تعلم جيدا أن الخطوة الأولى هي الأهم . عندما يعود راتب سيجد واحدة من مشاكلهم قد بدأت بالانفراج . لا بد أن هذا سيخفف عنه شيئا من العبء الذي يقلقه و يتعب فكره .

برودة الهواء تبعث شعورا بالارتياح. الطقس الآن أشبه بالربيع في بلاد الشام . بإمكان الشخص أن يتمشى على مهل دون أن تخنقه الرطوبة و ترهقه الحرارة العالية . أحست بانشرائح يغمر صدرها ما لبث أن تسلل إليه كدر لدى تذكرها لغياب زوجها المحير . دفعت خاطر المكدر بعيدا عن ساحة شعورها و أمسكت بيدي ولديها لتعبر بهما الطريق إلى الجهة المقابلة .

__ " ماما خلينا ندخل على صحارى نتمشى .. "

__ " أخاف نتأخر .. بكرة عنا مدرسة .. "

نطقت سلام بتلك الكلمات بصوت متردد . قاومت شعورا بالرتاء لولديها اللذين لم يخرجوا هذا الأسبوع في أي نزهة أو مشوار يروحوا به عن أنفسهم . تراخت قليلا و هي تنظر إلى جنى تشدها من يدها باتجاه مدخل صحارى الخلفي.

__ " ماما خلينا نلعب بالألعاب شوي .. ما نطول .. الله يخليكي .. "

__ " طيب .. ماشي الحال .. كل واحد لعبة وحدة و بس . "

__ " أي ماما .. بس وحدة . "

تحسست بأصابعها محفظة النقود في حقيبتها . فتحتها و أحصت ما بها على جنب . بإمكانها ان تسعد أولادها بنزهة قصيرة تعوضهم عن مشوار يوم السبت . ستشتري بطاقة واحدة لكل واحد منهما . المبلغ الذي استطاعت توفيره من مشوار الطبيب سنتفقه الآن لتدخل الفرحة على قلوبهم .

تجاوزوا الصلاة الأولى بسرعة . لم تنظر سلام إلى أي من الملابس المعروضة . تعرف جيدا أن فكرة شراء أي شيء الآن غير واردة في هذه الظروف . تابعت سيرها باتجاه القسم الآخر من البناء عابرة الممر الواصل بين قسمي المجمع . حالما انتهى الممر الطويل علت أصوات الموسيقى الصاخبة التي تصدح من قسم الألعاب في الطابق الثالث تتوزع إلى جانبها المطاعم و المقاهي و بعض المحلات .

توقفت أمام طاولة في طرف الصلاة و اشترت بطاقة ركوب قطار الألعاب لجنى و بطاقة لعبة الكترونية لمصطفى . ضجيج الأصوات يتجاوز قدرتها على الاحتمال . ترى كيف تحتل أذان الأطفال الصغيرة كل هذا الصخب .؟ تحت جانبا ترأقب ولديها اللذين اندفعا إلى اللعب بسرور . بشكل عفوي التفتت إلى يسارها و ابتسمت . لوهلة شعرت أن راتب يقف على يمينها يتأمل البهجة التي تغمر وجه ولديهما و هما يلعبان . تلاشت ابتسامتها و هي ترى أناسا يتجاوزونها و يمضون في طريقهم و كأنها شيء من الأشياء الموجودة في المكان .

الناس هنا لا ينظرون في وجوه بعضهم و يبتسمون . هنا يتفرجون على عروض المطاعم و اعلانات المحلات . يتصيّدون عرضا يوفر عليهم شيئا من المال الذي يتسرب هنا كما تتسرب الرمال من بين الأصابع .. هناك دائما أشياء تتمثل أمامك تلح عليك في اختبارها و التعرف عليها لتتيقن من المتعة التي وصفها لك أحد أصدقائك أو أقربائك حال تجربتها أو اقتنائها .. هكذا أمور بلا نهاية طبق آسيوي حار .. بوشار بنكهة الكراميل أو حتى آيس كريم بطعم لم تسمع به من قبل . أداة عجيبة توهمك أنها من أهم الضروريات لأنها توفر عليك وقتا أو تسهل عليك أداء مهمة تستخدمها لفترة ثم ترميها في حجرة الكراكيب مع أكوام الأغراض الكثيرة التي دفعت فيها مالك و عرقك بكل سعادة و رضى .

ليس شعورا جيدا أن يكون المرء في هذا المكان لوحده .. هناك الكثير من السوريين . تستطيع التعرف عليهم من ملامحهم . و بعض الكلمات التي تصل إلى سمعها من كلامهم . ترى من أي المدن المنكوبة قادمون ؟ هناك أيضا الكثير من الهنود و الآسيويين . هناك الكثير من كل بلد من بلاد الدنيا . ملامح غريبة و أزياء غريبة . لوحة عجيبة للتنوع البشري تتبدل و تتغير في كل لحظة .

قطع عليها تأملاتها صوت جنى و هي تركض باتجاهها . كانت الفرحة بادية على وجهها و من خلفها مصطفى ينقل خطواته على مهل و هو يتأمل المشهد من حوله . رجاء كبير غمر قلب سلام برحمة الله و لطفه جعلها تتوجه إلى الله بالدعاء في سرها أن يجلي بصر ابنتها و بصيرتها حتى تراها تهجأ و تقرأ كما يقرأ كل الأطفال في العالم .

__ " ماما خلينا ناخذ همبرغر "

__ " لا هلاء منتعشى بالبيت ... "

__ " طيب خلينا نشترى بسكن روبنز . "

__ " ماشي .. تكرموا .. تعالوا نشوف .. "

__ " ماما شوفي هاد البوط الأديداس اللي كنت وعدتيني تشتريه يوم السبت . تشتريلي اياه هلاء .؟ "

__ " لا مصطفى .. لما يجي بابا نشتره . "

__ " ماما .. انت وعدتيني نشتره السبت . من ثلاث أيام .. بكره بيخلصوا .. "

__ " ما بيخلصوا مصطفى .. تعال ناخذ باسكن روبنز . بدك شوكولا و لا فريز ؟ "

__ " ما بدني شي . "

__ " طيب . براحتك .. يا الله جنى نجيب باسكن روبنز لذيد . "

حزّ في قلبها أن تخيب رجاء ولدها في ما طلبه منها . تعرف جيدا كم يعني حذاء رياضي جديد ذو نتونات في أسفله يجعله يقفز كسنباب في غابة و يتيه فخرا به بين أصحابه . و تعرف أيضا أن راتب الاجازة الذي وضعه راتب في رف الخزانة كعادته يكفي لشراء كل ما يرغب به ولداها . و لكنها لا تعرف إلى متى يمتد غياب راتب . و لا يمكنها أبدا أن تعرف كم من المفاجآت تخبئ لها الأيام القادمة . ربما لا يغني عنها شيئا توفير مبلغ بسيط ، و لكنها على كل حال تتصرف بمنطقها الذي اعتادت عليه و تترك الأمر لله . لم يكن المال هو السبب الوحيد في تأجيل شراء الحذاء . كانت سلام ترى أن على ولدها أن يدرك و لو في عمر مبكر أنه لا يستطيع أن يحصل على كل ما يريد و في أي وقت يريد و أن هناك أشياء يجب علينا انتظارها حتى يأتي أوانها . كان لا بد لها من مساعدته على فهم هذا الدرس البسيط من أجل أن يستعد لدروس أصعب لا بد قادمة إليه مع الأيام .

عندما أمسكت بيده ليدخلوا معا إلى المصعد ، سحب مصطفى يده من يد أمه و تحى جانبا في الزاوية مديرا ظهره لأمه و أخته . في لحظة واحدة تزامت في خاطرهما جميع المواقف التي أثارت حنقها و استيائها في الأيام السابقة . و كأنه حالما يحل في القلب كدر ما ، تنادي الأحران على بعضها لتتكاتف و تسدل ستارة الهم على ذلك القلب لتزيده وهناً و إعياء . شعرت سلام أن في عينيها بحر من الدموع يكاد يفيض و يغرق كل ما حولها . صرّت على أسنانها و هي تطرق رأسها في حقيبتها تبحث عن المفاتيح و تحاول ابتلاع دموعها و آهة مكتومة كادت أن تفلت من صدرها الحزين .

تركت ولديها في الصالة يرتاحون من تعب المشوار الطويل و أسرعت إلى المطبخ . تناولت كأسا عن الرف و ملأته ماء باردا . لم تكن تشعر بالعطش . لم تكن تشعر سوى بشيء من القهر الذي لم تألفه في نفسها قبل اليوم . تريد أن توقف تلك الرعشة في يديها و شفيتها قبل أن تخاطب ابنها بكلام وجدت أنه من الضروري أن تقوله له الآن قبل أن يحمل خيبتها معه إلى الفراش و يجعلها تغفو معه على وسادة واحدة .

عندما نحمل خبياتنا معنا إلى الفراش ننام نحن و تبقى هي مستيقظة لا تنام . تكبر طوال الليل و تتضاعف و نصحو لنجدها قد تحولت عملاقا كبيرا يحجب عنا شمس الصباح و يجعل نهارنا قاتما بلا نور و لا بهجة . لا بد أن نغسل عن قلوبنا كل خبيات الأمل قبل النوم . و هذا ما ستفعله الآن . تذكرت وصية تهديّ خاطر و تجلو الكدر . تتناول كأس ماء على ثلاث دفعات تبدأ كل واحدة ببسم الله و تنهيهها بالحمد لله . قيل أن لها سر كبير في إزاحة الهم .

__ " مصطفى . "

__ " "

__ " مصطفى . تعال بدني أحكيك . "

" ماما .. مصطفى نايم مغمض عيونه . "

خَطَّت سلام على مهل إلى غرفة نوم الأولاد . كان مصطفى راقد في فراشه و قد غطى رأسه كله . أزاحت الغطاء بلطف عن رأس ولدها و مسحت على جبينه . كانت تعرف أنه يقظ . كان جفناه يرتعشان, و أهدابه مبللة بدمعة تترقرق ما لبثت أن شقت طريقها إلى وجنته المتوردة بحمرة الغضب .

" مصطفى . "

" "

" مصطفى تذكر يوم اللي طلنا من بيتنا و تعطلت فينا السيارة و دخلنا بيت على الطريق . قضينا الليل عند ناس ما نعرفهم و كل الليل و نحن نسمع صوت الرصاص و القصف حتى طلع الضو . تذكر . "

" "

" تذكر ليلتها شو قتلتك ؟ "

" أذكر ماما . قتلتي أنه لما تطلع الشمس رح نكمل طريقنا و نوصل للمطار و نجي عند بابا إذا الله أراد. "

" و أنت وين هلاء ؟ "

" "

" و هلاء أنا بقلك أي رح أشتريك البوط اللي بدك اياه يوم السبت إذا الله أراد . تصدقتي ؟ "

" بصدقك ماما .. بس انت قلتي انك رح تجيبه السبت الماضي و ما جبتيه . "

" أنا أقول إذا الله أراد . تعال معي للمطبخ . "

" ما بدني أتعشى . "

" ما بدني أعشيك . تعال... شوف . افتح البراد ... شوف هاي البندورة , مكتوب عليها من الأردن . و هاد البرتقال من مصر . اقرأ هون على الجبنة من وين هاي ؟ "

" مكتوب عليها من فرانس . ليش ماما ؟ "

" طيب و زيت الزيتون هون شو مكتوب عليه ؟ "

" من اسبانيا .. ؟ "

" كيف وصلت كل هاي الأشياء عنا ؟ "

" ما أعرف .. اشتريناها من المول . يعني هم جابوها من كل مكان و باعونا اياهم . مو هيك ؟ "

" هيك .. طبعا .. بس تعرف أن هاي الأشياء من وقت اللي كانت بتتعمل كان مكتوب هي لمين رح تكون . و مين رح ياكلها . "

" ماما !.. يعني هم باسبانيا و الأردن و مصر كلهم بيعرفونا . ؟ "

" ههههه لا طبعا .. ما يعرفونا ... بس كل انسان من وقت اللي الله بيخلقه بيكتبه كل شيء رح ياخده و يحصل عليه . و هيك كل شيء الله كتبه اياه رح يجيه حتى لو هو ما بده اياه و الشئ اللي الله ما كتبه اياه ما رح ياخده حتى لو عمل المستحيل ليحصل عليه . تذكر قميص البرشا اللي أعطاك اياه ابن عمك ؟ "

" أي بس ما جنباه معنا . "

" هو طلب من خاله انه يشتريه اياه من لبنان صح ؟ "

" أي صح . "

بس لما اجى طلع صغير عليه و ما قدر يلبسه . هو في الأساس كان مكتوب الك و اجى لعندك من غير ما تطلبه . يعني لازم تصبر و تنتظر حتى يجيك اللي الله كاتبك اياه . فهمت علي مصطفى ؟ "

" فهمت ماما . بس يعني الله كتب كل شيء رح ناخده بالدنيا و كل شيء رح نعمله ؟ "

" أي . الله كتب كل شيء صار و كل شيء رح يصير . "

" اذا هيك لكن ليش الله يحاسبنا و يعذبنا اذا هو اللي كتب كل شيء رح نعمله . "

" أيوه ... تعال معي مصطفى .. شايف دفتر الرسومات هاد ؟ "

" أي هاد لجنى . "

" أيوه . شايف الرسومات اللي مو ملونة .. لسه مالونتها جنى لساها بالأبيض و الأسود ... ربنا رسم لكل انسان لوحة حياته . وكل انسان يلون لوحته بطريقته . ربنا رح يحاسبنا كيف رح نلون حياتنا . بألوان حلوة و لا بألوان بشعة و مشخبرة و لا نخلي لوحتنا نضيفة و لا نخليها وسخة . و لما نخلص و نرجع عند ربنا رح يشوف لوحة كل واحد فينا و اللي لوحته حلوة ربنا هيكون راضي عنه . يعني نلون لوحتنا بالصبر و الشكر و الفهم و العمل و هيك . هلاء اذا ربنا ما أعطاك البوط اللي انت بدك اياه بتصبر حتى الله يعطيك . و إذا أعطاك اياه إما انك تحافظ عليه و تخليه نضيف و تحمد الله على النعمة و الله يرضى عنك , أو انك تتركه و تسخ و تضرب فيه الحجارة و تتلفه و هيك الله ما بيرضى . عرفت هلاء على شو بيحاسبنا الله . "

" طيب .. و إذا كان بلوحتي في وحش شو بلونه .. ؟ "

" ممم , ما أعرف . "

" كيف ما تعرفي ؟ مو انت ماما ؟ "

" أي .. بس ما أعرف كل شيء بالدنيا .. يعني ما أعرف . تلونه مثل ما تريد بس يعني ما أعرف . "

" طيب أتركه و ما لونه .. بس .. يعني رح تجيبلي البوط يوم السبت ؟ "

" آآآآآهه ... قول بإذن الله .. يالله الوقت تأخر ما عاد نتعشى هلاء . بكرة الصبح منفطر بإذن الله . هات بوسة و على سريرك يا الله . تقول لماما تصبحي على خير ؟ "

" تصبحي على خير ماما . "

عندما كانت سلام تخاطب ولدا انتابها احساس غريب بأن الكلام الذي كانت تقوله كان يخرج من شخص آخر لا تعرفه . شخص مختبئ في بقعة ما من نفسها , يخرج من حين لآخر ليفاجئها بكلمات لم تكن تدر أنها تعرفها و أنها كانت معها هنا في أعماق ضميرها كل هذا الوقت . بدأت تعيد في نفسها الكلام الذي كانت تقوله لابنها . لم تجد مهربا من توجيه السؤال إلى نفسها . كيف كانت تلون لوحة حياتها كل تلك الأيام . ترى هل يكون الله راضيا عن لوحتها ؟ و ما ذا عن راتب ؟ بأي لون لونت وجوده في لوحتها ؟ سؤال ليس من السهل الاجابة عليه الان و راتب غائب لا تدري في أي مكان من الأرض يكون و في أي وقت يعود؟ لو قدر له أن يعود .

حكّت جبينها بظفرها و أزاحت خصلة انحدرت على وجهها . ألمها خدش الظفر الحاد على جلدها . رفعت يدها أمام وجهها تتأملها . تبدو أظافرها أطول من المعتاد . مررت يدها في شعرها . علقّت أصابعها في الخصلات المتشابكة . تحسست ساقها بأصابعها . تذكرت يوم السبت الماضي . لقد مرّ عليها من غير أن تفعل شيئا مما اعتادت فعله في ذلك اليوم .

يوم السبت تخصصه عادةً للعناية بنفسها . بعد أن تنتهي من تنظيف البيت و تنهي واجبات الأولاد , تقوم بغمر شعرها بخليط زيوت متنوعة لساعة من الزمن . تمسح وجهها أثناء ذلك بقليل من الليمون ثم تشطفه و تدلكه بالعسل و بياض البيض لأجل نضارة و حيوية وجدت فائدتها في ذلك الخليط . ثم تقوم بصنع عجينة السكر مع الليمون و بضع قطرات من الزيت تزيل بها الشعر الزائد من أنحاء جسدها . و في النهاية تغمر قدميها بماء ساخن تضيف إليه الكربونات مع الخل لتطرية الكعبين ثم تقوم بدلكهما بمبرد ناعم . و بعد الحمام تدلكهما بزيت حوز الهند ثم تختم كل تلك الطقوس بتدريم أظافر يديها و قدميها و بردهما ليظهرا بشيء من الاستدارة و التشذيب . كل ذلك لا يأخذ من وقتها أكثر من ساعة و نصف تجلس بعدها مغمورة بالانتعاش و النظافة تجلها راحة اللافتندر , المفضلة لديها , بإحساس الأميرات .

هذا السبت لم تفعل شيئا من ذلك . غياب راتب أذهلها عن نفسها و عن عاداتها التي لم تتخل عنها لسنوات . ترى هل كانت تفعل كل ذلك لأجله ؟ تعرف أن ذلك كان يسعده كثيرا , و لكنها تترك في أعماق نفسها أنها لم تك تفعل أيا من تلك الأشياء خصيصا لتسعده . تعرف أنها امرأة تحب نفسها و تحب أن تدلل نفسها قدر ما تستطيع لأن ذلك يشعرها بالرضى و السعادة . و لكن , إذا لم يعد راتب , هل تراها ستقوم بأي من تلك الأشياء في السبت القادم ؟ هل ستكون قادرة على متابعة حياتها كما السابق ؟

و كأن السؤال كان أثقل من أن يحمله رأسها المنهك . رجعت إلى الوراء لتستلقي على الأريكة مسندة رأسها إلى الوسادة الكبيرة علها تحمل عنها شيئا مما بدأ يثقلها ويبدو أنه سيعيد تشكيلها في هيئة لم يخطر لها أنها ستكون عليها في يوم من الأيام .

قط و حمامة

. جحافل الغيوم تبسط خلكتها على الفضاء . ليس ثمة شعاع نجم خافت يكسر حدة العتمة الممتدة بلا حدود . ظلمات بعضها فوق بعض . حتى القمر يبدو أنه لم يجراً على شق حجب الظلام و إلقاء نظرة خجولة على أهل الأرض ليأنسهم ببعض ضياء يزيح عن نفوسهم المتعبة ضباب الحيرة و القلق .

كم هي بعيدة السماء ! مدّ بصره للأعلى و لوهلة أحس أنها أخذت تدنو منه حتى لتكاد تلامس رأسه . بسط يديه . لو كان بإمكانه أن يمتطي سحابة راحلة ليطوف العالم بها ثم ينهمر في مكان ما غيثا يتغلغل في الأرض و يختفي في الرمال . مدّ يديه قدر ما استطاع . ليس هناك سوى الفراغ . ترى ؟ هل يأبه حقا أهل السماء لأولئك الذين تعجبوا من خلق الله لهم في الأرض ؟ مع أنهم لم يعرفوا لماذا جعل الله على تلك البسيطة من يفسد فيها و يسفك الدماء و هم يسبحون بحمد الله و يقدسون له . لم يعرفوا . و لا أحد يعرف سوى الله . هو أيضا لا يعرف لماذا تعاني نفسه التي تحمل نفخة من روح الله كل هذا الألم . و لماذا أصبح كل شيء فجأة عصيا و شاقا و مبهما كسواد تلك السماء الممتدة فوق رأسه بلا نهاية .

تناول عبايته و لباسه عن الحبل . الملابس مشبعة برائحة الغبار و مليئة ببقع بنية و كأنها مسحت بالأرض . تبدو العاصفة و كأنها تحشد قواتها لتعاود الزحف من جديد . هبات من كل صوب تلفح وجهه بهواء بارد محمل بالغبار . حمل ملابسه و عاد إلى الغرفة . أحس بنفسه يضيق فجأة . ثمة فرق شاسع بين الداخل الضيق و الخارج الواسع الفسيح .

اندفع خارجا إلى السطح من جديد . أخذ شهيقا طويلا حبسه في صدره حتى ضاق به . فتح فمه و ترك أنفاسه تخرج على مهل . شعر بشيء من مخاوفه يتسلل خارجا منطلقا مع الزفير الذي عانق الهواء و تلاشى في الفضاء .

لماذا يحبس نفسه في ذلك المكان الضيق و يترك كل هذا الاتساع المتاح للجميع بلا حدود . ألم يكن الانبياء و الصالحون يتأملون في السماء فيجدون راحتهم و سكينتهم في اتساعها . سحب نفسا طويلا مرة أخرى . حبسه مدة أطول ثم نفثه على مهل . شعر براحة أكبر . ربما تكون هذه طريقة أجدى ليخلي ساحة نفسه من كل الشوائب التي تشوشها .

أي وقت من الليل هذا ترى ؟

أظنّ من حافة السطح و طاف ببصره على العالم المحيط به . المكان يلفه السكون إلا من بضع سيارات تعبر الطريق . عمال منهكون يجرون أقدامهم إلى بيوتهم ليحظوا بقليل من السكينة قبل أن يعودوا إلى مضمار السبق . الأبنية العالية تصطف جنبا إلى جنب كعمالقة تترصد هجوما وشيكا . شبابيك البيوت معتمة . الناس غارقون في أحلامهم أو كوابيسهم , كل نفس عالم يدور في عالم لا يعلم ما به إلا خالقه . و هو هنا يقف عاليا لا يعلم به أحد إلا الذي بسط فوقه السماء .

تنبّه لحركة ما خلف خزانات الماء أو ربما بين أعمدة هوائيات التلفزيونات . تمعن في الظلام . لم ير شيئا . ربما يكون جرذا أو قطة أو أي مخلوق تمر رحلته الآن من هذا المكان , حيث توقف هو فجأة ليلتقط أنفاسه خارج المضمار الذي يلهث فيه منذ سنوات . عاد الصوت أعلى , صوت أشبه بخفق أجنحة طائر يحاول الافلات من شباك مصيدة .

تلفّت حوله , لا يبدو له أي ذي روح يشاركه خلوته . لعله صوت الريح يصفر بين كتل الحديد الرابض على أرض السطح . أنفاس لاهثة تحرق السكون . على بعد خطوات تتوهج نقطتان في حلقة الظلام . أحسّ بقلبه يغور في صدره . أمعن النظر في اتجاه النقطتين المتوهجتين , تبين بالكاد سوادا يتماوج في الظلام . شق السواد بياض نابين يلمعان . يتكشف المشهد شيئا فشيئا . قطّ شديد السواد يكشر عن أنيابه و ينفث لاهثا مترصدا فريسة في مكان ما . أمعن النظر بالاتجاه الذي يحدق فيه القط الجائع . بين خزائين متجاورين حمامة كبيرة تعلو و تهبط فوق عش يرقد على المواسير يخرج منه رأس فرخ صغير

لم يبرز ريشه بعد . الحمامة المذعورة تخفق بجناحيها فوق العش الصغير و القط يموء هادرا مكشرا عن أنياب حادة بينما عيناها تتوهجان بشرر الجوع .

خبط راتب قدمه على الأرض . ازداد مواء القط شراسة حتى بدا و كأنه يزمجر متوعدا هذا الذي يحول بينه و بين وليمته بشر . الذعر يخفق عن جنب و الجوع ينفث عن جنب آخر و هو بينهما يحدق في الظلام تلفح جسده العاري برودة الريح و تلسعه الرمال المتطايرة مع الهواء . لا يريد أن يؤدي القط و لا يريد أن يدع الفرخ العاجز يهلك أمام أمه .

تقدم بين الخزانين و مدّ يده محاولا الوصول إلى العش ليتناوله . من أجل أن يدخله الغرفة و ينقذه من مخالب القط الشرس ريثما يطلع النهار و تحمله أمه إلى مكان آمن .

الحمامة تطير مبتعدة عن العش و تعود مسرعة لتخبط بجناحيها أمام وجهه . تتعثر قدمه بالمواسير . يحاول الرجوع للخلف , يشدّ قدمه فتعلق بأشياء لا يتبينها في الظلام . يسحبها بقوة فيشعر وكأن شيئا حاداً اخترق جلده . شيء حار و لزج يسيل فوق قدمه . يتكئ على جدار الخزان و يتراجع للوراء . لعل الحمامة خشيت على فرخها منه . و مازال القط متمسرا في مكانه ينفث جوعه متأهبا للانقضاض على فريسته .

انحنى بين الخزانين يتلمس بيده موضع الفرخ بين المواسير . الحمامة تخبط بجناحيها فوق رأسه و القط الجائع ينفث مزمجرا من ورائه . تحسس بكفه أعوادا من القش يتكوم فوقها قطعة من اللحم الطري يكسوها الوبر . حاول امسكه بيده , ملمس العظام الصغيرة بين أصابعه أصابته بالقشعريرة . فأفلت الفرخ من يده . عاد يتلمس مكانه بين المواسير . يخشى أن يضغظ عليه فيزهقه . لامست أصابعه زغبا ناعما , عاودته القشعريرة و لكنه تغلب عليها و أطبق أصابعه بحذر على المخلوق المذعور و حمله بلطف إلى أعلى . أراد أن يضعه أمام أمه لترى أن فرخها سليم و لن يتعرض للأذى و لكنها لا تهدئ , تضرب بجناحيها ضربات طائشة لا تدع له مجالا للحركة . القط يضرب الأرض بمخالبه و كأنه يستعد للانقضاض عليه و تخليص فريسته من قبضته . سحب قدمه بهدوء من بين المواسير و أخذ ينقل الخطى على قدم واحدة متكنا على أصابع قدمه الجريحة ليصل إلى الغرفة . أغلق الباب وراءه . وضع الفرخ المرتجف في صحن على طرف الحوض و وضع له بعضا من فتات الخبز المتبقي في الكيس . توجه إلى الحمام ليرى الجرح الذي يلهب قدمه كجمرة مشتعلة . تحت الضوء شاهد ثلما مفتوحا بطول اصبع في جانب قدمه اليسرى يسيل منه الدم بلا توقف . وضع قدمه تحت الماء فتلون الماء السارح في الحوض باللون الأحمر . وقف مشدوها يتأمل دمه ينساب من قدمه و يختفي في فتحة التصريف . تنبه فجأة لدوار يطوف برأسه , أحس بغلابة رمادية أشبه بسحابة دخان تغطي بصره . فرك عينيه بكفيه و سحب قدمه النازفة من تحت الماء . تناول الفانيلة القطنية التي أحضرها عن الحبل قبل قليل و لف بها قدمه الجريحة . ربط كميّ القميص حول قدمه من أجل أن يغلق الجرح . تسرب من القماش الأبيض بضع خطوط حمراء سرت في خيوط القماش كشبكة العنكبوت . شد الرباط بقوة أكثر . أحس بألم كبير يثقل قدمه . ترى هل يصيب المعدن قدمه بالتلوث و يعطبها . هل يمكن أن يفقد قدمه بسبب فرخ صغير أراد أن ينقذه من هراً جائع لا يريد سوى أن يسد رمقه ؟ لماذا يتدخل في نظام العالم ؟ لم يفعل القط شيئا سوى أنه تبع غريزته . لم لم يدعه و شأنه ؟

عرج بقدمه الملفوفة بالقطن إلى نافذة الغرفة . تبين من خلف الزجاج القط الأسود يدور حول نفسه و يموء بألم . أين سيجد ما يسكت جوعه الآن بعد أن حرمه من طعامه ؟ الحمامة تخبط بجناحيها على النافذة تحاول الدخول للوصول الى فرخها , هديلها أشبه بأنين ثكلى . كيف لها أن تعرف أن ابنها بأمان

. يحدث أحيانا أن نعجز عن تحديد ما إذا كانت اليد الممدودة لنا تمتد لتدفعنا أم تساعدنا على النهوض . وكيف لنا أن نعرف قبل أن نأخذها و ندعها تصل إلينا لنندرك ما تريد .

و ذلك القط لم يفعل شيئا غير معقول . كان يبحث عن طعامه و وجده . هكذا هي الحياة فرانس و مفترسين و ما بينهما متفرجين , يشاهدون فيصفقون أو يذرفون الدموع و كلهم سواء . لماذا تدخل في مسيرة الحياة الآن . ربما لا يجد ذلك القط طعاما يبقي على حياته غير هذا الفرخ . ربما يموت جوعا . هل هناك حياة أتمن من حياة ؟ من الذي يحدد من يبقى و من يموت ؟ هل ما فعله سيغير شيئا من حقيقة الحياة و الموت . لا شيء يتغير . التفت الى الفرخ الذي يرتعش في الصحن يحاول الوصول إلى الطعام . وضع شيئا من فتات الخبز على اصبعه و قربه من منقاره . تناوله الطير الصغير و دس رأسه بين جناحيه . ربت على جسده الغض الضعيف . غدا سيخرجه و يعيده إلى أمه .

صوت آذان يشق سكون الليل . لا بد أنه آذان افجر . ربما يكون ثاني آذان فجر يسمعه هنا . تشتد ظلمة السماء و يشق الظلام فجأة لمع برق بين السحب يتبعه صوت رعد قوي . لم يعهد في هذه البلاد رعدا و بروقا من قبل . كل شيء يتغير . حتى حالات السماء . سيصلي الفجر الآن و ينتظر النهار ليفكر بما سيفعل بعد ثلاثة أيام في الخارج .

اليوم الرابع:

الباب

تدرك أنها نائمة و تدرك في نومها أنها تحلم , أنها تسير في حلمها . يسيرها هاجس باب البيت . ألقى في روعها أن باب بيتها مفتوح . تتلمس طريقها بيديها , عيناها مغمضتان . تقع يداها على فراغ . الباب مفتوح !!! تشهق بهلع, تشعر بقلبها يسيل بين ضلوعها و ينهمر بين حناياها قطرات وجل تنبت حشائش رعب وحشية تسري في عروقها و تندفع من مسامها لتلّفها بشباك واخزة . تسري البرودة في أطرافها و تحس بشعر جسدها يستنفر متأهبا لاستقبال أمواج الرعب التي علا هديرها في أذنها . تكمل طريقها و هي تتحس الجدران . تريد الوصول إلى الباب . الظلام شديد . لا شيء يمكن رؤيته و لكن هاجسها الباب . تتعثر , تنحني , تنهض متكئة على شيء ما تحت يدها و تتابع . ترتطم يداها بشيء صقيل , شيء صلب و متين . تتحسس موضع القفل , المزلاجين , قبضة الباب , كل شيء في مكانه . الباب موجود , الباب مغلق . تزفر تنهيدة طويلة تطرح معها كل الخوف و القلق و تهب قائمة . تسترجع صور الحلم . تبسمل و تهلل , و تحمد الله . تطمنن نفسها .

" باب البيت هو الزوج . باب بيتها في مكانه , باب بيتها مغلق و آمن . سيعود راتب . سيعود بإذن الله . "

الصبح يتنفس , تتمطى أذرع الضياء و تبسط نورها على استحياء . تتوق لهواء طبيعي غير هواء المكيف المشبع برائحة رطوبة المعدن . تقترب من باب الشرفة . الفضاء أمامها كله أبيض . الرؤية محجوبة تماما , كأنها انتقلت فجأة إلى مملكة الغمام البعيدة عن الأرض . أخذت شهيقا عميقا و ربتت على جبينها بأطراف أناملها لثواني ثم طافت على وجهها بحركات دائرية توقظ أعصابه ليستقبل نهارا جديدا بحيوية و همة . مازال الحلم يطوف في بالها مُشيعاً في نفسها احساسا بالاستبشار و التفاؤل .

تُسبغ الوضوء و تترك شيئا من مائه على وجهها و ذراعيها رجاء رطوبة منعشة . استقبلت القبلة و شرعت في تلاوة هادئة تلاها ركوع و سجود مطمئن . سلّمت عن يمينها و شمالها و بدأت تعد التسبيحات على أصابعها . شعرت بشوق مفاجئ غمر قلبها فهوت إلى موقع سجودها و ألصقت جبهتها بالأرض . أغمضت عينيها و سكنت في صمت تستشعر أمان السكينة . تطوف بخاطرها سماء صافية تتهادى فيها غيوم بيضاء تقطر ظلًا يهمني فوق أرض عطشى تستقبله بحمد و امتنان . انفصلت عن العالم لثوانٍ قليلة , شعرت أن أثقالها كلها تسربت منها و غارت في الأرض بعيدا لتتركها خفيفة رائقة كقطرات ندى صباحي على بتلات براعم غضة .

تُدوي في سكون الصمت صرخة فزع ترتعش لها أوصالها و تهب قائمة على قدميها تتلفت حولها بهلع . ابنتها جنى تقف بباب الصالة دموعها تبلل وجهها و هي ترتجف . ركضت و احتضنت ابنتها بخوف و هي تردد " بسم الله . بسم الله . "

- " شو فيكي يا ماما .. بس .. الله عليكى . شو شفتي ؟ "
- تعلقت جنى بأمها و هي تكاد تلتصق بها و كأنها تخشى أن تهرب منها . لم تفلح لمسات سلام الحانية في انهاء نوبة البكاء التي عصفت بطفلتها فجعلتها تشرق بدموعها و هي ترتجف في حضنها.
- " تعالي جنى اشربي شوي مي .. بسم الله يا أمي .. قولي بسم الله . يا الله اهدي حبيبتي .. شو في ليش تبكي يا ماما ؟ "
- " ماما .. أنا كنت بدي أدخل الحمام شفتك بتصلي . أنا ناديتك ثلاث مرات .. و ما رديتي علي .. فكرتك ميته .. خفت كثير .. "
- " حبيبتي ماما .. أنا هون عم حكيكي .. لا تخافي .. "
- " شو في ماما ؟ ليش جنى تبكي .. صحيتوني لسه بكير .. ماما .. شو فيها جنى؟ "
- " ما فيها شي كانت خايفة شوي و هلاء منيحة . ارجع نام . "
- " ماما و انت تصلي أنا ناديتك و انت ما رديتي علي . أنا قلت ماما ماما ماما و انت ما قمتي .. "
- " ما سمعتك يا أمي .. يمكن كان صوتك واطي و ما سمعتك .. "
- " أنا خفت كثير . فكرت ما في بابا و ما في ماما كمان . "
- " لا يا روجي الله يخليك بابا و ماما .. يا قلبي انت لا عاد تبكي .. خلص .. طيب يعني لو انه أنا كنت متت انت شو كنت رح تعملي ؟ "
- " كنت بدي أفتح الباب و أنزل الشارع .. "
- " و شو تعملي بالشارع يا ماما ؟ "
- " ما بعرف ... هيك أركض .. ما أعرف . "
- " تعالي حبيبتي .. تعرفي يا جنى .. انت هلاء قديش عمرك ؟ "
- " ست سنين . "
- " صح .. و قبل ست سنين وين كنتِ . ؟ "
- " كنت ببطنك . و بعدين طلعت . "
- " أي صح ... و قبل ما تكوني ببطني وين كنت ؟ "
- " أي ما بعرف وين كنت .. ما كنت محل ... وين كنت ؟ "
- " كلنا كنا عند ربنا قبل ما نجي عالدينا . و لما منجي منعيش العمر اللي الله كتبنا اياه . ناس بتعيش تسعين و ناس خمسين و ناس بتعيش سنة وحدة ما حدا بيعرف كل انسان شو بيعيش و لما بيخلص عمرنا منرجع لعند الله . صح ؟ "
- " شو منعمل عند الله ماما ؟ "

- " طيب ... هو مع الشاكرية بيعملو رز أبيض . بس أنا رح أعملك اياه بشعيرية . تكرم عينك . "
- " ماما .. يعني هي الشاكرية بتزعل اذا عملناها الرز بشعيرية .. ؟ "
- " ههههه لا ما تزعل . "
- " طيب و بابا كيف يحبه ؟ "
- " بيحبه بشعيرية . "
- " طيب .. لكن منعمله بشعيرية مشان اذا اجى بابا بينبسط . "
- " ان شاء الله كلنا منبسط .. يا الله بسم الله . "

جوار

- ذرات الرمال الناعمة تملأ الأجواء تخنق الأنفاس و تحجب الرؤية. أرض الملعب مغطاة بالأتربة . الجو لا يصلح للتدريب . كانت سلام تراقب الأجواء من خلف زجاج باب الممر المؤدي إلى فسحة الملعب . التفقت إلى البنات المتحلقين خلفها .
- " التدريب غير ممكن اليوم . سنعود إلى القاعة . يا الله بنات كلميني دقيقة جودي لو سمحت . بنات انتظرونا في القاعة لو سمحتم دفاق . "
- " نعم مس سلام . "
- " جودي .. بدي أفهم شو يصير بين البنات . ممكن تشرحيلي ؟ "
- " مس .. هادية بتقول عن تمارا انها " ليزبيان " .. في بنات بيقولوا هي حرة يعني ما حدا اله عندها شي بس هادية ما تحبها و بتقول انها اذا بتلعب رح نخسر و هيك ما بدها تكون بالفريق . "
- " ماشي جودي .. اسبقيني للقاعة . "
- شعرت سلام بموجة حارة تندفع من أخصص قدميها و تنفذ من مسام رأسها جاعلة بصلات شعرها تنتصب تحت غطائها كأشواك ناعمة . لم يكن أمرا عاديا بالنسبة لها أن تخوض بأمر كهذا مع بنات مراهقات يندفعن للتعبير عن وجهة نظرهن كعاصفة ثائرة . لقد قلبت الأمر في نفسها مرات كثيرة من قبل حتى استطاعت رسم صورة واضحة عن هذا الموضوع و كيف تتعامل مع حالات كهذه لكنها لم تتحدث صراحة و علنا مع أي انسان في هكذا شأن . لطالما كان الكلام في أي أمر يحوم حول حدود الجسد يعتبر أمرا محرما يفضل الجميع السكوت عنه و إخفاءه في غياهب الستر و الكتمان و تركه راقدا في الظلام حتى ينمو كفطر عملاق و يتضخم بنفسه ليجدوه أمامهم حقيقة ماثلة يعجزون عن التعامل معها بحكمة و وضوح . حاولت في سرها استحضار فكرة ما تجعل الأمر سهلا و مقبولا , ولكنها لم تفلح في تصور معنى يعبر عما يجول في خاطرها . كبحت خوفها بهمس بسملة تمنى معها أن لا تفسد حيث تريد أن تصلح .

- " سلام بنات .. شايقين الجو مو مناسب للتدريب .. هنشوف فيديو لشوط واحد من مباراة كرة سلة لفريق بنات و نسجل ملاحظاتنا . و بكرة باذن الله اذا كان الجو مناسب نعمل مباراة تحضيرية . أوكي ؟ "
- " أوكي مس . "
- " طيب ... قبل ما نشوف الفيديو .. أنا حابة أخبركم عن معلومة غريبة قرأتها امبارح على النت . "
- " ايش هي مس . ما عاد في شي غريب . "
- " المعلومة بتقول انه في عصور الظلام بأوروبا كانوا يحرقوا المريض المصاب بالجذام بدل ما يعالجوه . تتصوروا حدا يعمل هيك ؟ "
- " مس ! ليش ما تحكي بصراحة عن الليزيان ؟ احنا عارفين انه جودي خبرتك . "
- " أيوه .. انتو مستعدين نتناقش بهدوء من غير انفعال ؟ "
- " أي مس .. عادي .. الكل بيحكوا بالموضوع يعني . "
- " طيب . شو رأيكم بالموضوع ؟ "
- " رأينا أنه شذوذ و شي مقرف و اللي تكون هيك بدها حرق . "
- " لا مس .. ما هو شي مقرف .. هاي طبيعة بيخلق الانسان عليها . هيك الله بعته عالدينا يعني شو ذنبه . ؟ "
- " أي مس .. بيقلوا انه خلل هرموني ماله ذنب الانسان فيه يعني لازم نقبله و نرضى فيه لأنه مو ب إيد الانسان انه يكون هيك أو ما يكون . "
- " طيب بنات .. مع أنه العلم ما قدر حتى الآن يحدد سبب هاي الظاهرة بس مع هيك خلينا نفترض أنه خلل هرموني و نناقش الفكرة على هالأساس . اتفقنا ؟ "
- " ماشي مس سلام . اتفقنا . "
- كتبت سلام على اللوح الأبيض عبارة " خلل هرموني " و أحاطت كلمة خلل بدائرة . التفتت إلى الطالبات المتحفرات للنقاش .
- " ما معنى " خلل " ؟ "
- " مس .. خلل يعني غلط .. "
- " يعني خطأ .. شي ما بيشتغل صح . صح ؟ "
- " صح مس . "
- " طيب .. خلينا نفترض انه هاي الطاولة فيها خلل . شو رأيكم . إذا حرقتها , خسرتها . و إذا تركتها على حالها ما أستفيد منها . شو برأيكم نعمل فيها ؟ "
- " مس .. ممكن نصلحها . و نستفيد منها . "

__ " لا مس , مو ضروري .. التنظيم أحيانا بيعقد الحياة .. "

__ " بنات خلوني أخبركم شغلة . تعرفوا أن كل عمل يقوم فيه الانسان أصله فكرة , و الفكرة أصلها خاطر بيخطر على النفس ممكن الانسان يقبله أو يرفضه . إذا قبله رح يستقر بنفسه ويوجه سلوكه و إذا رفضه ما يكون له أثر عليه . "

__ " مس .. و من وين يجي خاطر ؟ "

__ " من الأشياء اللي حولنا . الأشياء اللي نشوفها و نسمعها . "

__ " مس . مين بيقدر يتحكم بالأشياء اللي يشوفها و يسمعها . ما أحد يختار كل شي يشوفه و يسمعه . "

__ " صح .. لهيك لازم نفكر بكل شيء منشوفه و نسمعه و نحدد إذا كان صح و لا غلط قبل ما يستقر بنفسنا و يصير يوجهنا من غير ما ندرك هاد الشيء و ما عاد نقدر نغيره . انتو تعرفوا طواحين الهوا ؟ "

__ " أي مس نعرفها . وند مل , اللي حاربها دون كيخوت . مو هي ؟ "

__ " ههههههههه . "

__ " أي صح هي . بس بتعرفوا بنات ان نفس الانسان تشبه هاي الطاحون . كل الوقت بتدور و ما بتوقف أبدا حتى و نحنا نايمين هي بتدور و بتطحن . "

__ " و شو تطحن مس ؟ طحين ؟ ههههه . "

__ " بتطحن الأشياء اللي نخطها فيها . إذا حطينا فيها قمح رح تعطينا طحين و إذا حطينا فيها رمل رح تعطينا غبرة و وسخ . إذا حطينا فيها أفكار حلوة رح تعطينا أعمال حلوة و إذا حطينا فيها أفكار سيئة و سلبية رح تعطينا سلوك غلط و سيء . من فترة قرأت على الفاييس قول عجبني كثير . الموقع اسمه ,

" collective evolution "

بيقول :

"your mind is the garden < your thoughts are the seeds > You can grow flowers
< you can grow weeds . "

عقلك حديقة و أفكارك البذور . يمكنك أن تزرع أعشابا ضارة أو زهور "

شو رأيكم بهالكلام ؟

__ " صحيح مس . بس الانسان مش بس أفكار كمان في عنده مشاعر و أحاسيس بتحركه أحيانا يعني هو مو آلة الها أزرار ببيشغلها مثل ما يحب . "

__ " صح . و لهيك لازم يعرف يتحكم بمشاعره حتى هو يسيّرها و مو هي اللي تسيّره . تعرفوا بنات أفضل شي الرياضة . الرياضة بتصرف كل المشاعر السلبية من النفس و بتخلي الانسان خفيف و منفتح و ايجابي . الرياضة لازم تكون جزء أساسي و مهم من حياة كل واحدة فينا . إذا مارسنا الرياضة صح رح نقدر نتحكم بمشاعرنا و طاقتنا بشكل صحيح . يعني لما أكون لحالي و يجيني خاطر بيحرك مشاعري

نهض من رقاده و نقل خطى عرجاء الى الفرخ الصغير . ربما يحن إلى أمه . هل تعرف هذه المخلوقات الحنين ؟ أم أنها الغريزة و الحاجة للآخر هي التي تربطهم ببعضهم .؟ تبدو أمه الحمامة الكبيرة ملتصقة بحافة النافذة تستطلع حالة فرخها و تهدل بصوت كسير . كيف يمكن أن يسبب لها كل هذا الألم و هو يريد اسعادها ؟ لا يمكنها أن تفهم ذلك . لا أحد يفهم إلا ما يراه و يسمعه .

اقترب من النافذة و فتحها قليلا ليفسح للحمامة الأم متسعا للدخول و رؤية فرخها . تطير الحمامة خائفة . يبتعد عن النافذة و يجلس على حافة السرير يرقب المشهد . تعود الحمامة و تقترب من النافذة . تدخل منها و تطير لتحط على طرف الحوض قرب الصحن حيث يزقزق فرخها بفرح .

هل يفترقه أولاده هكذا يا ترى ؟ أم أن أهمهم تعوضهم عن غيابه ؟ لظالما كان يغيب شهورا طويلة و كل شيء يسير على أحسن حال في غيابه . لم تشكو سلام من غيابه في أي مرة . لم تطلب منه أن يترك العمل و يعود إلى البلد و لا حتى أن يأخذهم معه ليعيشوا معا . كانت سلام مرتاحة لغيابه . لم تكن تحتاجه في شيء . سلام تتدبر أمرها جيدا .

ترك الحمامة و فرخها على الحوض و أخذ عبايته المتسخة إلى الحمام . تحتاج للغسل مرة أخرى . أثر حبل الغسيل المحمل بالأتربة رسم عليها خطا بنيا محمرا و بقعا متناثرة على أطرافها . لم يعتد ارتداء لباس متسخ . رمى بها في حوض الاستحمام و فتح فوقها الماء . أخذ يفركها بيديه . ألمه و خز الجرح في قدمه . ربما يحتاج للتطهير . أو لضمادة معقمة تساعده على الالتئام .

عندما تهدأ العاصفة غدا ، ستكون عبايته قد جفت . و تكون قدمه قد التأمت . سيرتدي لباسه و يعود إلى بيته . يبدو أن لديه متسع من الوقت . كيف سيجعل كل هذا الوقت يمضي ؟. أم انه سيمضي على كل حال . الوقت لا يتوقف . و لكن هل الزمان هو الذي يسير إلينا أم نحن الذين نسير إليه ؟ . هل هو الذي يرد علينا أم نحن الذين نرد عليه ؟

قالت له سلام مرة أن الزمن ثابت و الانسان هو الذي يسير إليه . قالت أن الزمن موجود قبلنا و نحن الذين نسير إليه في كل ثانية تمر علينا . و أن كل ما يحدث لنا مرسوم و نحن نكتشفه عندما نصل إليه . مثل راكب السيارة يظن أن أشجار الطريق تولي هاربة و هي في الحقيقة ثابتة في مكانها و هو الذي يمر عليها و يتجاوزها ماضيا في رحلته . قرأت سلام ذلك في كتاب اسمه " خوارق اللاشعور " . أعطته الكتاب قبل أن يسافر و رجته أن يقرأه . و لكنه تركه في حقيبة الملابس حتى أعاده معه في الرحلة التالية .

لا يشعر برغبة في القراءة . لا يشعر أن هناك شيئا سيغير مسيرة الحياة . سواء قرانا أم لم نقرأ كل شيء سينتهي إلى غايته . هل فهمنا للأشياء يغيرها ؟ لا يعتقد ذلك . و كذلك سلام . و لكنها تقول أن فهمنا للأشياء يغير من شعورنا بها و أن حياتنا تصبح أفضل عندما يكون شعورنا إيجابيا و مريحا . ربما تكون على صواب . هي تحب أن تراه يقرأ . قالت له مرة أنها تراه جميلا عندما يحتضن بين يديه كتاب . قال لها أنه يراها جميلة عندما تحتضنه هو و ليس الكتاب . لم يكمل الجدال . تركته يومها و أمسكت كتابا بعنوان " الكون من الذرة إلى المجرة " . مالها و الذرات و المجرات ؟ ما الذي سيوصلها إلى تلك الأماكن ؟. و لكن تعابير المتعة على وجهها جعلته يشتبه في الاطلاع على ما تقرأه . بدت له كإنسان استبد به العطش و فجأة قدم له أحدهم كأس ماء بارد فأخذ يرشفه بامتنان . عندما يعود سيقرا بعضا من كتب سلام و ربما سيحضر كتابا أخرى يجعلها تنظر له نظرة اعجاب و تقدير . كم هو رائع أن تنظر إليه سلام نظرة ملء عينيها ثم تفتت شفتاها عن ابتسامة رضى تضيء وجهها بالسعادة و الهناء .

تداعيات

بيتية المفتاح عن الباب. تتلمس موضع القفل بأطراف أصابعها . تقلب المفتاح , تدخله و تخرجه مرات ثم تدفعه بضجر و تخطو داخل البيت يتبعها طفلها المتعبان . تنتهد بإعياء . صورة راتب يتلوى بين السنة الذهب تغشى بصرها و تحجب عنها الرؤية. لم تبرح مخيلتها منذ أن تفوهت بتلك العبارة عن مرضى الجذام في أوروبا في العصور الوسطى . تلقي بحقيبتها على الأريكة فتوهي إلى الأرض و تتبعثر محتوياتها . تتأملها بدهشة . تنصت لسؤال موجه . كيف استطاعت أن تقدم النصح لغيرها فيما فرطت فيه و تركته ؟ ولكن هل هي حقا من صببت على زوجها زيت الإهمال و أحرقتة بنار التجاهل ؟

. خصمان يتخاصمان في نفسها يملأها صراخهما حيرة و ضياعا . صوت خفيض يهمس في خاطرها أنها لم تقصر في واجبه بشيء و أنها أدت كل ما عليها تجاهه و زيادة . يصيح به صوت عالٍ من أعماق ذاتها المشوشة , أنها كانت تفعل كل ذلك لترضي احساسها بالواجب . و تدفع عن ضميرها ألم اللوم على التقصير . و أن غايتها الأولى كانت أن تحافظ على هيكل قوي حسبته يحمي أسرتها الصغيرة من الضياع . و لكن هل حقا أحس راتب بذلك ؟. هل عرف أنه كان بالنسبة لها صورة لا حس لها و لا راحة . جسد بلا روح . قطعة أثاث تركنها في زاوية البيت تمسح عنها الغبار من وقت لآخر لتكمل جمال المنظر . . و أنها في وجدانها تمنت لو أن رحلتها تمضي من دونه و كأنه متاع ثقيل يرهق كاهلها في طريق الحياة الطويل . و لكن ها هو راتب خارج حياتها ثلاثة أيام الآن. لا تدري عنه شيئا . فلماذا أصبحت أكثر تعباً و كآبة . لم لا تشعر بتلك السعادة التي تخيلتها عندما كانت تتصور لوحة حياتها خالية من وجوده ؟ أم أن الخيال يغرينا بما نحسبه ماء حتى إذا جنناه وجدناه سرابا يزيدنا ظمأً على ظمأ .

لا تدر لم تملكها فجأة السأم من بروده و خموله . و لم أرادته بعد عشر سنوات من زواجهما مثالا لرجل أحلامها الذي لم تلتق به في الحقيقة . رجل يضح حيوية و حياة , كلامه يُسمع , و فعاله تُسر , يملأ عينيها و يغمرها رضى و أمانا و سلام . هل يوجد حقا هكذا رجل ؟ أم أنه خيال طواه الزمان و تركه راقدا في صفحات التاريخ البعيد

لا يمكنك أن تقطف من شجر الخوخ تفاحا . هذا ما كانت تقوله جدتها . هي عرفت منذ البداية أن القدر لم يمنحها تفاحا و لا حتى كمثرى . ولكنها رضيت بما قُسم لها و قبلت به . قرأت مرة قولاً لأينشتاين يقول " لو حكمنا على السمكة بقدرتها على التسلق لقصت عمرها كله تعتقد أنها معاقة " .. بأي ميزان عليها أن تزن راتب ؟ و لم تطلب الان منه شيئا لا يملكه ؟ لم يستيقظ في أعماقها الآن احساس بالغبن و أنها ربما كانت تستحق أفضل مما حصلت عليه ؟ و لكن متى كانت الحياة تهب لكل انسان ما يتمنى و ما يريد ؟

و قبل كل هذا. كيف يمكن لراتب أن يشعر بما أخفته في سرها, و لا يعلم ذات الصدور إلا من يطلع على مكنوناتها ؟ إلا من يقلب القلوب في كل حين **على** حال . إلا من لا يواخذ الإنسان فيما لا يملك من مشاعره و **أحاسيسه** و عواطفه .

انحنت إلى الأرض تلملم حاجاتها المبعثرة . حملت حقيبتها و وضعتها بهدوء على الطاولة . تلفتت حولها , مسحت جانب الطاولة بيدها . هناك غبار تسلل من تحت باب الشرفة و غطى الأثاث و الأرض . البيت

يحتاج إلى توضيب و ترتيب . كأنها غفلت عن روتين يومي لم تكن تغفل عنه من قبل . أزاحت غطاء رأسها و حلت عقدة شعرها . تهاوى شعرها على كتفيها كتلة واحدة . مررت أصابعها في خصلات شعرها تحررها . عقد متشابكة بين الخصلات تمنع أصابعها من الانسياب . لمت شعرها فوق رأسها في مشبك و اندفعت إلى المطبخ تسخن الغداء لأولادها وهي تنفض رأسها محاولة إسكات صخب يملأ ضميرها بألف صوت .

صور

_ " ماما .. ما بدنا نقرأ بالموسوعة . ؟ "

_ " أي حبيبي .. يا الله .. و ين وصلنا آخر مرة .. ؟ "

_ " وصلنا عند الأسماك .. و بدنا نقرأ عن الحيتان ... "

_ " طيب .. نادي جنى و تعال نقرأ كلنا سوا . "

دعوة مصطفى للقراءة أنقذتها من محاولة فاشلة للهروب من شتات أفكارها بكبوة قصيرة . لا شيء يجلي سحب الهم ويبدد الكدر مثل الانغماس في نشاط طفولي يشغل النفس عما يجهدا و يورقها .

الكتاب الورقي و الكلمة المكتوبة شيء حرصت سلام دائما على أن يكون حاضرا في حياتهم اليومية حتى الآن . أرادت بشدة أن يستشعر أولادها حميمية الورق و مودة الكلمة . عندما تمسك كتابا بين يديك تشعر بأنك تصافح الكاتب يدا بيد . تقدم له أذنك ليهمس لك برويته و إحساسه و مشاعره . تجربة أرادت سلام لأولادها اختبارها قبل أن يجرفهم طوفان الإلكترونيات ليغرقهم في صقيع الكلمة المتجمدة على شاشة باردة .

_ " ماما .. الحيتان هون مكتوب " تمضي الحيتان كل وقتها في الماء . و هي اللبونات المائية الأكثر تكيفا مع أساليب العيش في البيئة البحرية . " ماما شو يعني " اللبونات " ؟ "

_ " اللبونات هي الحيوانات التي ترضع صغارها اللبن يعني الحليب . "

_ " ماما ! الحوت بيرضع حليب ؟ "

_ " أي ماما .. و في حيوانات كثيرة بترضع مثل الانسان . "

_ " أي بس الحوت كبير كتير .. كيف بيرضع ؟ "

_ " لا ماما .. الحوت مو كبير كتير شفناه المرة الماضية في أكواريوم الشارقة لما أخذنا بابا و كان ببسبح مع السمك . "

_ " لا يا مجنونة شو أكواريوم ... الحوت بيعيش بالمحيط .. بالبحر الكبير مو بحوض السمك .. صحيح ماما ؟ "

- _ " صح مصطفى بس لا تقول لأختك هيك .. حبيبتى جنى اللي شفناهم في الأكواريوم أسماك . في أسماك كبيرة بس الحوت أكبر يعني ما بيعيش بالحوض . "
- _ " ماما خلينا نشوف الصور تبع الأكواريوم مع البابا . "
- _ " ماشي نخلص قراءة و نشوفهم . يا الله مصطفى.. كمل . "
- _ " تعيش معظم الحيتان في زمر و جماعات و هي كباقي اللبونات مضطرة إلى الخروج إلى سطح الماء من حين لآخر للتنفس , حيث تزفر من الرنتين الهواء الدافئ المستنفذ عبر ثقب النفخ أو المنخر في أعلى الجمجمة . و تكاثف بخار الماء في الهواء المزفور عند ملامسته هواء الجو البارد يجعله يبدو عن بعد كنافورة ماء . و تستطيع الحيتان البقاء تحت الماء حوالي خمسة عشرة دقيقة , لكن الحيتان الكبار قد تظل تحت الماء حوالي ثلاثة أرباع الساعة . .. ماما كيف يعني " يبدو عن بعد كنافورة ؟ يعني هي مو نافورة مثل اللي نشوفها في الأفلام ؟ "
- _ " لا الكتاب بيقول انها " تبدو " يعني نحنا نشوفها هيك بس لو كنا قريبين من الحوت يمكن ما يكون هيك شكلها . "
- _ " أيوه .. يعني في أشياء منشوفها غير ما هي بتكون حقيقة ؟ "
- _ " طبعا .. حسب البعد عن المنظر بيتغير المشهد . لما تكون قريب من الشيء غير لما تكون بعيد عنه . "
- _ " يعني إذا كنت قريب من الحوت كيف بشوف المي اللي تطلع من راسه ؟ "
- _ " ما بعرف و الله . أنا ما كنت و لا مرة قريبة من الحوت . و الكتاب ما خبرنا . "
- _ " طيب ليش ما خبرنا كيف بتكون ؟ "
- _ " يعني حبيبي . ما بعرف . الكتب مو دائما بتخبرنا كل شيء . في أشياء بدنا ندور عليها و نبحث عنها بكتب تانية . "
- _ " و لا ممكن ندخل على النت و نشوفها . "
- _ " ممكن . "
- _ تعرفي ماما .. رفيقي زبير اللي حكيتك عنه هو أمريكي و أبوه من باكستان و أمه من الصين .. عرفتيه ؟ .. قال هو السنة الجاي مو جاي على المدرسة . "
- _ " بدهم يرجعوا على أمريكا ؟ "
- _ " لا ماما . هم باقيين هون . أبوه بيشتغل هون . بس هو بيقول أنه أمه بدها تسجله بمدرسة بأمريكا بس بيحضر الدروس على النت و بيعمل اختبارات على اللاب توب كمان و هو بالبيت ما يروح مكان . "
- _ " و الله !! ليش بقى ؟ "
- _ " قال لأن الأولاد بالمدرسة بيقولوا كلام عيب . و أمه قال ما بدها يروح على المدرسة هو و أخوه . بدها بيقوا بالبيت . "

- " و هو مبسوط يعني هيك ؟ "
- " ما بعرف .. هو بيقول أنه ما بيحب المدرسة كمان . لأن الاولاد ما بيلعبوا معه . .. الأولاد بيقولوله أنه أمريكي . و هم الأمريكيان أعدائنا . "
- " لا ... كيف ؟ مين قال هيك ؟ هو رفيقك بيأذي حدا من رفاقه ؟ "
- " لا ماما . ما بيأذي حدا . هو حَبَاب . "
- " إذاً كيف يكون أعدائنا . الأعداء هم اللي بيأذونا و بيضرونا بس . حتى لو كان من وين مكان . طيب ... انت تحب تدرس في البيت على النت مثل زبير ؟ شو رأيك ؟ "
- " لا ماما .. مو حلوة هيك . المدرسة أحلى . منلعب كرة في الفسحة و منحكي مع بعض .. , "
- " شو تحكوا مع بعض ؟ "
- " عن أشياء يعني .. أشياء هيك كتير أشياء .. "
- " طيب .. خلينا نشوف الصور تبع الأكواريوم .. يا الله . "
- الصور ومضات مسروقة من الوقت الهارب . تحبس لحظة من الزمن في طيات الذاكرة . نتأملها بلهفة و نحن ندرك تماما أن لا شيء يعيد الزمان إلى الوراء , و لكننا ننتشي بشيء من البهجة عندما تدغدغ مشاعرنا بطعم السعادة التي لا مست قلوبنا في يوم من الأيام .
- صور راتب مع الأولاد قرب أحواض السمك في أكواريوم الشارقة قبل سنتين . راتب يحمل جنى و يحيط مصطفي بذراعه . نظرة راتب إلى جنى ... نظرة مصطفي إلى والده .. مشاعر الأمان تجلج المشهد , لمحات تُقرأ و لا تُنطق .. مشاعر تلمحها في ومضة عين , في لمسة يد حانية , في التفاتة عفوية , تخبرنا أن في الحياة أشياء لا توزن بميزان .. و لا يعوضها بديل ... إن فُقدت , تركت هوة كبيرة لا يردمها شيء , سوى تراكم صدى أنين صامت يتردد في النفس حتى آخر العمر .
- حتى الآن مصطفي لا يتكلم , لا يشكو , و لا حتى جنى . لم يكن غياب راتب في أي وقت أمرا غير مألوف . و لكن تلك النظرة الكسيرة في عينيها . تلك النظرة النათية التي تبحث عن شيء كان أمامهما و اختفى فجأة من غير سبب أو مبرر . شيء كان بالنسبة لهما أمرا بديهيا كالهواء و الماء و النور و لكن لم يعرفا أنه كان موجودا حتى ذهب و خلف وراءه هذا الفراغ الموجه .
- هي أيضا ينزعها شيء من هذا القبيل . في أعماقها احساس مبهم بالنقص , بالفقد لشيء لا تتبين ما هو حقيقة . لطالما اعتقدت في قرارة نفسها أن الأرض لن تتوقف عن الدوران إذا ما توارى في أحشائها أي إنسان . لطالما كانت على ثقة أنه لا يوجد أحد يمكن أن يثير غيابه في نفسها ألما و حرقة . لطالما شعرت بالاستغناء و الاكتفاء بنفسها عن كل أحد . و لكن , ما هذا الذي يطوف الآن في أنحاء نفسها كنار تسري في الهشيم تحرق كل ما حسبته لوقت طويل مسلمات بديهية ركزتها في نفسها بعد حسابات كثيرة و تفكير طويل.
- جنى و مصطفي غافيان على الأريكة بينما كانت مستغرقة في تداعياتها . ما زال الوقت مساءً , و أمامها ليل طويل . ليل مقفر لا يقطع سكونه سوى صفير الريح تتلاطم بين البنايات العالية التي تختبئ خلف جدرانها ألف حكاية و حكاية .

حملت جنى إلى سريرها ثم أسندت مصطفى إلى صدرها ليخطو خطوات مثقلة إلى غرفته . ضبطت التكيف على درجة منخفضة , و أسدلت الغطاء فوق ولديها . وقفت على الباب تتأملهما غافيين , غارقين في عالم الاحلام .

كيف ستكون حياتهم إذا لم يعد راتب ؟ و كأن السؤال سقط في هوة عميقة , أعمق من أن يتردد خلفه صدى , لا جواب , و لا أي تصور . أين اختفت كل تلك الصور التي داعبت خيالها لأيام عن حياة تتحمل عبئها لوحدها مع ولدين تشق بهما عباب الحياة لتصل بهما إلى بر الأمان ؟ لماذا يغلف الضباب كل احتمال تحاول تخيله و يحيله هبابا يلون أفقها بالسواد ؟

مسحت الغبار عن الطاولة بفوطة مبللة أعادت توزيع خطوط الغبار على الطاولة من جديد . رسمت دوائر متداخلة كدوامة ثم رمت بالفوطة جانبا و وقفت تتأمل بصمت . لمحت جوالها الصامت على الأريكة . مدت يدها لتفتحه لتكسر وحدتها بعبارات تقرأها على أي من المواقع التي تتهاطل فيها الحكم و النصائح كزخ المطر . أفلتت أصابعها الجوال . نبذته بنظرة زاهدة بكل ما فيه من بوابات مفتوحة على العالم . كتاب "كيمياء الكلمات " على طرف الطاولة , تظهر بين الصفحات الورقة التي تشير إلى الصفحة التي وصلت إليها بالقراءة . منذ أيام كانت ترشف كلماته كرحيق عذب ينعش عقلها بحلاوة الفكر . ما به يلوح لها الآن كقطعة حجر لا تثير في نفسها أي احساس ؟ بدأت تنقل خطى ونيدة بين الغرف الصامتة . وقفت على باب غرفة النوم . تسمرت على الباب و كأنها تشرف على حقل ألغام . تأملت سريرها الفارغ عن بعد , لا تجرأ حتى على الدنو منه و كأنها منطقة محرمة يحظر عليها الاقتراب منها . كيف ستمر عليها هذه الليلة العسيرة ؟ أسندت رأسها إلى الباب و أطرقت تحديق في الفراغ .

زلزال

خفق أجنحة ينبهه من نومه . يهب مذعورا يبحث عن مصدر الصوت . سلطان النوم جعله يغفل عن تلك الروح التي تشاركه المكان . غشاوة النعاس أربكته , فرك عينيه محاولا استيعاب المشهد . الحمامة تصفق أجنحتها و هي تحوم حول فرخها . الفرخ الصغير ينهج , يضطرب صدره بأنفاس متسارعة و الحمامة الأم مذعورة لا تقف على حال , ترقب فرخها الذي بدا و كأنه يلفظ أنفاسه الأخيرة . ربما يكون عطشا , لعله نسي أن يضع له الماء .

اندفع إلى الحوض و ملأ فنجانا صغيرا بالماء ثم وضعه في الصحن حيث ينتفض الفرخ من العطش . كيف يريد الانسان القيام بشيء فينتهي إلى غير ما أراد ؟ أراد أن ينقذ روحا فإذا به يكاد يزهقها . لا تتحمل نفسه رؤية عصفور يموت . كيف يحتمل أولئك الهمج رؤية بشر من أبناء جنسهم يتعذبون ؟ كيف تطاوعهم أيديهم على قطع أعناق و حرق أجساد و إزهاق أرواح بني آدم اللذين كرمهم الله ؟ من أي طينة جُبِل هؤلاء ؟ لم لا يدعون الموت يأتي بنفسه إلى كل حي في أجله الذي قدره الله عليه ؟ هل وكل الله إليهم حياة العباد لينهوها متى أرادوا ؟ رفاق الهلاك , أخلاء الردى . هل جربوا مرة يا ترى احساس

الرحيل؟ هل انتابتهم تلك المشاعر العصية على الوصف، عندما تلوح الحياة شمساً آفلة توشك أن تغيب و يغيب معها كل معنى للوجود.

اختبرها مرة و عرف طعامها . لم يصدق قبل ذلك عندما قال له صاحبه مرة أن الموت لا يفاجئ أحد و أنه يزورنا مرات عديدة قبل أن يأتي إلينا بزيارته الأخيرة.

حدث ذلك عندما حام الموت حوله السنة الماضية في أحد أيام نيسان . كان يوم الأربعاء في السابع عشر من الشهر و كان غافياً في وقت الضحى بعد ليلة أنهكتها فيها الحمى التي سببها له زكام شديد في الليلة الماضية . كان رفاق السكن قد غادروا إلى أعمالهم و لم يكن في البيت أحد سواه . تحامل على نفسه و أرسل رسالة إلى أحد زملائه في العمل طلب منه أن يقدم له

إجازة ليوم واحد و عاد إلى سريره طالبا بعض الراحة لجسده المنهك . لم يغمض جفنه سوى ثوان قليلة عندما أحس بالسرير يهتز و الأرض تميد من تحته . ظنّ أول الأمر أن الحمى عادت إليه لتصيبه بالدوار . أغمض عينيه محاولاً التفكير بشيء مبهج . و لكنه فتحهما فجأة ليرى اللوحة على الجدار تميل كرقاص الساعة . أحس بالصقيع يجمد أوصاله . أعياه النهوض فاستسلم للفراش تتناوبه حرارة الحمى و صقيع الرعب . بعد لحظات بدأ يصل إلى سمعه تدافع الناس على سلّم البناء . كانت خطوات السكان على درجات السلّم تدوي كطبول الحرب و كأن جحافل يأجوج و مأجوج على وشك اجتياح المكان و تدمير كل ما تمر عليه . شعر بأنفاس الموت تلفح وجهه . أنفاس باردة تسري في أوصاله على مهل تستلّ الاحساس بالحياة من كل خلية تمر عليها . أنصت إلى نبض قلبه . عرف أنه ما يزال على قيد الحياة . تراءت له صورة جده بغترته البيضاء يلوح له مبتسماً و كأنه يدعو للقدوم . بدا وجهه مشرقاً كفلقة القمر . من وراءه كانت أمه و أبيه و جدته ، أموات كثر نسي أسمائهم و نسبهم . تبددت صورة الأموات و ملئت عينيه صورة جنى و مصطفى و سلام . رأى في عيونهم نظرة كسيرة كظير مهبض الجناح . مد يده إليهم، و لكن صورتهم تبددت و تلاشت في الفراغ . خفتت الأصوات في الخارج أصبحت كهمس تمتمات تأتي من مكان بعيد . رأى نفسه مكوماً تحت الأنقاض تمتد أيد كثيرة تنتشل أشلاءه من تحت الركاب . رأى نفسه بعدها واقفاً على بوابة مفتوحة على فضاء لا حدود له . السماء غير السماء و الأرض غير الأرض . شعر فجأة أن كل شيء في العالم يختفي . تلاشت كل الصور من خاطره و استحال الكون بما فيه خواءً مظلماً . توقف احساسه بجسده . و لكنه مازال يشعر أنه موجود . فكر أن تلك ربما تكون روحه . هل الروح هي الإدراك للوجود؟ هل هذا هو العالم الآخر؟ أين هما منكر و نكير؟

" الله ربي ، محمد رسولي ، القرآن العظيم كتابي " كان يستحضر المعاني في نفسه دون أن يحرك شفتيه كتلميذ أصابه رهاب الامتحان و أفقده القدرة على النطق . ساد احساس بالعدم . لم يعد هناك معنى للمكان أو الزمان . غمرته غيبوبة تلاشى معها ادراكه لكل شيء لم يدر وقتها هل كانت غيبوبة الموت أم غيبوبة النوم .

في مساء ذلك اليوم صحى على همسات رفاق السكن يتندرون عن الهزة الأرضية التي حدثت عند الضحى و كيف أثارت الرعب بين سكان البلد . سألوه إن كان قد شعر بها ، لم يجب بشيء . تبسم و أغمض عينيه مستغرقاً في كلمات سلام . اتصلت سلام يومها بعد ساعة على الهزة و سألته عن حاله .طمئنها عن نفسه و دعت له بالخير و السلامة و أقلت الخط . و لكن صدى صوتها ظل يتردد في مسمعه بقية اليوم . لم يستشعر في صوتها أي لهفة . لم يكن هناك ثمة قلق أو خوف من فقده . كان صوتها هادناً مطمئناً كعادته . فكر كثيراً يومها إن كان موته يقلقها حقاً أو أن غيابها سيغير شيئاً في حياتها .

تري هل تفتقده الآن بعد أربعة أيام على غيابه أم أنها تمضي حياتها كالمعتاد ؟ حياتها التي تعرف كيف تعيش كل دقيقة منها كما تخطط و ترغب و تشاء .

بذور الحب

أول مرة في حياتها تستشعر في نفسها معنى الفراغ . ليس لأنها لا تجد ما تخفف به وطأة الوقت الذي يزحف على مهل كقافلة أنهكتها الأحمال , و لكن لأنها لا تجد في نفسها الرغبة أو الهمة للقيام بما تريد . كل شيء أصبح بلا معنى . كيف فقدت كل الأشياء التي كانت تملأ بها وقتها بهجتها , و غدت بلا طعم و لا لون و لا رائحة ؟

أليست هذه هي الصورة التي تخيلتها في سرها ؟ حياة لا تشغل فيها صورة راتب المستلقي بخمول سارحا في المجهول حيزا في مجال رؤيتها . حياة تشغل كل ثانية منها بفكرة و عمل و نشاط يزيدنا يقينا أن الوقت أهده الله لنا لنملا صحيفتنا بأشياء لها معنى و ليس لنتركها خاوية كصحراء تصفر فيها الرياح . لماذا تتبدد كل الخيالات التي جعلت صورة راتب في عينيها قاتمة و مظلمة ؟ هل كانت كلها أو هام ؟ خواطر نفس خبيثة كان عليها أن تدفعها عن نفسها و لا تستسلم لنزغها ؟

و ماذا عن مشاعرها التي قبلتها و استسلمت لها منذ أن بدأت حياتها مع راتب ؟ هل عليها أن تعيد حساباتها الآن ؟ ما الذي سيتغير ؟ لم يحدث شيء يغير ما استقر في وعيها منذ عشر سنوات . هي لا تحب راتب . تقبله , تتقبله , تتقبل وجوده في حياتها كما هو كما تقبل وجود تلك الوحمة في أعلى ذراعها و تعرف أنها جاءت بها إلى الدنيا هكذا و أنها لا تسينها و لا تسرها , هكذا لا تثير في نفسها أثرا سوى أنها تعي بوجودها . تماما مثل راتب . لا يثير في نفسها مسرة و لا حزنا . هل سيحاسبها الله لأنها لم تحبه . و لكنها أدت الأمانة و حفظته في نفسها و ماله و عياله . هل يحاسبنا الله على ما لا نملك ؟

كيف يحب الانسان انسان آخر ؟ هل هي حقاً الكيمياء التي تجذب عناصر الأجسام المتجانسة إلى بعضها ؟ و لكن هذا لا يسمى حبا و إنما انجذابا لا علاقة له بسكينة الروح و اطمئناتها لمن تحب . هل الحب شعور مجرد لا سبب له و لا علة ؟ أم أنه مثل كل شيء في الوجود لا يخرج عن متلازمة السبب و النتيجة . ألا نحب السماء لأنها تمطرنا و تظلنا ؟ ألا نحب الأرض لأنها تجذبنا إليها و تحملنا على ظهرها و تخرج لنا الثمر ؟ و حتى الله الذي خلقنا ألا نحبّه لأنه يستحق الحب , لأنه يحسن إلينا و ينعم علينا بأفضاله ؟

أليس الحب عملا نجدد النية على القيام به عندما نستيقظ كل صباح ؟ نبتة زينة نضرة نتعهدها بالسقاية و العناية . نظير فرحا كلما لمحنا برعما جديدا يبرغ لها و نسرع لنزيل منها الأوراق الذابلة المصفرة لتبدو خضراء متألقة على الدوام . كيف يمكن أن يكون الحب غير هذا ؟

هل يمكن للثمرة أنت تثبت بلا بذرة ؟ . هل نحب من نحب بلا سبب ؟ كما نتنشق الهواء بلا وعي و لا إرادة . أم أن كل عمل يقوم به الانسان يقع في قلب الآخر بذرة تثبت شوكا أو تزهر وردا حتى إذا امتلى القلب بالزرور ألف من يبهجه و أحب من يسعده ؟ كيف يكون الحب على غير هذه الحال ؟ و كيف تحب

راتب و بذوره تقع في قلبها ميتة لا تثبت شوكا و لا وردا ؟ لا تفرحها و لا تحزنها لا تحرك فيها احساسا بشيء . هل هو ذنبها أم ذنبه ؟ لا يمكنها أن تحاسبه . كما قالت لها جدتها , لا يمكنها أن تقطف من شجر الخوخ تفاحا . عليها أن ترضى بالوخ و تقبل به . و هي قبلت . و لكن يبدو أنها لم ترضَ حقا كما ظنت بنفسها كل تلك السنين . لعل حلمها الذي ظنت أنها وأدته بعيدا في فيافي نفسها قد تسلسل إلى وعيها على غفلة منها و بدأ يخلخل الدعائم التي حسبتها راسخة متينة لا يهزها زلزال .

و لكن لم لا تستطيع أن تسعد بما لديها مثل كل الزوجات اللواتي يزقزن طربا لما يقدمه لهن أزواجهن . ألم يقدم لها راتب البيت و الذهب و المال ؟ أليس هذا ما يسعد النساء ؟ لماذا لا تتغنى بكرمه و تكيل له المديح على الملاء كما تفعل النسوة في مجالس الزيارات و اللقاءات . تبدو كل واحدة متيمة ببعلمها الذي نصبها أميرة عرشه . تزهو بما يطعمها و ما يكسوها و ما يرضيها به . هل هن حقا متيمات و هائمات برجالهن كما **يقطن** أم أنهن يتعلقن بحبال الوهم التي تؤرجحن في فضاء الخيال . فضاء العشق لأشياء زائلة ستهجرنا يوما و ترحل عنا في أي وقت , مخلفة وراءها حسرة كبيرة على ما كان .

لم هي حقا مختلفة عن الأخريات ؟ لم لم تسعد بأكواب البوهيمي المذهبة التي كان راتب يجلس و يرقبها من وراء زجاج الفاترينة و يشرح لضيوفه عن تاريخها و أصلاتها ؟ لم لم تسعد ببلاطات السيراميك المشجرة بعروق الذهب تلك التي رصف راتب بها الحمام و أخبرها مرات و مرات عن كلفتها و نوعها و صلابتها ؟ و لكن ها قد استحالت الأكواب و بلاطات السيراميك هباء , لو أنها سعدت بها لكان محل السعادة الآن حسرة كبيرة تحرق قلبها على ما راح .

النفوس العظيمة تجعل من القزم عملاقا . و النفوس الفارغة تجعل من العملاقة أقزاما . قالت ذلك لراتب مرة في إحدى الليالي قبل أن يستسلم للنوم . كان يسند رأسه إلى صدرها و كانت تسرح شعره بأصابعها . لم تدر تماما إن كان قد سمعها قبل أن يغفو و يغرق في أحلامه . لم تدر حقا . و لكنها أكملت حديثها كله . قالت كل ما كانت ترغب في قوله له . لأن جدتها أوصتها أن تسرّ بمكنونات قلبها لزوجها و هو نائم . قالت لها أن الكلام يتسلل من أذنه و يصل إلى قلبه قبل أن يفكر فيه . هل كانت جدتها على حق ؟

و لكنها قالت له أشياء كثيرة . قالت أن الرجولة بالنسبة لها احساس و ليست عضلات مفتولة . موقف و كلمة و عمل تعيق رائحته في النفس بعد انقضاء الزمان و المكان . قالت له أن اللباس الجميل يسعدها و أن الطعام الشهي يبهجها و كذلك الأساور و الأقراط و السلاسل المشنثلة , كلها تدخل الفرحة على قلبها و لكن فقط عندما تترك أن من يقدمها لها يعرف تماما أنها أشياء زائلة و أن سعادتها ليست رهنا بوجودها و لن يكون فقدانها سببا لحسرتها . قالت له أن السعادة هي لحظة صفاء و مودة مع انسان يعرف غاية وجوده في الحياة , و يعرف تماما ماذا يفعل ليكمل رحلة حياته ببسرة . هذا هو الانسان الذي يسعدها سواء قدم لها كل تلك الأشياء أم لم يقدم . سيبقى هو هو بالنسبة لها لا يغيره أن يبسط الله له أو يقدر عليه . لا يغيره أن يصح أو أن يسقم . لا يغيره أن يكون طويلا أو قصيرا أو مليحا أو قليل حظ من الجمال , لا يغيره عارض يحل به أو عليه لأنه في حقيقة الأمر نفس عظيمة تعرف أن قيمتها بم تفكر و تعمل و تقول و ليس بما تملك و تقنتي .

كانت تهمس له بالكلام في أذنه و كانت السماء في الخارج تمطر بغزارة . كان ذلك في شهر نيسان قبل سبع سنوات و كان آخر يوم من اجازة راتب في الشام .

عندما توقفت عن الكلام نظرت إليه . كان جفناه مطبقان بسكون . لم تقرأ على وجهه أي شيء . لم تعرف إن كان كلامها قد وصل إلى قلبه أم أنه تبعثر في الفضاء . أبعدت رأسه عن صدرها و أسندته إلى

الوسادة . تبسّمت عندما خطر لها إن كان راتب يسرّ لها بشيء و هي نائمة . ما عساه يقول لها يا ترى لو تكلم ؟ .

النفس العظيمة

جفت العباءة في هواء المكيف و لكن لم تختفِ عنها أثار الحبل و بقع الغبار البنية . مع ذلك سيرتديها و يخلع عنه منزر نافيد الملون . ما زال الجرح في قدمه يؤلمه . فك الرباط و أعاد لفه من جديد . حل عقدة المنزر عن وسطه و تناول العباءة . لمح صورته في زجاج الباب . الظلام شديد في الخارج و الريح ما زالت تصفر كسفينة على وشك الرحيل . بدا له جسده ضئيلا و عضلاته ضامرة . أرخى العباءة فوق جسده و أشاح بوجهه عن الزجاج . هل تراه سلام ضئيلا و ضامرا ؟ هل تعاف حقا نحوله و ذبوله ؟

صوت قطرات مطر خفيف يقاطع غضب الريح في دعوة للهدوء . صوت المطر يوقظ في نفسه نبض قلب سلام . تلك الليلة قبل سبع سنوات , في نيسان , ليلة سفره إلى دبي , كان مسندا رأسه إلى صدرها و كانت تربت على رأسه بأناملها و تخلل أصابعها في شعره . صوت نبضها كان أشبه بنقر المطر على زجاج النافذة . وصل إلى سمعه همسات نفتتها في أذنه . شيئا عن النفس العظيمة , الأقرام و العمالقة عن السعادة و الذهب و أشياء أخرى . كان همس صوتها و نبض قلبها متداخلا مع زخ المطر في الخارج تدوي كلها معا كسمفونية سماوية تصدح من معبد قديم . لم يح كل ما همست به و لكن عندما وصل إلى الشارقة بقيت عبارة " النفس العظيمة " عالقة في ذهنه لوقت طويل .

في إحدى الجُمع كان إلى جواره في المسجد رجل باكستاني سأله باحترام

" شام شريف ؟ "

" نعم .. و أنت ؟ "

" باكستان .. شام شريف . شرف كبير !. "

صافحه الرجل يومها و كأنه يتمسح بأستار الكعبة . أخبره أنه زار الشام قبل سنوات و اشترى كتبا قديمة من مكتبة قرب التكية السلمانية . فوجئ الرجل أن راتب لا يعرف اسمها . سأله راتب عن النفس العظيمة . فقال بعد صمت قصير أن النفس العظيمة كما يعرفها هي التي تقوم بعمل عظيم . و لما سأله كيف يكون العمل عظيما , قال أن هذا السؤال صعب لا يمكن الإجابة عليه ببساطة . و لكنه قال أن الرسول عليه الصلاة و السلام أخبرنا عن رجل سقى كلبا عطشا في الصحراء فكان عمله عند الله عظيما .

ما الذي يمكن أن يفعله حتى تراه سلام عظيما ؟ سأله نفسه مرات كثيرة , ما الذي يرضيها ؟ أليست مثل كل النساء اللواتي كنّ يجلسن عند أمه في الصباحيات يدرن فناجين القهوة و يتباهين بما يقدمه أزواجهن لهن من حلي و زينة و ملابس و حتى طعام . أليس هذا ما يسعد النساء ؟ يذكر عندما كان صغيرا و كان يتسلل إلى مجلس النساء و يجلس على جنب لا ينتبه له أحد . و ينصت للأحاديث . كانت النساء تشمر

عن سواعدهن و هن يتحدثن و كان ينصت إلى خشخشة الأساور في أيديهن و يتأمل سلاسل الذهب في أعناقهن . أمه لم تكن تلبس الكثير من الحلي . زردتين مجدولتين و حلق و طوق . و كانت كلما تكلمت عن أختها التي تزوجت زيجة مسعودة في حلب تقول بانكسار .
" جوزها الله عاطيه , مشنشلها بالذهب شنشلة " .

كان يحدث نفسه أنه عندما يكبر و يتزوج سيشنشل زوجته بالذهب و سيكون في غاية السعادة عندما يسمع الأساور تخشخش في يدها و الذهب يبرق على صدرها . كان يتخيل أنها ستكون سعيدة و ستفخر به أمام النساء .

عندما أتت سلام إلى الشارقة اضطروا لبيع بعضا من ذهبها من أجل تجديد الفيز و رسوم الإقامة . عندما وضع الصائغ الأساور في الميزان أحس راتب أن الرجل يستل بعضا من عظام جسده . أحس بالنار تشتعل في رأسه و تحرقه . و لكن سلام لم تكن مكترثة . لم يبد عليها الانزعاج و لا الأسف . تناولت المال من الصائغ و لم تلق أي نظرة إلى مصاعها . حالما خلعتة من يدها بدا و كأنه شيء لم يعد يعنيهها .

كانت أمه تقول أن المرأة من غير زينة مثل الشجر بلا ورق ما لها رهجة . و الآن سلام من غير زينة . لم تعد الأقران تهتز في أذنيها كلما أدارت رأسها حول عنقها و تمطت بدلال . لم تعد الأساور تخشخش في يدها عندما تقوم و تقعد , عندما تجلي الصحون و عندما تعجن العجين . كم اشتاق لرائحة خبز سلام و لطعم خبز سلام و لوقع خطى سلام . ترى هل ما زالت تحلم بالفرن الكبير ؟ أم أن حلمها انهار مع كل البيوت التي انهارت و سويت بالتراب ؟

خبز الفقرا

هزّت رأسها بعد تأمل طويل . الذنب ليس ذنبها , و ليس ذنب راتب أيضا . هي الأقدار التي تجمع بحرا أجاجاً و نهرا عذبا فراتا و تجعل بينهما برزخاً , فلا يبغيان و لا يلتقيان . يسريان معا جنبا إلى جنب إلى أن يشاء الله .

عادت تطوف في البيت , تنتقل بين الغرف , تسوي غطاءً مزاحاً عن طاولة , تسدل الغطاء على أولادها , تعدل الساعة على الجدار ثم تتأملها ترى أنها أصبحت مائلة أكثر , فتعيد تعديلها . الساعة تشير إلى الواحدة بعد منتصف الليل . تشعر أن الساعة غير صحيحة , تفتح جوالها و تنظر . الساعة الواحدة تماما . . و قفت و سط الصالة تتأمل انعكاس صورتها في زجاج باب الشرفة , تذكرت نصيحة جدتها .

" إذا ما عرفت شو عملي , سرحي شعرك . بس تسرحيه بتعرفي شو عملي . "

تبسمت و هي تحك رأسها بنزق . لا يمكن للفرشاة أن تسلك في خصلات شعرها الآن . أحنّت رأسها للأرض . نفضت شعرها و أخذت تلوح به و هي تدلك فروة رأسها بأطراف أصابعها . بقيت لحظات مغمضة عينيها , تآرجح جذعها يمينا و شمالا , سكنت قليلا , لمت شعرها فوق رأسها ونهضت من جديد .

خطت إلى المطبخ على مهل . فتحت الدرج و أعادت صف الملاعق و الشوك و السكاكين . أغلقت الدرج و فتحت الخزانة على الرف , أزاحت أكياس الدقيق و أعادت صفها من جديد . تأملت فيها برهة و أخذت تتناولها واحد تلوا الآخر . دقيق الذرة , دقيق الشعير الكامل و القمح الكامل . فتحت الأكياس و أخذت حفنة بيدها من كل واحد , تنشققتها بعمق و أعادتها إلى الكيس .

الآن تعرف ماذا تفعل . لا شيء غير العجين سيهبها ما تتوق إليه و تبحث عنه . لطالما منحها الراحة و السكينة في غياب راتب . عندما كان يوقظها في آخر الليل احساس بالعطش كصبار في قيظ صحراء لا ظل فيها و لا فيء . لطالما أهداها التعب اللطيف الذي يخدر الأعضاء و يملأها رغبة في الاستكاثرة لرقاد مريح . عندما تتحرك يداك بعمل تتوقف نفسك عن الإلحاح عليك بما يتعبك . فهتمت هذا من جدتها مرة . لم تعد تذكر بأي كلمات صاغت جدتها ذلك المعنى . و لكنها اختبرت الأمر بنفسها . حالما تغرس يديها في العجين تشعر أن خاطرها أصبح فلاة شاسعة تغطيها رمال بيضاء مستوية لا ترى فيها أثرا و لا تسمع منها همسا .

ليس لديها هنا اللكن الفخاري الكبير و لكن يمكن للطشت البلاستيكي أن يفي بالغرض . أفرغت مكبالا من دقيق القمح الكامل و آخر من دقيق الشعير و الذرة و و الحمص و أربعة مكابيل أخرى من الطحين الأبيض . ملعقتان من الملح و قليل من زيت الذرة مع الخميرة الجافة كلها في الوسط . وضعت الطشت على الأرض و جثت على ركبتيها ثم أخذت تفرك المقادير مع بعضها من الوسط إلى الحواف من أجل أن يتجانسوا جميعا و يصبحوا " عجين خبز الفقرا " .

خبز جدتها الذي كانت تعبق رائحته في دروب البلدة لتخرج الناس من بيوتهم و تسوقهم إلى دار الجدة يتحلقون حول النور ليحصلوا على رغيف يسكن توفهم إلى مذاق الخبز الشهي .

في أيام الجوع و القلة . روت لها جدتها أن الأغوات فقط هم من كانوا يأكلون خبز طحين القمح الأبيض . أما الفقراء فكانوا يخبزون خبز الخلط . خليط الحبوب الأرخص ثمنا من القمح . يخلطون الذرة و القمح و الشعير و الحمص على قدر ما يتيسر ثم يخبزونها على النور أرغفة يسدون بها رمقهم مع قليل من زيت الزيتون و بضع حبات من البصل . كانت أيام عسر . الآن تغير كل شيء . الآن تُرمى بقايا الخبز في القمامة و على جوانب الجدران . " بكرة بيشتها النعمة " . كانت جدتها تتعجب و هي تتذكر كيف كان المُعدمون ينبشون القمامة بحثا عن كسرات خبز جافة يمسخون عنها العفن و يشربون معها الماء حتى يستطيعون بلعها .

روت لها جدتها الكثير عن أيام العسر و القلة . و لكنها كانت تقول أن العسر أيام زمان كان فقط لأن المال قليل , أما النفوس فكانت راضية . الآن المال كثير و الطعام كثير و كل شيء مكوّم في الأسواق و لكن النفوس قلقة و حائرة .

صبت سلام الماء الفاتر في حفرة صنعتها وسط الدقيق و أخذت تجمع الطحين إليها و تدعه .

العجن كان امتيازا خاصا بها لم تسمح جدتها لأحد غيرها من أولاد العائلة القيام به . كانت الجدة تدعهم يديرون مقبض الطاحونة الحجرية و هي تضع في فتحة الطاحونة حبوب القمح و الذرة و الحمص و الشعير حفنة وراء حفنة و الأولاد يتناوبون على تدوير عصا الطاحونة الحجرية . الجدة تلقي بالحبوب و تشير

" شايفين ... بتحطوا قمح بتعطيك قمح . بتحطوا شعير بتعطيك شعير و إذا .. "

حتى إذا قاطعها أحد الأولاد مازحا

" و إذا حطينا عجو مشمش شو يطلع ؟ "

كانت الجدة تحدد فيه لتتذكر اسمه و اسم أمه و ابيه و إذا كان ممن تقول عنهم أن أهلهم ما ربوهم منيح , كانت تجيبه بصوت عال

" بيطلع واحد متلك " . و يضحك الجميع .

و عندما ينتهي الطحن كانت تنادي على سلام لتبدأ العجن . صوت جدتها عندما كانت تنادي عليها كان أشبه ببيعاذ من قائد كبير يولي مهمة عظيمة لأحد جنده الأكفاء . بكل فخر و اعتزاز كانت سلام تغسل يديها و تنزل إلى اللكن الفخاري الكبير. تجثو على ركبتها تداعب ذرات الدقيق الناعمة ثم تقلب بيديها الطحين مع الماء الذي تصبه جدتها و حالما يكتفي, تبدأ بالعجن . عبارة جدتها

" مو كل الايديين بيلبقلها تعجن "

, كانت وساما يطمح كل الأولاد للحصول عليه, و لكنه لم يكن من نصيب غيرها في أي مرة .

الاحساس بطراوة العجين و لزوجته , طواعيته بين اليدين و طقطقته بين الأصابع مثل علكة اللبان كان مغامرة كبيرة يتأملها الأولاد و هم يراقبون سلام منكبة فوق الطشت الكبير لا تلتفت إلى شيء سوى ذلك المزيج الحريري الطري الذي يشيع في نفسها احساسا بالبشر و الانشراح .

عندما كان الكبار يعلقون " يا تاعب قلب المستريح " , كانت الجدة تقول " هدول ما يعرفوا طعمة تمهم . خبز الفرن طعمته مازوت ما بيتاكل . "

و لكن سلام كانت تعرف أن خبز الفرن الآلي لم يكن دائما طعمه مازوت كما تقول جدتها و أنها كانت ترى جدتها أحيانا تأكل منه عندما ينفذ من بيتها خبز التنور . و أن السبب الحقيقي لشغف جدتها بالطحن و العجن و الخبز لم يكن فقط مذاق الخبز الذي يسري في العروق احساسا بالرضى و الهناء, و إنما هي لمة الأولاد و الجيران على رائحة خبزها التي لا تقاوم . تلك اللمة التي كانت تؤكد لها أنها لم تصبح بعد شيئا لا قيمة له و أن هناك من ينتظر منها شيئا . هناك من يحتاجها و يرجو بقاءها و لا يعدد الدقائق المتبقية لها في الحياة .

لم تقل الجدة لأحد هذا الكلام , و لكن سلام أحست به من نظرة عينيها , من مسحة الرضى التي كانت تكسو وجهها و هي تناول رغيفا ساخنا لهذا و ذاك , و تقول " اللي ياكل من خبزك ما يبوء فيك " .

لم تكن سلام تعرف معنى تلك العبارة و لكن في إحدى الليالي عندما سرقت من عينيها النوم صور القتل و الدم و الدمار في بقاع الأرض , طاف بخاطرها حلم صغير كان يكبر معها كل يوم حتى اكتملت صورته و ملامحه بألوانه و شكله و رائحته . كانت تحلم أن تبني فرنا كبيرا في البلد تخبز فيه " خبز الفقرا" , و أنواعا كثيرة أخرى . خبز فرنسي و خبز هندي و صيني و .. حلمت أنها ستقيم مهرجانا للخبز و ستدعو إليه الخبازين من كل أنحاء الأرض ليعجنوا و يخبزوا و يأكل الناس من خبز بعضهم البعض . كانت تتخيل رائحة الخبز تعبق بين البساتين و تسرح بين أغصان الأشجار في المزارع و بين البيوت و تتغلغل في القرميد الأحمر على السطوح . في لحظة تخيلت أن كل أهل الأرض يأكلون من خبز جدتها . رأت على وجوههم البشر و السعادة . رأتهم يبتسمون و يهزون رؤوسهم شكرا و امتنانا لمائدة الأرض, هدية السماء . عندما يصبح بين البشر خبزا و ملحا سيحبون بعضهم . لا يؤذي الانسان انسانا أكل من خبزه .

و لكن راتب أكل من خبزها الكثير . راتب لا يمكن أن يؤذيها . أليس شيئا جميلا أن تعيش مع انسان تأمين أذاه ؟ ألا يلقي هذا الأمان في قلبها بذرة تنبت وردا يتضوع بالاطمئنان ؟ و لكن أين هو راتب الآن ؟ في أي أرض و في أي حال تراه يكون ؟

غارت يداها في العجين و و توقفت لتتأمل بسكون الكتلة الطرية عاجية اللون . وجدت نفسها فجأة خالية من أي عارض أو خاطر . ربما تحظى بشيء من النوم يريح أعصابها الآن . لملت العجين و غلفته بورق النايلون الشفاف . وضعت في وعاء آخر و أودعته في رف البراد . ربتت على كرة العجين في الوعاء و ابتسمت . مازال هناك شيء يسير بشكل صحيح . لعل القادم يكون خيرا .

اليوم الخامس:

عرب عرب

" البدع مداخل الشيطان , و مخالفة الهوى من مراتب الاحسان " .

همست مس نادرة الكلمتين الأخيرتين لمس صادقة حالما لمحت سلام تدخل غرفة المدرسات . تبسمت سلام و هي تعيد العبارة في نفسها . كلام صحيح و مريح . " مخالفة الهوى " . صحيح تماما . تبسمت للمدرسات و ألفت السلام .

بعض العبارات مثل اللباس لا تليق بجميع الناس . عندما يتلفظ شخص ما بعبارة كبيرة عليه تبدو فضفاضة إلى حد غير مقنع, و كأنه يرتدي ملابس ليست له , فيصبح مضحكا و مثيرا للشفقة . مع ذلك نظرت بتقدير لمس نادرة و هي تردد بإعجاب " مخالفة الهوى من مراتب الاحسان " .

مس نظيمة مدرسة العلوم كانت تغلف مخروطا مثبتا على لوحة خشبية بدا نموذجاً لبركان . مدت يدها بقطعة من المعجون و سألت :

__ " ايش اسمه هادا بالعربي ؟ "

__ " أعتقد اسمه صلصال .. معجونة الصلصال .. "

أجابت سلام بتردد

__ " آه ! صلصال ! يا ربي ... سورة الرحمن . خلق الإنسان من صلصال كالفخار . أنا كل يوم أقرأها . أحبها كثير .. سبحان الله مس سلام . أنا ما كنت أفهم ايش يعني صلصال .. آه . "

__ " الآن أنت تعرفي مس نظيمة .. "

__ " أنت محظوظة مس سلام .. أنت تقرأ قرآن و تفهمي كلام الله .. أنا أحب أفهم كمان .. عربي حلو .. كلام حلو .. "

__ " و انت كلامك حلو مس نظيمة انت كمان تقرأي قرآن و تاخدي حسنات .. "

تناولت سلام ابريق شاي الكرك و صبت فنجانين لها و لمس نظيمة التي كانت تهز رأسها بتأثر و هي تغلف المخروط الكرتوني بالمعجون و تملأ فتحة التجويف بالكربونات . مس عائشة الصينية دخلت الغرفة بسرعة و ألفت بنفسها على كرسي قريب . فتحت حقيبتها و تناولت حافظة الماء و أخذت ترشف منها بعصبية و هي تقلب يديها:

__ " عرب . عرب . عرب !!! .. آه يا الله .. كلام .. كلام .. كلام .. كل الوقت بيحكي , بيضرب , ويقول كلام غلط .. لا .. أنا ما أبقي هون السنة الجاية .. أنا رح أترك المدرسة .. خلص ... خلص .. أنا ما أقدر

... ما يسمعون شي .. بس كلام كلام .. هم يروحوا مشاوير و غياب يوم و أنا أعيد دروس كل مرة .. لا لا .. مو حلوة هاي مدرسة . "

ضحكت سلام و هي ترشف شاي الكرك الساخن . من هم العرب الذين تغبطهم مس نظيمة؟ و من هم العرب الذين تستغيث منهم مس عائشة؟ أليسوا أمة عربية واحدة؟

دخلت إحدى المستخدمات إلى غرفة المدرسات تتلفت .

" مس سلام؟ "

" نعم . ! "

" الدكتورة سامية تريد تشوفك في المكتب عندها بسرعة . "

" الآن؟ أنا عندي تدريب في الملعب بعد الفسحة . "

" لا مس . الدكتورة سامية قالت اتركي كل شي و تعالي بسرعة . "

" ماشي . "

أنفاسنا التي تخرج من أجسادنا تحمل معها رائحة النوايا . تشحن الهواء من حولنا بما يعتمل في ذات الصدر , فيغدو خفيفا رائقا أو ثقيلًا مرهقا يتلجلج في الحلق كأبخرة المراجل ليزيدها وهنا على وهن . جو الغرفة يعبق برائحة الكدر و شيء من التوجس .

" السلام عليكم دكتورة سامية . "

" و عليكم السلام مس سلام . أهلا . اتفضلي ارتاحي . "

أزاحت الدكتورة سامية بعض الملفات من أمامها و تناولت جوالها , ضغطت عليه حتى أظلمت شاشته و أصبح مغلقا . هالة من عدم الارتياح تغلف قسما و وجهها , حاولت إخفانها بابتسامة رسمتها على مضمض .

" خير دكتورة سامية , شو في؟ "

" ان شاء الله خير . ان شاء الله .. خير بإذن الله .. الحقيقة كان عندي الآن ولية أمر طالبة

وحدة من بنات الثانوي اللي تدرّبهم للمباراة ... و ... "

" نعم .. "

" شوفي مس سلام . أنا أعرف أنك مدرسة جيدة و بتحبي شغلك , و أنا مالي ملاحظات عليك , بس .. الحقيقة , ولية الأمر اشتكت من أنك من يومين فتحت مع البنات مواضيع حساسة و هي مزعوجة أن بنتها مو متعودة على هاي المواضيع .. يعني تعرفي الجو العام هون غير .. "

" عفوا .. دكتورة سامية . نحن ناقشنا أمر هم أصلا بيحكوا فيه مع بعضهم عادي , مو أمر محرر

يعني . و أنا ما حكيت شي خارج عن الأصول . "

__ " الطالبة حكّت لأهلها أنه كان في كلام بيخجل . "

__ " مو صحيح . حضرتك ليش تفترضي إنها هي اللي تقول الصدق من غير ما تسألني . أسألني البنات عن اللي حكيناها و شوفي إذا الكلام بيخجل و لا لا . "

__ " مس سلام . أنت مُدرسة رياضة و مش مرشدة نفسية، و انت بتصرفك هذا تجاوزت حدود اختصاصك و صلاحياتك . الكلام بهاي الأمور غير مسموح بهذا الشكل ، الموضوع يحتاج إذن و تصريح للنقاش . "

__ " ليش البنات لما بيحكوا مع بعضهم بهاي الأمور بياخدوا إذن منكم ؟ و لا لما بيدخلوا على المواقع على النت و بيشفوا ما هبّ و دبّ بياخدوا تصريح من أحد ؟ و بعدين انا ما حكيت شيء خارج الأصول و الدين و المنطق . البنات محتاجين إرشاد بهاي الأمور حرام تركهم يتخبطوا لوحدهم مو عارفين الصح من الغلط . "

__ " مس سلام هاي الأمور مسؤولية الأسرة هي اللي تنقل قناعاتها و خبراتها لأولادها . المدرسة ملتزمة أمام الأهل بالمنهج الرسمي المعتمد و الموافق عليه من المنطقة . و ما يصير نخرج عنه . "

__ " يعني مو كل الأهل بيحكوا مع أولادهم بهاي الأمور. و يعني حضرتك مقتنعة ان الطالبة تحفظ خرايط العالم و دوله و تدرس عن المخلوقات اللي تعيش فيه و بالنهاية تكون جاهلة بجسمها اللي عايشة فيه و ما تعرف شو اللي بيصير فيه و شو سبب المشاعر و الأحاسيس اللي تحس فيها و لا تعرف كيف تتصرف معها ؟ هيك برأيك بتكون المدرسة أدت واجبها و قامت بمسؤولياتها ؟ "

__ " مقرر الثقافة الجنسية غير موجود في مناهجنا و لا أعتقد أنه موجود في أي دولة عربية. الأمر ما يتناسب مع قيمنا و عاداتنا .. مس سلام انت بتخوضي بأمر أكبر منك و مني . "

__ " أنا ما أتحدث عن الثقافة الجنسية اللي يدرسوها في الغرب ، أنا أتحدث عن الثقافة الجنسية الواردة في القرآن و السنة . في الأحاديث الشريفة ، الثقافة اللي هي من قيمنا و مبادئنا . و يعني الناس كلها بتاخذ هاي الثقافة الآن من الأفلام و المسلسلات و حتى الاعلانات التجارية كل يوم و كل دقيقة . و إذا تركنا المجال لهدول يكونوا ثقافتنا الجنسية على كيفهم و هواهم برأيك رح تكون النتيجة منيحة هيك ؟ يعني نترك باب الغلط لأولادنا مفتوح و بس يغلطوا منعاقبهم ؟ "

__ " آهه .. أنا مش عارفة أقول ايش بس أنت لازم تفهمي علي . أنا لازم أحطك بالصورة . ولية الأمر أنا حاولت أراضيه بس بصراحة إذا أصرت و وصلت الأمر للمنطقة و طلبوك للتحقيق بصراحة أنا بقدرش أساعدك . وضعك مش راح يكون كويس و لازم تعرفي الموقف اللي انت فيه . "

__ " يعني ؟ "

__ " يعني إذا تأزم الموقف، المدرسة مو مستعدة تدخل بمشاكل. و ممكن تضطري تقديمي استقالتك . أنا أتمنى الأمور ما توصل لهدرجة بس انت لازم تعرفي حجم الموقف اللي انت فيه . "

__ " عسى خير ... مو مشكلة .. "

__ " أتمنى القصة تمر على خير . كيف تدريبات الفريق ؟ "

__ " مستواهم جيد يعني .. إن شاء الله نفوز .. "

__ " شدي الهمة معاهم . لازم فريق المدرسة يفوز . هذا الشيء رح يفيدنا للإعتماد الأكاديمي .
النشاطات الرياضية صارت مهمة و إليها حساب في تقييم مستوى المدرسة . الأحد نشوف ايش بيصير
بموضوع الطالبة . أتمنى لك الخير مس سلام . "
__ " شكرا .. السلام عليكم دكتورة سامية . "

خرجت سلام من غرفة الادارة تتنازعها رغبتان نقيضتان , البكاء حتى النحيب أو الضحك بجنون حتى
القهقهة . اجتازت الممر بخطوات ونيدة حتى وصلت إلى الفسحة . رفعت رأسها إلى السماء ففاجأتها
زرقتها .

السماء صافية صفاء يهب انشراحا يفيض على النفس راحة و بشرا . كلام الدكتورة سامية كان يدور في
خاطر سلام كطاحونة تطحن عجرا عفنا و تُخرج غبارا و هبابا يتعالى أمامها ثم لا يلبث أن يتلاشى
حالما تعيد التأمل في السماء الواسعة . البارحة كانت سحب الغبار تغطي السماء و تحجبها عن النظر و
اليوم انزاحت و رحلت كما يرحل كل شيء إلى أجله . لا شيء يبقى على حاله . ابتسمت ابتسامة واسعة
و مسحت عن جفنها عبرات كانت تهمّ بالنزول . نفضت رأسها و انطلقت إلى الملعب تتابع تدريب الفريق
لمباراة يوم غد المرتقبة .

عجاج

اليوم غير البارحة . من قال " ما أشبه اليوم بالأمس " ؟ .. قائل هذه العبارة ربما لم يعتد النظر إلى
السماء . لو أنه نظر لرأى الشمس كل يوم تطلع من مكان مختلف و لرأى مشهد السماء يتبدل كل ساعة
و كل حين بأشكال السحب و الغيوم و الرياح ... ربما أن الانسان يرى العالم الذي في داخله فقط فيظن
أنه متشابه لا يخرج عن نمط يتكرر بلا نهاية . و لكن الغريب أن حتى عالمنا الداخلي لا يستقر على حال
. يتقلب كما تتقلب الأجواء, تهب عواصف و زوابع تنسف سكينه النفس و هدونها و لا تلبث أن يعقبها
مطر يغسل غبار العواصف و يزيل أتربتها لتصحو النفس على رضى و سلام .

سما اليوم ليست سماء البارحة . البارحة كان العجاج يسدل عليها غلالة شاحبة تحجب المدى . البارحة
كانت صفراء تكدر البصر . استعداد راتب في خاطره رحلته اليومية إلى العمل أيام العواصف الرملية . كان
يلمح بصعوبة خيال أشجار النخيل الزاوية تحت سطوة العواصف التي سرقت نضارتها و أثقلتها بالرمال
 . و أيام أخرى يهطل فيها المطر فتتلون أمواج الرمال الناعمة بألوان زاهية تلوح عن بعد زهرية اللون
أو ذهبية و حمراء تتماوج كمهرجان أضواء طبيعي تتألف فيه الشمس و الماء و الهواء لتخرج لوحات
بديعة من جمال لا يحظى برويته إلا القليل . فاجأته تلك اللوحات عندما رآها للمرة الأولى . كان يحسب أن
هذه الديار قليلة حظ من الجمال و أن الجمال كله في بلاده , في بياض الثلج على المروج و زوايا
الطرقات و سطوح المنازل. يبدو أن للجمال وجوه و ألوان كثيرة . و أن الطبيعة تهب لكل بقعة و لكل
فسحة بهاءها و روعتها بقدر ما تشاء .

و لكن غضب الطبيعة يقلق النفس و يكدرها . كيف استطاع ذلك الشاعر العراقي المغترب أن يشناق للعجاج . هل يشناق أحد للسواد و ضيق النفس . كيف استحضر في نفسه صوت العجاج كهمس عندليب على فنن ؟ أين هذا من ذاك ؟ كيف يعيد الخيال تشكيل العالم بصور تهزأ بكل منطق ؟

أزاح راتب بكفه حفنة من الرمال عن سطح الخزان و شكّل كئيب صغير . هذه هي الحفنة التي أوصى ذلك الشاعر العراقي المغترب ان توضع في كفه لو أنه مات في الغرب بعيدا عن العجاج و غباره . كم يبدو الانسان غريبا عندما يحب أشياء يعافها الناس و يتكدرن منها . أم لعله رأى فيه شيئا لم يره الآخرون . يقول أهل البر و من صاحب الطبيعة بكل أحوالها أن العجاج الذي نعافه و تضيق منه نفوسنا إنما هو رحمة الله بالعباد . هكذا يرسله الله على هوام الأرض التي تنشط و تخرج من مخابئها أول الصيف فيهلكها قبل أن تهلك الانسان و يعيدها إلى التراب لتكون نفعا بدل أن تكون ضرا

لا يرى الانسان كل هذا و لا يشعر به و لا يعرف الكثير كيف يسير هذا العالم الغريب . يبتهج الانسان و يُسرّ قلبه عندما يصحو الجو و تصفو السماء . يظن الانسان أن ما يريده و يتمناه هو الخير كل الخير حتى إذا ما خاب رجاءه في شيء انقلب العالم في نفسه ظلاما دامسا لا يسطع في سواده نجم و لا قمر، فيحس أن الحياة ليل بلا نهار و عتمة بلا ضياء .

ألا يمكن أن يكون هذا الحزن الذي يلف النفس بغلالة الكآبة من حين إلى آخر و يحجب عنها ضياء الأمل فلا ترى أفقا و لا مدى أشبه بذلك العجاج الذي يثور من حين لآخر . أليس هذا الانسان الضعيف أشبه ما يكون بهذا الكون الشاسع الذي يعيش فيه تضج نفسه بالأنواء و أنواع البلاء . تطيح به زوابع القهر و تهزه زلازل اليأس ، و تتفجر في أعماقه براكين السخط و الغضب . أليس ممكنا أن الله يسلط علينا غبار الحيرة و القلق ليقتل فينا هوام البطر و الكدر التي تغطي أبصارنا فلا نرى نعم الله . حتى إذا ما أثقلت علينا بشدتها و ضاقت علينا الدنيا بسعتها هطلت على قلوبنا سحب التسليم و غسلت أرواحنا بغيث الرضى فتعود مخضرة نضرة ترى الجمال من حولها و تنعم به . .

تأمل راتب صفحة السماء و هو يضع فرخ الحمامة على كومة من مناديل و رقية كورها كعش صغير على طرف الخزان ، ثم ابتعد عنه يتأمل الحمامة الأم تحوم حوله بفرح . طارت بعيدا حتى غابت عن النظر و عادت بعد دقائق تحمل في منقارها شيئا . الأم تعرف كيف تتدبر أمورها . ربما لهذا تسمى جموع البشر المتألفة " أمة " . تحييها أم قوية تعرف طريقها في الحياة و تفنيها أم بانسة لا تعرف لها غاية و لا هدفا . سلام أم قوية . سلام تعرف كيف تتدبر أمرها .

جميلة

ثلاث مكالمات فائتة من رقم مجهول . هل يكون راتب ؟ لعله فقد جواله أو نفذ رصيده و يتصل من جوال أحد ما . لم تسمع رنة الجوال . ربما كانت في المصعد أو أنه في وضعية الصامت . هل يعاود الاتصال يا ترى ؟ أم عليها أن تتصل هي و تتأكد من صاحب الرقم ؟

تناولت الجوال بيد مرتعشة . حاولت قدر إمكانها اخفاء انفعالها . مصطفى يرمقها من خلف كتابه بفضول و كأنه يقرأ ما يعتمل في نفسها . جنى مشغولة بتلوين لوحة جديدة . سحبت نفسا عميقا و أعادت

الاتصال بالرقم . رنة الجوال تبدو صدى لرنين أجراس بعيدة ينتفض معها قلبها بترقب حذر . ينتهي الرنين و تظهر الكلمات " لا يوجد رد " .

تحس بالحرارة تندفع في رأسها . تنهض واقفة و تخطو إلى باب الشرفة . تتخيل وجهها تكسوه حمرة الارتباك . تعاود الاتصال من جديد. تبعد الجوال عن أذنها قليلا , صوت نبضها يملأ سمعها و يطغى على رنين الجوال . يُخَيِّلُ إليها أنها تسمع همس راتب . يتجمد صوتها في حلقها , تتنحج بوهن و تنصت بحذر . ينقطع الرنين و تظلم الشاشة . تلقي بالجوال على الأريكة و تحرق في سحب تنهادى في السماء . ما الذي يجعلها تظن أنه راتب ؟ لا تدري . و لكنه احساس مبهم . أشبه باستشعار رائحة رغيف ساخن لا تراه و لكنها تشم رائحته و تعرف أنه هناك . تشعر بقوة أنه موجود و أنه قريب في مكان ما لا تستطيع تحديد اتجاهه .

أجفلتها رنة الجوال . ارتدت عن الباب كمن مسّه تيار . أخلت ساحة فكرها من أي توقع . ضغطت على اشارة الرد و أنصتت للصوت القادم عبر الأثير :

__ " السلام عليكم مدام سلام . معك جميلة خليفة . أخذت رقمك من الدكتور كيف حالك . "

__ " و عليكم السلام أهلا .. أهلا .. الحمد لله . كيف حالك آنسة جميلة . "

__ " بخير الحمد لله . أنا أتكلم بخصوص الطفلة جنى . الدكتور خبرني عنها و عطاني فكرة شوي عن الوضع . "

__ " أيوه .. نعم .. "

__ " مدام أنا كل الأيام مشغولة جدا بس ممكن يوم الجمعة على الساعة وحدة . أنا أجي عندك .. يناسبك الوقت ؟ "

__ " عظيم ... مناسب جدا . "

__ " طيب أنا ما أقدر أحدد شي حتى نشوف الطفلة و نعملها الاختبار و بعدين نشوف ايش اللي يناسبها . و ان شاء الله خير .. طيب ممكن تطرشيلي العنوان بالتفصيل على هذا الرقم و يعني نشوف اللي الله يبسره . "

__ " إن شاء الله ... شكرا كثير آنسة جميلة .. هلاء أبعثلك العنوان .. جزاك الله خيرا ... "

__ " أهلا حبيبتي .. عالبركة .. الله معك . "

__ " ماما مين ؟. "

__ " معلمة بدها تساعد جنى .. رح تجي لعنا يوم الجمعة .. "

__ " و رح تعلمها تقرأ ؟ "

__ " إي ان شاء الله .. خلصت واجباتك ؟ "

__ " لا ماما . في مسألة ماث مو قادر أفهمها .. ممكن تشرحيلي اياها .. "

__ " أي ممكن بس بعد نص ساعة . بدي أرتاح شوي و انت تحاول فيها كمان و أنا بعدين أصحلك إذا في خطأ . "

__ " ماما حاولت و ما عرفت . صعبة كتير .. "

__ " حاول كمان .. و إذا ما عرفت اعمل واجب غيره .. لازم تخلصهم. اليوم رايعين على البحيرة مع مس ابتسام الساعة ستة و رح نرجع تعبانين .. يا الله خلصوا كل اللي عليكم .. "

__ " هاي ... ياي .. ماما بدنا نشترى شاورما ؟ "

__ " منشترى شاورما .. يا الله .. "

كانت سلام تشعر برغبة قوية في الاستلقاء بهدوء لوقت قصير و لكنها كانت تعرف جيدا أن رغبتها هذه أمر مستحيل . منذ خرجت من غرفة المديرية أحست أن كل خلايا جسمها مستنفرة . و أن عروقتها استحالَت أسلاكًا يسري فيها تيار عالي التوتر يفوق طاقتها على الاحتمال . حاولت صرف طاقتها و انفعالها في الملعب أثناء التدريب , حتى علفت البنات على اندفاعها

__ " مس ممكن تكوني بالفريق معنا ؟ بتسدي تمام . و لا وحدة أوت . "

ضحكت ضحكة أعادتها أربعة عشر سنة للوراء عندما كانت تستلم الكرة من رفيقاتها و تجري بها لا تسلمها لأحد حتى تلقىها في السلّة و تسجل نقطة . تلك الأيام كانت تقفز كأرنب بري يجري بين المروج لا يقلقه هم و لا غم . اليوم كانت تقذف الكرة في السلّة محاولة جهدها أن تقذف معها كل ما يرهق نفسها و يكدرها . و لكن ها هي همومها تعود لتفسد عليها سكينتها و هدونها فلا تستقر على حال .

فتحت باب الغرفة الصغيرة حيث تضع الأحذية و بعض الكرايب و تناولت رزمة من الجراندي . هذا ما كان يشغل بالها و يجول بخاطرهما كل الوقت منذ أن خرجت من غرفة المديرية هذا الصباح تتراءى أمامها الاستقالة التي ألمحت إليها الدكتورة سامية في حال تصعد الموقف الذي لم تتخيل أن يصل بها إلى هذا الحال . أحست بنفسها تلهث و كأنها تجتاز جسرا معلقا بسرعة كبيرة قبل أن تنهوى ألواحها من تحت قدميها و ترمي بها في وادٍ سحيق لا قرار له .

جراند الوسيط التي أدمنت البحث في صفحاتها طوال الشهور الأولى لقدومها إلى الشارقة لم تعد تتصفحها بعد أن وجدت عملا في مدرستها . كانت تتناولها كل يوم جمعة عن الباب و تضعها في غرفة الكرايب لتمسح بها النوافذ . الآن ستعود إليها علّها تجد فيها ما يسكن قلقها . اعلانات فرص العمل في النوادي الرياضية كانت تستبدها من خياراتها مفضلة الالتزام بمدرسة رسمية من أجل أن تكون مع أولادها . الآن ربما عليها أن تعيد التفكير فيها كخيار أكثر ملائمة حيث أنه من الصعب وجود مدرسة تحتاج مدرسة رياضية قبل نهاية العام الدراسي بثلاثة شهور .

اختارت العديد من الأخيرين من الجريدة و فتحت على صفحة فرص العمل . الطلب على مدربات الرياضة قليل . هناك اعلان صغير في زاوية الصفحة يطلب مدرسة رياضة خصوصي لسيدات . اعلان آخر يطلب مدرسة رياضة لنادي للسيدات و لكن بنصف دوام . أحاطت الاعلانات المناسبة بدوائر حمراء و سجلت الأرقام على ورقة ثم طوت الجراندي و وضعتها جانبا . أربعة أرقام , أربع فرص . ربما تكون احدهم مناسبة و ربما لا توفق في شيء منهم . عندما وقعت العقد مع المدرسة شعرت براحة كبيرة أنها خرجت

من دوامة التنقل بين المدارس و الاتصالات و المقابلات . و لكن يبدو أنه لا شيء له ضمان في هذه الحياة كما تقول ابتسام .

الخليج

السيارة تسابق منطاداً بدأ يرتفع عن الأرض , يخلق في السماء حاملاً معه إنساناً يرغب في مغادرة الأرض لدقائق و التحليق عالياً . حلم الإنسان الدائم بالهروب من الأرض و الانفلات من جاذبيتها التي تشده إلى كتلة التراب التي خرج منها و سيعود إليها عندما تنتهي رحلته في الحياة . الأولاد يلوحون للمنطاد بفرح . هم لا يعرفون ذلك الذي يطير فوقهم و لكن يبدو أن رؤية شخص يطوف بحرية في السماء أمر مثير للبهجة . قوارب الجتسكي تشق الماء بسرعة جنونية . راكبي الجتسكي يبدوون مضحكين عن بعد و كأنهم يسابقون أشباحاً غير مرئية . كيف يبتدع عقل الإنسان أشياء و أشياء لاقتناص متعة تخرجه من رتابة الحياة لبعض الوقت و تمنحه لحظات سعادة يمضيها بعيداً عن نفسه المثقلة بالأعباء . شط حديقة الممزر يلوح على الجانب المقابل . خضرة الأشجار تصبح داكنة مع اقتراب الغروب . ملقاة ظلالها على المياه تبدو الأشجار عن بعد كنسوة متشحات بالسواد يصطففن على الشاطئ مترقيات لمراكب قادمة عن بعد .

_ " شو رأيك ابتسام نازل هون منقعد على صخرة ؟ " ..

_ " لا و الله ما بدي هون .. بدي شوف البحر الطبيعي . البحر الحقيقي .. "

_ " هاد شو لكن .. بحر اصطناعي ؟ "

_ " يعني .. تقريبا .. هاد تصميم بشر .. أنا مو طايقة شوف شي من صنع الانسان بدي شوف البحر اللي ربنا خلقه مثل ما هو من غير تعديل . على الطبيعة .. "

_ " أي ابتسام ... يعني اذا مزعوجة من بني آدم بتكرهي كل البشر .. "

_ " آآه .. خليها لربك .. الحمد لله .. هاي هون البحر هاد مفتوح على الخليج العربي البحر الواسع الجميل .. اتفضلوا .. بدي أقعد على الرمل من غير شي آآه .. "

ماء الخليج يبدو مختلفاً عن ماء البحيرة . يبدو أكثر نقاء و انسيابية , أكثر صفاء و تماوجاً .. صوت الموج المتهادي على مهل إلى الشط يحكي حكايات قديمة . رائحة الرمال تعبق بقصص انتظار قضتها نسوة على شطآن كثيرة ينتظرن عودة المسافرين . يترقبن شراعا يلوح بالبشرى يحمل معه الرزق و الحبيب الغائب الذي أبحر باحثاً عن لؤلؤ أو صيد يعيل به من يرجو بقاءه و سلامته . عقب الانتظار المتشرب في الرمال الرطبة أيقظ في سلام مشاعر دفيئة لم تعي من قبل أنها لديها . طيف راتب يلوح لها بين الأمواج .. تشعر بأنفاسه في هبات النسيم المشبع برائحة الملوحة . من أين نبتت هذه المشاعر فجأة ؟ .. هزت سلام رأسها متعجبة و هي تغوص بقدميها في الرمال الرطبة .

- " ماما شو هاد مثل أكياس النايلون .. في كتير منهم على الرمل .. "
- " أي هاي قنديل البحر ميتين بيرميهم الموج على الشط ما تقربوا عليهم يمكن بيأذوا "
- " ماما شوفي !! أصداف اللؤلؤ ! منفتحها ؟ "
- " لا حبيبي .. هاي ما فيها لؤلؤ .. اللؤلؤ بيكون في الأعماق أظن هيك .. صح ابتسام ؟ "
- " و الله ما تعرفي .. اللي عنده حظ بيجي اللؤلؤ لعنده من غير ما يغطس .. بس أكيد مو أنا .. إذا فتحت كل الصدف اللي على الشط رح يطلعلي رمل و لا محار ميت "
- " وحدي الله يا مخلوقة .. ما خلصت الدنيا لسه .. وين المته ؟ "
- " هاي المته و الكاسات و براد المي السخنة و مصاصتين .. أعرفك ما تشربي مع حدا .. وين بذر الشمس ؟ "
- " و هاي بذر الشمس .. بس هيك على آخرها بدك تشربي المته بمي من البراد ؟ وين الغاز ؟ "
- " حبيبتي ممنوع تشعلي نار على الشط .. بيجيك غرامة خمسمية درهم .. مو وقتها .. مو ناقصين .. "
- " هاه يعني النبي آدم بيتنازل عن مبادنه لما بيضطر صح .. هلاء صارت المته بتتشرب بمي من البراد أي ؟ "
- " يا عيني .. لك كله بيتغير .. يالله صبي .. صبي "
- " بتعرفي ابتسام .. قرئت مرة رأي أحد الفلاسفة في الزواج يقول أن الزواج أشبه برحلة يحجز فيها الشخص بطاقة سفر إلى أمريكا و بعد الانطلاق يكتشف ان الرحلة متجهة إلى الصين فيقضي بقية عمره و هو يفكر و يحسب خيارات النزول أو المتابعة .. شو رأيك ؟ "
- " فهيم مية بالمية. و الله أنا من أول الرحلة بدي انزل بس مو لاقية توصيلة ترجعني .. شو اعمل ؟ "
- " ههههه . الله كريم .. شو صار معكم ؟ "
- " و الله ابن عمي أخذ قراره و صمم على الرحيل . "
- " لوين ؟ "
- " السبت رايح على تركيا و من هنك على أوروبا .. أي بلد بيقدر يوصله و يعمل لجوء .. "
- " هيك بهالبساطة .. يعني قوارب الموت ؟ ما في حل ثاني ؟ "
- " لهلاء ما في .. بيقول بس يستقر و ياخذ الإقامة بيعمل " لم شمل " و منحصله أنا و الأولاد عالتيشير . لوين بدنا نرجع ؟ "
- " سبحان الله .. كيف صارت الدنيا .. كل ناس بديرة .. أهلي بالأردن و أهل راتب نصهم صاروا بتركيا و نصهم بسوريا و وين رح نصير نحنا الله أعلم و الله مثل ما قلتي لاحتها نكبة ثانية . "

__ " شوفي سلام .. أنا ما كنت بدي قلقك بس انت لازم تعرفي .. زوجي طلب من واحد صديقه يسأل عن راتب في الحدود و هو الرجل رح يعمل اتصالاته و يخبرنا هاليومين "

__ " و ليش تعملوا هاد البحث .. أنا ما قلت أنه غادر الامارات . "

__ " بصراحة .. أنا شكيت أنه يكون نزل البلد .. في ناس بتنزل البلد فترة و بترجع . بيدخلوا و بيخرجوا عن طريق تركيا .. سامر زوج أمينة اللي من عنا من القلمون تعرفيها .. السنة الماضية اختفى فجأة و بعد يومين عرفت انه بسوريا و انه التحق بالفصائل اللي هناك .. هو رجع السنة الله سلمه بس في ناس ما رجعت .. استشهدوا هنيك الله يرحمهم "

__ " شو عم تقولي انت ؟ ما في هيك شي ... راتب مو ممكن يعمل هيك . على الأقل كان قال لي لا مو معقول "

__ " ما بعرف بس إذا بدك نصيحتي .. بكل الأحوال وضعك هون لوحدك صعب .. فكري و استخيري ربك و شوفي لشو بترتاحي. أنا برأيي بتعطيني جوازك و جواز ولادك بكرة و منقدمهم معنا بالسفارة النرويجية يعني محاولة .. و بتطلي انت و ولادك يا أختي الأمور هون صعبة ما في شي مضمون بيبقى الواحد مو عارف حاله "

__ " لا مستحيل .. لا لا كيف بدي أخذ هيك قرار لحالي لا لا .. صبي متة صبي . من ساعة لساعة ما بتعرفي شو ربك بيقدّر .. الله كريم .. عسى خير . "

__ مهما كانت الصحبة جميلة و ممتعة , في لحظة مفاجئة يشعر المرء برغبة في التوقف عن الكلام و الانصات لصوت آخر . صوت يخاطب كل انسان بلغته و على قدره و حالته . ينفث في روعه معاني لا تُنطق بكلمات .. تغسل روحه و قلبه تاركة إياه في حالة من النقاء الطفولي الذي يقف على عتبة الحياة الواسعة المليئة بالمفاجآت .

__ همس النسيم للموج بوح سماوي يترنم بأسرار البدايات الأولى , الماء و الهواء و الجلال القديم الذي أهدى للبحر سلطان الهيبة و الوقار.

__ " بتعرفي ابتسام .. دائما كنت أشعر أن في ناس هون بتقوم بجهود جبارة حتى تخلي هالبلد تمشي على عوج .. بدهم اياها عوجا .. "

__ " مو بس هاي البلد الدنيا كلها بدهم اياها عوجا و عورا و عرجا و فيها كل العاهات .. شغالين و الله ليل و نهار .. "

__ " صح .. بس بتصدقي ؟ عندي احساس , هون بالذات في ريحة أصالة ما بتقدر عليها النوايا العاطلة . على قد ما بيحاولوا على قد ما في شي بشعر أنه بأي وقت رح يقوم و ينهض و يهد كل اللي بيعملوه .. ما أعرف كيف. بس في بالهوا ريحة طيبة . في بالرمل ريحة خير, بالحجر بالمي ريحة بشر, ريحة أمل . في شي ما حدا شايفه و حاسس فيه, بس كله رح يقوم بيوم و يرجع الدنيا نضيفة و نقية . "

__ " و الله ... و من وين جبت هالاحساس ؟ "

__ " احساس .. ههههه .. الحاسة السادسة .. عمت الدنيا يا الله خلينا نقوم أحسن .. "

__ " أي هلاء حلوة القعدة .. الممتة لسه .. ما خلصت .. "

__ " بكرة المباراة ... و يمكن مفاجآت ثانية الله أعلم .. "

__ " خير ؟ "

__ " ان شاء الله خير. بكرة منحكي بالطريق .. يا الله . "

للافندر

صمت الليل يغري الحواس بالثرثرة. يطرق نوافذ الذاكرة لتفتح على فضاءات تتماهى فيها حدود الزمان و المكان, فضاءات يتداخل فيها اللون و الصوت و الرائحة في سديم الخيال, لتغدو الذكرى احساسا مجردا من كل شيء .

صمت الليل يوقظ في نفسه ذكرى اللمسة الأولى . العناق الأول .. رائحة سلام , عبق اللافندر , طراوة الأكف الناعمة و عزف الأنامل الندية على حجارة قفاره القاحلة .. لهاث أنفاس صادية تجوب الفيافي بحثا عن قطرة ماء تطفئ اللظى . و بعد لأي تستكين راضية بطلّ يهمي على عجل تاركا لهيب الرغبة يخمد على مهل .

يعرف أن سلام تمنحه الكثير و يعرف أنه لا يأخذها دائما حيث تريد . ليس لأنه لا يريد ذلك . و لكن حالما تتراعى له الفتنة الطاغية يشعر أنه مسلوب القوى , عاجز كفريسة تسمرت أمام حية تتلوى , تتأمل جمال ألوانها و بديع ليونتها و لكنها لا تقوى على الحركة. تنتظر لحظة الغياب فيها و التلاشي في سحرها . ما الذي تفعله به سلام ؟ لم يعرف مرة لماذا يصبح بين يديها بلا حيلة و لا وسيلة , تتبدد كل الخيالات التي تصوورها من قبل كسحابة تبعثرها الرياح .. يُخيل إليه فجأة أن رجلا مثله أضعف من أن يرضي امرأة مثل سلام .

يحلم كل ليلة أن يكون ماردا طويلا يحملها على ذراع واحدة و يطوف بها الأرض يؤرجحها بين يديه و عندما تتعب تغفو على صدره حتى الصباح . ثم تستيقظ لتتنظر إليه بامتنان شاكرة له ما أهداها إياه من سعادة و هناء .

الخيالات تسرق الهمة . تُخرج الفعل متهالكا كشبح بلا روح , تمتص الأوهام و هجه و حرارته و تتركه باهتا باردا . كل جنون اشتهاه لها يغور كماء في رمال حارة لا يبين منه سوى سراب لا يروي ظمأ و لا يبرد حرا .

ليلة السبت انتظرها .. حدث نفسه بالكثير . تصور ألوانا و فنونا من بهجة غامرة تفيض من حنايا نفسه التائقة إلى لحظات غياب بهي بين ذراعي سلام . عندما جاءت على مهل و ربتت على كتفه بحذر أحسن بها ترجو نومه أكثر من صحوه و غيابه أكثر من حضوره , خمدت نيرانه كشعلة صبّت عليها السماء و ابلا من المطر . تظاهر بالنوم . تمنى حقا لو أنه كان نائما . لو أنه يدخل في سبات عميق لا يصحو منه أبدا . لا يشعر فيه بيد زوجته تزيحه على جنب كطبق بارد فقد مذاقه و نكهته .

خمسة أيام قضاها خارج بيته , خارج فراشه خارج حياة سلام . و لكن لم ينجح في أن يكون خارج نفسه , خارج ضعفه و حيرته و قلقه . مازال كل شيء عالق في نفسه كطحالب عفنة على جذع هرم . لم يتغير شيء و لم يتبدل . اليوم كان ينوي العودة . وصل إلى الباب ثلاث مرات و عاد على أعقابيه . تخيل نفسه هكذا يطرق الباب على سلام ففتح له . تخيل وجهها خاليا من الفرح , خاليا من الشوق , من أي بهجة , فقط نصف ابتسامة ترسمها على استحياء . تهّم بعناق خاطف ترتد عنه كطائر أجفله عيار طائش, ثم تمد كفا مرتبكة لمصافحته على عجل دون أن تلتقي عيناها بعينيها. هكذا تكون بداية لقائهما عند وصوله من السفر بعد غياب شهور .. حالما تسحب يدها من يده تراوده أمنية حارة لو أن الطائرة وقعت به و تناثرت أشلاءه في الهواء قبل أن يصفعه صقيع لقائها البارد .

تعرض عليه بعد ذلك ألوانا من الفنون و طيب المعاشرة. و لكن تبقى فجوة اللهفة الأولى ,هوة عميقة تغور فيها أمنيات عزيزة تراكمت في قلبه طوال ليالي الوحدة و البعاد .. كل شيء يمضي بعد ذلك على ما يرام .. تلون أوقاته بالفرح ,بحلاوة أشبه بنكهة سكر صناعي يجلل كعكة ملونة , تسعد به لحظات, و لكن تعرف أنه ليس أبداً ذلك الشهد الذي يدوب في فمك من حبة مشمش اختزنت في لبها حرارة الشمس و ضيائها حلاوة تهبها لمن تحب .

الآن لا يطال حلاوة المشمش و لا نكهة السكر .. خمسة أيام من الخيبة و الانتظار ينازع نفسا تأبى إلا الغوص في أعماق خيبتها .

ألقى بنفسه على السرير و سرح ببصره في فراغ المكان ..

لا بد من محاولة أخرى لن يعود خائبا .. سيفعلها .. سيخرج من نفسه .. سيخلع عنه الوهن و الخمول و سيعود إلى سلام شخصا تلقاه بفرح . ..

المغناطيس

مشوار البحر لا ينتهي بالرحيل عن الشاطئ و القاء نظرة الوداع على اليم الواسع الفسيح . غالبا ما تعود حاملا معك رائحة نسيم البحر و هدير أمواجه, تصحبك لوقت طويل, تداعب حواسك ببهجة تملنك مسرة و انشراحا, تنشط لها همّتك و تفتح شهيتك لمزيد من الحبور .

أزالت سلام من الممر و الحمام أثار الرمال التي حملوها معهم من الشاطئ . أطلت على ولديها في أسرّتهم مستسلمين لنوم عميق . ليس هناك أجمل من الاستلقاء في الفراش بعد التعب و الاستسلام لسلطان النوم . و لكن من أين لها موجة من وسن لذيق يسكت لهنيهات قليلة صخب خواطرها . مازال الليل في أوله . أمامها وقت طويل قبل أن يثقل النعاس جفنيها .

خطت بوجل إلى غرفتها وكأنها تدخل حرما تهاب اقتحام حرمة . تشعر بوجود راتب بقوة لم تألفها في نفسها من قبل . كأنه هنا , أو قريب من هنا . طيفه , صوت أنفاسه , رائحته ! هل تشتاق حقا لراتب أو بعض راتب ! !

هل حقا أنّ شعورنا بالأشياء يصبح أقوى بعدما نفقدها ؟ ربما .

أو أن غيابها عَنَّا يوقظ في نفوسنا مشاعر لم نكن ندر بوجودها ؟ يحجبها عن وعينا تعالينا ربما ، أو نظرتنا الناقصة التي لا ترى سوى جانب واحد ، غالبا ما يكون قاتما و معتما ، و تعمى عن جوانب مضيئة و مشرقه ، تحسبها أمرا بديها و مسلما به ، حتى إذا ما انتبهنا إلى امكان فقدنا رأينا ما كان خافيا علينا بوضوح و عرفنا قيمته .

قميص راتب على عمود الملابس . بيجامته على السرير . محفظته على طاولة الزينة . لم يخطر لها مرّة أن تلمس أشياءه في غيابه . حالما يغيب عن نظرها يختفي احساسها به . هذا ما اعتادت عليه طوال عشر سنين . ما الذي يجعلها الان راغبة في احتضان قميصه و لمس محفظته ... تأمل ملبسه المعلقة في الخزانة .. صورته الموضوعه على طرف الطاولة .. هل هو وخز الضمير أم أنه حقا احساس حقيقي بإنسان له وجود في نفسها أكبر مما كانت تدركه و تعيه .

رائحة راتب ماتزال عالقة بالقميص .. رائحة أول عناق .. أول غياب عن الزمان و المكان .. أول احساس بالآخر ..

قبل عشر سنوات ، في حديقة أهل راتب .. قبل الزفاف بأيام .. كانا يتمشيان بين الأشجار و كان الهواء منعشا خفيفا و السماء صافية صفاء يبعث على الانشراح .. فجأة نفذ الكلام ... فتشت عن شيء تذيب به صقيع الصمت .. لم يكن هناك شيء . أشارت إلى أغصان شجرة المشمش التي كانت تمر من تحتها :

__ " لسه المشمش أخضر ... ما استوى .. "

__ " بده شهر لسه و شوي .. . "

__ " هاه في حبة فوق ملوَّحة ... شكلها لافحتها الشمس أكثر .. "

__ " و الله ! "

بلمحة مفاجأة رأت راتب يعتلي الشجرة . يتسلق من غصن إلى غصن .. أذهلتها مرونته و هو يبسط يده بخفة ، يتعلق بغصن ثم ينقل قدمه إليه ليرفع جسده إلى أعلى . أول مرة تشعر أن كل شيء فيها يضحك .. أبهجها منظره إلى حد كبير .. هناك في الأعلى كان يغمره ضوء الشمس .. بدا لها أطول و أجمل مما اعتادت أن تراه . رآته بسيطا و على طبيعته متخفف من ارتبائه و خجله .. تبسّم لها و هو يمد يده إلى الحبة البعيدة .. أفلتت منها صرخة فزع عندما لمحت قدمه تزل عن الغصن .. خشيت عليه من السقوط .. ولكنه تعلق بعود صغير و قفز عائدا إلى الأرض .. لم يصب بأذى . و لكن عندما مدّ لها يده بحبة المشمش لم تدر ما الذي حدث .. بلمحة واحدة وجدت نفسها بين ذراعيه بقوة خفية جذبتهما معا فالتحما كقطبي مغناطيس .. لبرهة قصيرة . تحولا شيئا واحدا . شعرت أنهما أفلتا معا من جاذبية الأرض و أصبحا جرما حرا يتيه في الفضاء خارج حدود الزمان و المكان .. كان أول احساس بالغياب .

مازالت ماثلة في وعيها تلك النشوة . لم تغادرها أبدا .. تمننت دائما لو تعود .. لو تعيش ذلك الاحساس من جديد ... و لكن .. لم يحدث أن رأت راتب بهذه الصورة مرة أخرى .. لم يحدث أن شعرت بذلك المغناطيس يُفقد قوتها و يرميها بين ذراعيه مسلوبة الإرادة و التفكير ..

راتب لا يعرف كيف يهزّ الرياح لتعيق رائحته .. لا يعرف كيف يشمّ الورد قبل أن يقطفه .. أو ربما أنّه يعرف و لكن .. لا تدري ما الذي يبعثه فجأة لتتلاشى همته و يصبح حاضرا غائبا كتائه في وسط صحراء .

علقت جدتها بعبارة غريبة بعد زيارة راتب لها مرة .

" حنكه رخو ما فيه حيل " _

_ " لا تينة هو مهذب و خجول .. "

_ " آه ... أي .. "

استغربت يومها بشدة كيف أن جدتها التي لا تعرف القراءة و الكتابة وجدت صلة بين النطق و الفحولة .. حتى هي لم تقرأ شيئا كهذا في كتاب أو بحث . يبدو أنه ما تزال الكثير من أسرار العجائز حافلة بما يخفى على الكتاب و الكتب .

ربما أن الفتنة المتاحة في كل وقت و في كل مكان استنزفت فحولة الرجال و استهلكت همّتهم في خيالات ييغون منها متعة و نشوة كما يبغي الصادي ريا من ماء البحر .. أو أن أثقال الحياة و همومها استنزفت توقعهم إلى متعة لم تعد تصرفهم عن معاناتهم و خيبتهم المحيطة بهم من كل جانب .. من أين لها أن تعلم .؟ . لا أحد يعلم ما يخفى عليه..

و لكن إذا ما عاد راتب .. هل سيعود كما هو أم تراه يعود بحال جديد ؟ لم تفترض ذلك ؟ فقط بسبب بعض الأحاسيس التي تجول في نفسها و التي لم تعهدها من قبل .. هل تغير فيها شيء حتى تفترض تغيره و تحوله ؟

هل يوجد حقا ذاك الرباط الروحي بين الزوجين ... شيء فطري يجعلهما يتفاعلا معا , يتغيرا و يتحولا معا, لينسجما و يتألفا في وحدة حال .. ؟ أم أنه رباط يحيكانه معا خيطا على خيط كما تفتل الحبال المتينة بكامل رغبتهما و إرادتهما ؟

أغمضت عينيها و استحضرت راتب واقفا أمامها ... همست في أعماق قلبها ..

" راتب .. أريدك أن تعود ... أريدك أن تأتي ... أريد أن نحاول معا من جديد .. لنكمل رحلتنا معا ... راتب ... أريدك معي .. زوجي و شريكي و رب أسرتي ... راتب ... أنا أنتظرك ... "

فتحت عينيها و نظرت في المرأة أمامها . خيّل إليها أنها ترى امرأة أخرى لم ترها من قبل .. مازال عقلها يرفض تلك الأنثى الجديدة التي انبثقت في أعماقها فجأة كمخلوق غريب. أنثى أشبه ما تكون بأمها التي تدور في فلك والدها تأخذ منه نورها واتزانها .. هل يُعقل أن نكون نسخا متكررة ممن سعينا أن لا نكون مثلهم بأي حال .. كم نجهل أنفسنا التي تحيا بين جنباتنا و نفاجئ بها على غير ما نعرفه عنها و نألفه ..

ألحان الهوى

كان الهواء ينفذ من الغرفة .. أو كأن صدره لم يعد يتسع لشيء سوى لذاك الحنين الجارف إلى نصفه الآخر .. أغمض عينيه

و أخذ شهيقاً طويلاً ودّ لو يسحب به هواء العالم كلّهُ إلى صدره ليبرد حرّ الشوق الذي يكويه ..
ما الذي يحبسه عن راحته ؟ لماذا يقبع هنا عازلاً نفسه عن واحتة التي تظّله من قيظ الرغبة الحارق ؟
و لكنه معتاد على إخماد براكينه المتأججة بصبر عظيم .. يعرف جيداً كيف يسكت أزيز الحمم التي تسري في عروقه و تحيل دماغه رماداً .. يعرف تماماً كيف يكون رجلاً متحضراً و راقياً .. كيف يغض بصره

عن فنون الفتنة الأسيرة تتراقص أمامه كقطعة من الجليد ترتج في كأس شفاف .. ما ستر منه أكثر و عدا مما يبين .. تلاحقه أينما توجه , في العمل , في الطريق , في المجمعّات و كل مكان تصرّ حواء على أن تمارس فيه حقها في أسر الحاضرين بسحرها و فتنها .. يحتسب ظمأه عند الله ... و يغض بصره ..

يعرف كيف يغض سمعه , عندما تصدح ضحكات الموظفات من حوله كشلال يغمر حواسه بخدر ناعم يجعل الأرقام تتمايل أمامه على شاشة الحاسوب كغانيات على مسرح صاخب ... يتوقف عقله عن إدراك العلاقات بين الرموز و الأرقام فيتوقف برهة , خشية خطأ لا يغتفر ..

يعرف تماماً كيف يغض سمّه عندما يجتاحه عطر نسائي طاع كتسونامي يجرف معه سكينته و هدوءه و راحته ... ينفذ رأسه كغريق خرج إلى سطح البحر من أعماق سحيقة ... محاولاً الهروب من رائحة الفتنة العالقة في الهواء و في كل شيء تمرّ عليه ..

يعود إلى بيته , إلى غرفته الخالية يخبر سلام , يأنس بصوتها الذي يهدئ ثورة الدماغ في عروقه ..
يسمع ضحكة أولاده تمنحه جرعة أخرى من الصبر تساعد على الخلود إلى النوم وحيداً لينهض في الصباح و يتابع رحلة الصبر المرير ..

لم ترض سلام من قبل أن تأتي لتقيم معه هي و الأولاد .. أرادت أن توفر تكاليف الإقامة و العيش هنا من أجل مشروعها و حلمها الكبير .. كان يمّني نفسه بالأيام التي سيعود فيها إلى بلده ... ينام و يصحو بين أهله و أولاده .. تبقى سلام أمام عينيه يروي عينيه من سحرها , ينتشي بعبقها و يطرب لهمسها و هو مرتاح البال و الخاطر لا يخزه ضميره من متعة عابرة تغمر قلبه إن غفل عن نفسه و أتبعها هواها فيما ترى و تسمع و تنتشق ..

سيصبر هو و الصبر أليفان لا يفترقان .. حياته كلها صبر على نفسه على خلق الله , على بلد يعرف أنه فيه عابر سبيل لا حق له فيه ولا ضمان . الان أنت سلام لتعيش معه بعد أن تفتت نفسه بين لظى الرغبة و صقيع الصبر , مثل صخرة في الصحراء تتناوبها الشمس و الزمهرير , كلّ يحفر فيها ثلماً حتى تغدو عارية في وجه الرياح تطيح بها هبة نسيم .

غدا سيعود إلى بيته , إلى عائلته , سيتكلم مع سلام و يُسرّ لها بمكنونات قلبه , سيسألها أن تبوح له بما يزعجها و ما يكرها و سينصت لها بكل جوارحه . سيطلب منها أن يبدأ معها من جديد , يحلمان معا أحلاماً جديدة . ربما أن حياتهما أظلمت بعدما انطفأت قناديل الأحلام التي أمضيا سنوات يضيئانها معا ..

الحرب جعلت كل الأحلام معلقة ,, مؤجلة وربما ممحّية لا أثر لها . و لكن سيعيدان معا رسم أحلامٍ جديدة و ينتظروا الأيام حتى تنجز وعدها و تهديهم بعد العسر يسرا

يضحك للريغيف السخن

لم يعد هناك شيء يثير الدهشة .. جنون الحرب استنزف كل عَجَب و استنفذ كل ذهول .. مع ذلك عندما اقترحت ابتسام احتمال ذهاب راتب إلى الشام و التحاقه بإحدى الفصائل هناك لم تستطع سلام كبت شهقة ذهول جمّدت ملامحها للحظات .

كيف أمكن لابتسام أن تتخيل راتب في ساحة معركة ؟

راتب لا يستطيع أن يرى عصفورا ميتا .. لا يمكنها أن تتخيل راتب يحمل سلاحا .. هو يكره حتى أفلام الرعب و برامج المصارعة و القتال ..

راتب رجلٌ لطيف لبق , رجلٌ بيتٍ , رب أسرة يرعى أهله و يقوم على راحتهم و شؤونهم, و لكن لا يمكنه تجاوز هذا الاطار بأي حال .. ليس هو من يدع كل شيء و يمضي إلى حيث يمكن للإنسان أن يعود أو لا يعود .

راتب جيل العفارة الذي ربته نساء فقدن البوصلة و تاهت بهنّ الطريق .. الجيل الذي أتى إلى الدنيا ليجد المرأة نُصِبَتْ أمامه كعبة يطوف حولها, و قبله يولّي وجهه شطرها أنى تولّى ...

يعيش من أجل أن يرضي امرأة . يكّد و يشقى من أجل أن يسعدها ببيت فاخر و ثوب زاه و ذهب براق . و لكن إذا ما عدت العاديات و أقبلت النائبات لا يملك أن يدفع عنها سوءا و لا أذى سوى أن يفرّ أمامها و يمضي بها بعيدا عن الموت و الدمار هاربين من أجل إلى أجل ..

طافت بخيالها لثوان صورة راتب بلباس مقاتل . بدا لها مثيرا إلى حد لا يقاوم . خيالٌ ملئها نشوة كغصن أثقله الندى فارتعش غبطة . تخيلته قادما نحوها بخطوات واسعة معفرا بالغبار و السواد. تخيلت نفسها تستقبله بانشرائح و فرح تمسح بكفها العرق عن جبينه . تغسل له قدميه , تضمد جراحه و تدلك رضوضه بزيتها العطرية ليغفو على ههناها و لمس أناملها الناعمة .

و لكن راتب لم يحمل في يده مرة بندقية صيد , و لا حتى سكيناً يذبح بها دجاجة .. ليس راتب .. ليس راتب الذي تعرفه على أقل تقدير .

توقفت عن السير في الممر برهة و عادت تتأمل ولديها غارقين في نوم هادئ ..

هل سيكون مصطفي مختلفا عن أبيه و جده ؟ عن أخواله و عومته ؟ عن أسراب الذكور الذين يملؤون الساحات و الطرقات .. يسدون الأفق بمنابهم .. يملؤون الهواء بصياحهم, تفور رجولتهم أمام شاشة التلفزيون يسبون الساسة و يلعنون المسؤولين و المنافقين و العملاء و الخونة كنانحات الجنائز , حتى إذا ما انتهت نشرة الأخبار و اختفت صور الأشلاء و الدماء تبددت حميتهم كشفقٍ أغارت عليه ظلمات الغسق و طوته تحت جناحها فولّى هاربا .

حالما يتحولون عن القنّاة بكبسة زر ليشاهدوا فنون الرقص و الغناء و الفكاهة و المرح و لهو الأحاديث العقيمة , تنشط ذكورتهم و تضجّ همّتهم كيعسوب حبيس زجاجة .

. ما أفسدته النساء لا تصلحه إلا النساء .. و ما أضاعه الرجال لا يعيده إلا الرجال .. كم من الأيام و السنين نحتاج لنخرج من التيه و نعود إلى الطريق ؟

تنهدت بعمق و هي تخطو على مهل إلى الصالة .. الساعة تشير إلى الواحدة ليلا و لا تجد في نفسها أثرا لنعاس . دوّرت رأسها حول عنقها و تمطّمت .. ما الذي ستفعله الآن .. فركت يديها برهة .. أصابعها تشتاق إلى العجين .. في عروقها فيض مشاعر لا يهدنها إلا الخلط و العجن و العرك .. حيث تغور أصابعها في تلك الكتلة اللدنة التي تكسر طراوتها قساوة اللحظة و الحال ليتدفق من أطراف أناملها كل نزق و ضيق فتهدأ نفسها و تسكن ثورتها .

ربما أننا في صناعتنا للخبز نشابه حركة الحياة .. تعركنا بمحنها ثم تتركنا لنرتاح و نختمر على مهل حتى إذا ما حان الوقت ألقّت بنا في تنورها لننضج و نصبح ما قدر لنا أن نكون ..

أخرجت و عاء حُلمها المجمّد من البراد. أزاحت رقاقة النايلون و تنشقت رائحته المتخمرة .. رائحة دقيق الحبوب التي تآلفت و انسجمت مع بعضها لتغدو كتلة واحدة منسجمة تفوح برائحة السلام .. لن يموت الحلم . مازال هناك يوم قادم يسعه و يسع معه الكثير من الأحلام الغافية على قائمة الانتظار .

بعد دعك طويل ذهبت برودة العجين و أصبح دافنا طيعا بين يديها جاهزا لتشكّله كيفما تشاء . أخذت قطعة ملء كفها و عصرتها فانبتقت من قبضتها كرة صغيرة ألقّت بها إلى طرف الوعاء . تناولت قبضة إثر قبضة حتى ملئت الوعاء بالكرات الطرية البضة .. هذه تحتاج إلى أن تُفرد على لوح يُرش عليه طحين أبيض و تلقى على صاج حار لتنضج خبزا شهيا تتضوع رائحته بالبهجة و البشر يفرح به كل من يراه .. يضحك للرجيف السخن . غدا سيكون لديها متسع من الوقت لتقوم بذلك .. غلّفت الوعاء بالنايلون و أعادته إلى البراد. غدا يوم جديد ربما يحمل معه الكثير من المفاجآت .

أبو يعرب

" بسم الله الرحمن الرحيم

أنا راتب مصطفى .. أنا أشعر بالحنين إلى بلدي إلى ديارى .. إلى رائحة ترابي .

لم أذهب إلى بلدي منذ ثلاث سنوات . أسمع كل يوم عن أناس يذهبون إلى بلدي .. أناس من كل مكان يتركون كل شيء و يشدّون الرحال إلى الشام ..

بعضهم يعود و بعضهم يموت على ترابها و بعضهم يبقى أسيرا محاصرا في أحراشها و مغارتها و أنفاقها يقاسي الجوع و الحر و القر في أرض ليست أرضه و تراب لا يرقد تحته أحد من أسلافه و أهله ..

.. ما الذي يشدهم إليها؟ ما الذي يدفعهم ليحوموا حولها كفراش يحوم حول أسنة الذهب و يعرف أنها تحرقه ؟ ..

تمنيت لو أذهب إليها .حلمت كثيرا أنني أجول و أصول بين تلالها و وديانها أدفع عنها الأذى و الضرر . أدفع عنها أفواج يأجوج و مأجوج الذين ينسلون من كل حذب و صوب يفورون كدود الأرض يهلكون و يفسدون كل شيء .. لكنني لم أذهب .. كان حلما فقط .. أسكرني نشوة .. نشوة كرعوة الصابون تلاشت حالما لاح لي طيف أبو يعرب ..

قبل ثلاثة عشر سنة كنت أؤدي خدمة العلم في جبل الشيخ . كنت مُستجداً و كان في قطعتي مجند ضعيف الإدراك . شاب ساذج بسيط من ضيعة بعيدة, و كان كثير النسيان. في كل مرة ينسى رقمه العسكري فيجرده المعلم من ملابسه و يجعله يقف في العراء بين الثلوج حتى يقع على الأرض .. عقوبة له .. في إحدى المرات أخذتني به الشفقة فتسللت إليه أناوله كأس ماء بعد ساعات على وقوفه . كنت أظن أن المعلم ليس هنا و لكنه كان غائبا و عيونه حاضرة .. نبت أمامي فجأة كشيطن مارداً .. غطى الأفق .. حذاء الأسود الضخم يغوص في بياض الثلج .. ملامحه الوعرة تعكر المزاج .. أنفاسه تثير في الجو رائحة الكدر و كفه الكبيرة ككف عملاق . تناول الكأس بهدوء أفعى تزحف إلى فريستها و طلب من المجند الخائر القوى أن يبصق فيه . رفع أمام وجهي كأس الماء و همس بصوت أشبه بفحيح أفعى :

" إذا بتشرب الكاسة كلها بعفيه من العقوبة .. "

لم أجب بشيء كأن لساني أصيب بالشلل.. تعطلت حواسي كلها .كانت الأرض تهتز لهدير قهقهته التي تردد صداها في الفضاء . كان كل جسده يرتج و هو يضحك كولد خبيث أفسد متعة رفاقه في لعبة مسلية .. كنت أفق و فقة استعداد مثل تمثال حجري عندما رفع الكأس فوق رأسي و صبها علي . سال الماء على رأسي و تسلل بين ملابسي .. سمعت ضحكات المجندين و العساكر من حولي كنفيق ضفادع في مستنقع راكد ... لم أحرك ساكنا خوفاً من عقوبة أكبر .. رأيته يركل الثلج بقدمه و يشير إلى عنصرين من جنوده :

" بالمنفردة ثمان و أربعين ساعة .. خليه يتعلم مكارم الأخلاق .. "

قادوني إلى مكان أشبه بالقبر لا يكاد يزيد على حجمي أكثر من خطوات .. لا يتسع سوى لوضعية القرفصاء إذا ما أتعبني الوقوف .. فقدت الاحساس بالزمان و الأبعاد و النور و الحياة و كل شيء .. لم أتذكر سوى نبي الله يونس في بطن الحوت و ابتهاله إلى ربه " لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ..

لم يكن هناك قبلة و لا اتجاه و لا مكان للركوع و السجود و لا علامة على دخول وقت أو خروجه .. فكرت أنه ربما لهذا لا يصلي أهل القبور .. بعد وقت لا أعرف كم طال جف حلقي, و اشتد بي الظمأ و اختلطت علي الكلمات و اشتبهت علي المعاني لم أدر ما أقول " لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين .. إني كنت من الظالمين . إني كنت من اللذين لا يعلمون . لا أعرف ممن كنت و ممن سأكون .. كل ما كنت أفكر فيه و لا أجد له جوابا لماذا يرسل الله إلى الأرض مخلوقات مثل أبو يعرب هذا .. ربما أنه هو من تعجبت الملائكة من خلق الله له على الأرض .. و ربما أنها لم تعرف الجواب حتى الآن ..

بعدما قضيت عقوبتي و خرجت من قبر المنفردة , رأيت السماء غير السماء و الأرض غير الأرض و الوجوه غير الوجوه . أسر لي بعض المجندين في أوقات الاستراحات بحكايات عن أبي يعرب لو رويت للجبل لذابت ثلوجه و لسالت دموعا حارة على بؤس ابن آدم و لحمد الجبل ربه شاكرًا على أن خلقه على

هذه الهيئة و لم يجعله بشرا يسومه أخوته من البشر ألوان الذل و الهوان .من يومها أصبحت أعدّ الأيام التي تبقت لي لأبعد عن هذا المكان .

أصبحت أعيش بنفس كسيرة .. كيف يمكن لنفس كسيرة أن تدافع عن الوطن .. النفس المهانة ليس لها وطن .. الوطن يحتاج نفوسا عزيزة تمشي على أرضه بكرامة و عزّة. تعرف أنها لن تهان باسم الوطن و تهدر كرامتها باسم الوطن و يسرق عرق جبينها باسم الوطن .. إذا كان الوطن يفعل كل هذا بأبنائه فما حاجتهم إليه .. لن يكون أفضل من تماثيل قوم ابراهيم التي ظلوا عليها عاكفين و هم يعلمون أن هؤلاء لا ينطقون..

بعد انتهاء خدمتي و اطلاق سراحي لم أتقدم إلى أي وظيفة أو عمل . عرضت قطعة أرض للبيع و اشتريت فيزا لدولة الامارات و أتيت أفتش عن عمل حتى وجدت . بعث أرضي و اشتريت غربتي عن وطن يعيش فينا و لا نستطيع أن نعيش فيه .. سلام لا تعرف ما الذي يجري على الرجال .. لا تعرف كيف تُصهر الرجولة في محرقة الذل و كيف تُسفك المروءة على مذابح الحقد و التشفي ليجردوا الرجال من رجولتهم و يجعلوا منهم خيالات و صور , أشباه رجال لا يصلحون ظهرا و لا سندا لأحد.

إن لم يرضع المرء رجولة من صدر أم و لم يستقيها من أرض وطن, و لم يجنّها من حضن زوجة, فمن أين له أن يكون رجلا ..؟

و لكن سلام تريد رجلا ..

كل امرأة تريد رجلا و لا تدري أن السماء لا تمطر رجالا و لا الأرض تُنبتهم و أن امرأة تصنع رجلا و امرأة أيضا تصرع رجلا و تقتل فيه الحياة ..

أنا راتب مصطفى .. أنا هنا مع نفسي .. أريد أن أخلع عنها الانكسار و أدعها تنطلق بحرية .. أريد أن أعود لأسرتي انسانا آخر. شخصا جديدا .. رجلا , ظهرا قويا , دعامة تسندهم إذا ما اهتزت من تحتهم الأرض و ضاقت بهم السبل .. أنا . لا .. "

توقف عن الكتابة و سرح ببصره .. هل ستمحي ملامح أبي يعرب الوعرة من ذاكرته؟ هل ستزول رائحة غلّه المنتنة من أنفه .. أم أن هناك الملايين من أبي يعرب يسرحون و يمرحون في كل مكان يفسدون لون النور و رائحة الهواء و طعم الماء في الحلق ..

رفع الورقة أمام وجهه يتأملها من جديد .. أمسك بالقلم , شطب بعض الكلمات و أعاد كتابة كلمات أخرى بين السطور . كتب عبارات بحروف متداخلة .. بحروف مبتورة .. و عندما أمسك الورقة ليقرأها من جديد لم يتبين ما كتب .. بدت له طلاسح سحر أسود .. مزق الورقة نصفين ثم قصاصات أصغر و أصغر ضمّها بين راحتيه برهة ثم نفخ عليها .. تطايرت من كفه و حطت على الأرض تحت قدميه .. هب واقفا يدوس عليها بقدميه العاريتين . الجرح في قدمه يخزه بألم حاد و لكنه ضغط عليه بشدة و خبط رجله في الأرض .. أحسّ بقوة كبيرة و كأنه يدوس على أشلاء عدو لدود .. شعر بأضلاع أبي يعرب تتهشم تحت قدميه .. رأى ملامح وجهه الوعرة تتداخل و تنمحي و يخرج منها الران و القطران و يسيل على الأرض بين القصاصات المبعثرة .. رفع رأسه عاليا و بسط يديه على جانبي جسمه كجنّاحين مفتوحين .. سحب نفسا عميقا و رفع يديه إلى أعلى ثم ترك أنفاسه الحبيسة تتدفق من صدره على مهل .. يشعر الآن أنه خفيف كريشة يحملها الهواء .. يشعر بحرية كبيرة و كأن بإمكانه أن يحلق و يعلو ..

بعيدا في الفضاء الرحيب .. شيء ما يموت فيه و شيء آخر يولد من جديد .. سيعود غدا ليقف أمام سلام
.. ليس كما غادرها, بل بحال جديد ..

اليوم السادس:

رحيل

.. ماراثون الصباح اليومي أصبح أشد وطأة في الأيام الأخيرة .. كل شيء على عجل .. توضيب حقائب الأولاد .. إعداد علب الغداء و تفقد حالات الأمان و السلام في البيت قبل مغادرته .إجراءات عادية لم يزد عليها شيء سوى أن من يقوم بها أصبح مشتتا بأفكار تروح و تجيء كزخات المطر .. يرمي بها خلف الوعي و الإدراك و يتابع طريقه ..

.. و لكن لا بد من استراحة قصيرة تلتقط فيها أنفاسها قبل أن تنطلق إلى المدرسة .. رنة الجوال تشير إلى رسالة .. فتحت الرسائل قبل أن تنهمر الاحتمالات على رأسها و تغرقها بأموج الحيرة ..

" جدتك توفت الليلة .. نامت و ما صحت .. الله يرحمها .. "

كيف يمكن للنفس أن تخلو فجأة من كل إحساس و إدراك و تغدو كصفحة بيضاء نقية .. ليس ثمة دمة حزن أو حرقة قلب ليس ثمة كآبة تغمرها على فراق انسان كان لها في يوم من الأيام جزيرة آمنة وسط بحر هائج ..

" ليش كل الناس بتحب الله بس ما حدا بيحب يروح لعنده ؟ "

تذكرت عبارة جدتها التي كانت تكررهما كلما رأت أحدا يخاف من ذكر الموت .. و كلما رأت أحدا يبكي و ينوح على فقيدته كانت تهز رأسها عجباً :

" بني آدم راجع عند ربّه , ليش بيزعلوا عليه ؟ "

هي ليست حزينة على موت جدتها .. على العكس تشعر بالسعادة لأجلها .. لا بد أن روحها الآن مطمئنة .. بعد حياة طالت مئة عام ..حتى غدت أسيرة الله في الأرض .. هي التي ذكر الرسول عليه الصلاة و السلام أن الله يستحي أن يعذبها .. يحزنها فقط أنها لم تكن إلى جوارها عندما فارقت روحها جسدها لتراها قبل أن تغادر هذا العالم .. لعل موتها كان هادئاً مثل حياتها .التي مرت كنسمة لطيفة تنعش كل من تهب عليه .. و كأن قلبها حدثها أنها ستموت بعيداً عن بيتها و أرضها .. لطالما سمعتها توصي و تكرر وصيتها أمام الجميع..

" وين ما بموت بتدفنوني .. الأرض كلها لله .. و الروح بترجع عند ربها مو مهم وين ما كان هالجسم يكون كله رح يرجع للتراب .. "

حتى لو لم تكن تلك وصيتها فمن أين لهم أن يعودوا بها من الأردن إلى الزبداني الآن .. كما قالت ,الأرض كلها لله و لكن يبدو أن البشر لا يفهمون هذه الحقيقة ..

رنة الجوال .. إشارة من ابتسام .. شغلته تأملاتها عن النزول في الوقت المعتاد .. تناولت حقيبتها و انطلقت مع ولديها على عجل ..

__ " السلام عليكم ..أسفة جدا .. ما انتبهت للوقت .. "

- __ " خير .. إن شاء الله .. خير .. "
- __ " آه" "
- __ " سلامتک من الآه .. و الله يا سلام .. ما بعرف شو بدي قلک .. بس صاحب زوجي حكي معه امبارح .. عمل اتصالاته و سأل .. "
- __ " على شو ؟ "
- __ " زوجك ما غادر الإمارات .. ما لو اسم بأي منفذ حدودي .. زوجك على الأغلب لسه بالإمارات ما طلع منها .. "
- __ " آه نسيت الموضوع و الله خير .. "
- __ " نسيتي الموضوع ؟ لا .. و الله .. لكن ليش زعلانة .. ؟ "
- __ " زعلانة من حالي لأنني موزعلانة .. "
- __ " ههههههه .. حلوة هاي .. و على شو بدك تزعلي .. "
- __ " توفت ستي بالأردن الليلة .. و دفنوها .. الله يرحمها .. "
- __ " آه . الله يرحمها .. سبحان الله .. و ليش موزعلانة ؟ "
- __ " ما بعرف .. مو حاسة انه الموت بيزعل .. يعني شي حلوانه الواحد يرجع عند ربه . صح ؟ هيك كانت تقول ستي الله يرحمها .. "
- __ " هههه أي و الله .. الله يرحمها معها حق .. يعني شو فيها هاي الدنيا .. أي لكن ليش بدك تزعلي ؟ "
- __ " ما بعرف .. يعني مو مفروض انه الميت منزعل عليه .. بس أنا حاسة حالي مبسوطة إلهي يعني حاسة انها هله بتكون مرتاحة . مو هيك ؟ "
- __ " لا إله إلا الله .. يعني حتى لو خلصنا من الخرافات ضميرنا بيوجعنا لأنه خلصنا منها .. و الله حالتنا حالة . ما الها دوا . لا حول و لا قوة إلا بالله .. فكرتي كيف رح تروحي عالمدرسة الاسبوع الجاي ؟ "
- __ " يمكن ما روح .. ما بعرف . "
- __ " شو رح تاخدي إجازة و تحزني .. ؟ "
- __ " لا .. على شو ؟؟ بس صارت معي شغلة .. ما بعرف احتمال ما كمل بالمدرسة ... حسب .. "
- __ " آه ... بتكوني دخلت بقصص البنات و مشاكلهم .. قلتك ما سمعتي مني .. يا الله .. أنا و جوزي بلا شغل و رح نصير بلا اقامة و انت بلا شغل و بلا جوز .. عين الله علينا .. يا الله رح اسكت احسن ما ادخل بشي سيارة و نزيد فوق المصابيح مصيبة .. "
- __ " لا حول و لا قوة إلا بالله .. بتفرج بإذن الله .. "

" أي لكن بتفرج .. لا تفكري بشي .. الله بيفرجها .. اسمعي .. الليلة مشوار الخميس على حديقة مشرف .. شو رأيك ؟ كلهم طالعين بدهم يشووا و يسهروا .. بتبسطي انت و الولاد .. اعملينا كيكة هيك من كيكاتك اللذيذة .. بمر باخدك بعد المغرب .. شو قلتي ؟ "

" لا .. لا .. لا .. ما بقدر . شو مشرف و ما مشرف .. لا .. كيف بدي روح .. كل وحدة رايحة هي و جوزها و أنا هيك لوحدي لا .. و أصلا مالي نفس روح محل .. لا . "

" براحتك .. بس فكري .. بتصل فيكي قبل ما نطلع . إذا غيرت رأيك بمر عليكي .. يعني مشان الولاد . بينبسطوا و يلعبوا . "

" على خير ... الحمد لله .. الله يمرق هالنهار على خير .. يا رب .. "

عطش

" تماغس بعدان يسود و غداس نوفنا غادس .. تماغس بعدان يسود و غداس نوفنا غادس .. "

" انا سأقوم بالخروج من الجسد . سأدع نفسي أنام و لكني سأستحضر الوعي اليقظ .. النفس الواعية .. معي هنا .. سأصطحب الوعي أينما أذهب . سأترك جسدي .. سأغادر جسدي و أنا بكامل وعيي بنفسي . لا أعرف أي وقت من اليوم هذا لا أرى نورا و لا ظلام ربما يكون الضحى .. نمت نوما طويلا نمت على عطش .. وها هي اليقظة الأولى .. "

أنا في غاية العطش .. أطفأت التكيف قبل أن أنام و لم أشرب الماء منذ ليلة البارحة .. طعم الملح في حلقي .. جوفي يشتعل كحفرة جمر .. تناولت حفنة من الملح و لم أشرب .. الماء هنا أمامي أراه يتفرق في الكأس الشفاف و أنا في غاية العطش . عندما يفوق العطش قدرتي على الاحتمال ستخرج نفسي الأثيرية لترتوي .. "

... الآن سأنام و عندما أدخل في الحلم سينهض جسدي الأثيري و يسير إلى الماء .. سيمسك كأس الماء .. و يصبها على الأرض ثم يحلق عاليا .. نفسي الأثيرية لا تشعر بالعطش .. لا تشعر بالجوع و لا بالرغبة .. "

هذه هي النفس التي أريد أن أعيش بها .. نفسي النجمية الشفافة التي لا تقهرني بحاجتها لشيء .. و لا تحزن و لا تفرح .. تمر على الدنيا و لا تدع الدنيا تمر عليها .. حالما تخرج مرة واحدة و أعيش هذا الشعور سأعرف معنى الوجود الحقيقي .. "

سأخلي ساحة الوعي من كل الشوائب لتصبح نظيفة كغمامة بيضاء في السماء

" تماغس . بعدان يسود و غداس نوفنا غادس .. "

لا أفكر بشيء

لا أريد شيء

لا أرغب بشيء

لست حزينا و لست فرحا .. لست نائما و لست يقظا لست شبعانا و لست جائعا أنا فقط عطشان للغاية

جوفي يشتعل عطشا و لكني

لا أريد الماء

الماء أمامي هنا و لكني لا أريده

أنا أملك نفسي .. أملك رغبتني .. أنا انهض الآن .. أسير إلى الماء .. كأس الماء أمامي .. الماء صاف و شفاف .. الماء في الكأس و سأمسك الكأس الآن .. الكأس يتسع , يتسع كثيرا .. يصبح بركة ماء بارد .. البركة صافية و فيها أسماك ملونة تسبح في الماء .. ماء ..

أمد يدي و أغرف غرفة . ماء ..

الماء منعش .. برودة الماء تسري في جسدي الأثيري .. أرتعش .. أرغب في مزيد من البرودة .. ماء ..

أدخل يدي في البركة حتى الذراع حتى الكتف ,, أدخل في الماء بجسدي الأثيري .. يغمر الماء صدري و يسيل على جسدي كله .. يتسلل الماء إلى نفسي يتخللها تتداخل نفسي مع الماء يصبح جسدي رقيقا سانلا شفافا. يصبح ماء يموج في ماء . نفسي الأثيرية تتلاشى تتماهى و تختفي لا أرى شيئا .. ليس هناك سوى ماء .. ماء .. ماء ..

رذاذ

باص المدرسة هذه المرة لا يزدحم بالبنات .. فريق كرة السلة فقط و معلمتين مرافقتين للتصوير ..

وجوه الفتيات لوحات بهجة ملونة .. عيونهن مشرقات بالبشر , بنظرة كسرت رتابة الأيام المكررة و عرّجت على فرح لا يأتي كل حين .. لا يأتي غالبا لوحده بل ينتظرك ككنز دفين تحفر و تنقب بكلتا يديك حتى تصل إليه و تسعد به ..

اللحظات تأتي حاملة معها إجابات للحظات مرت مثقلة بالتساؤلات .. بعض

هذا الصباح عندما نهضت من رقاد تأرجح بين النوم و اليقظة .. تمللت في مضجعتها الضيق .. تساءلت في نفسها و هي تستجدي صحوة تفتح جفنيها المثقلين .. ما الذي يجعلها تنهض باكرا و تجري لتأخذ مجموعة من الفتيات إلى الملعب يجرين خلف الكرة .. ثم تعود بهن من حيث أتت .. ليتابعن أيامهن المكررة و المعتادة كما سبق ؟ أي معنى للفوز أو للخسارة و ما الجدوى من كل هذا ؟

الآن ترى الجواب في عيون البنات .

ليس هناك أجمل من أن تهدي لحظة فرح لإنسان .. ذكرى جميلة يخبئها في خزانة ذاكرته.. يستدعيها في لحظة ينفذ فيها رصيده من الفرح .. يتفياً ظلها في هجير المحن و يتعلق بها إذا ما ألقاه الهم في بحار اليأس المتلاطمة .. يتذكر أنه في يوم من الأيام مرّ من طريقه الفرح .وأنه لا بد أن يعود إليه مرّة أخرى كما جاءه من قبل .

ستكون هذه هديتها لفتيات ربما لا تجمعها بهم الأيام مرة أخرى .. كما أهدتها جدّتها لحظات فرح كثيرة .. رحلت جدّتها و بقيت هداياها ذكريات تستدعيها لتسعد بعقبها و تكسر بأنسبها وحشة اللحظة الكئيبة .

__ " مس سلام .. ممكن أقعد جنبك . "

__ " أهلا هادية .. طبعاً افضلي .. كيف استعدادك للمباراة ؟ "

__ " تمام .. راح نفوز أكيد .. تعرفي مس سلام .. احنا وايد حبيناي .. المس اللي كانت قبلك ما كانت تعمل معنا هيك .. يعني يادوب تعطينا كرة و تقلنا روحوا العبوا .. هاد إذا ما أخذت الدرس معلمة الماث و لا السيانس .. انت خليتينا نحب السبور ... احنا نتمنى تبقي معنا.. "

__ " آه .. شكرا هادية .. و أنا حبيتكم كثير .. يعني ان شاء الله أبقي معكم . "

__ " يعني بس حسب .. تعرفي مس؟ .. امبارح كانت أمي رايحة المنطقة بدها تشوف وحدة صاحبها و تحكيها على الموضوع اللي زعجها يوم اللي اجت على المدرسة .. تعرفي .. امبارح قعدنا سوا أنا و ماما و كتبنا تقرير عن الموضوع اللي حكيناه بالصف يعني حاولت أتذكر كل شي .. كل شيء . "

__ " آه .. "

__ " بس أنا ترجّيتها ما تروح امبارح و تأجل روحتها لليوم بعد المباراة .. و يعني .. هي ممكن تروح و ممكن لأ .. حسب . " __ " حسب ايش ؟ "

__ " انت تعرفي مس سلام .. "

__ " أيوه .. آه .. طيب اسمعيني هادية .. بغض النظر عن رأيك بتمارا . انت بتعتقدي ان من حقك تتحكمي بحياتها بأنها تعمل شيء أو ما تعمله بتتصوري أحد يتحكم بشيء بيخصك و يفرض عليك شيء ؟ بتخيلي كيف رح يكون شعورك ؟ "

__ " مس .. أنا ما أحد يقدر يفرض علي شي .. "

__ " و الله ! .. طيب انت بنت متعلمة و بتفهمي بالمنطق صح ؟ إذا انت شايفة ان زميلتك على خطأ واجبك انك تساعدتها تصير صح .. صح ؟ يعني لو انت زعجتها و كسرت خاطرها لا هي رح تستفيد و لا انت رح تستفيدي .. طيب و انت ايش اللي زاعجك في تمارا ايش عملتك ؟ "

__ " ما عملتلي اشي .. ما بحبها . بس هيك . و طبعاً أنا رح أستفيد .. الكل راح يعرف ايش بيصير باللي بيتحداني .. "

__ " أيوه .. نعم .. بس يا هادية مشاعرنا شي و تصرفاتنا شي تاني .. عدم محبتنا لإنسان مو ممكن يكون سبب لأننا نأديه . مع هيك هاي الأيام رح تخلص و تطلعي للدنيا , لحياتك , يعني لو كل انسان ما بتحببه بذك تزعجيه و تتحكمي بحياته حياتك رح تكون صعبة كثير انت رح تتعبي أكيد "

" يعني ما رح تطلعها من الفريق .. "

" لا . "

" لا !. خسارة مس سلام .. و الله أنا كنت أحب تكلمي معنا .. يا الله .. "

قطرات مطر خفيفة تنهمر على نافذة الباص .. لعل السماء اطلعت على البؤس الذي يرمي به البشر بعضهم بعضاً أم لعلها أحست بدموعها التي حبستها في أعماقها فأرسلت لها طلاً يشاركها حرقه الخيبة .. مطر موحل محمل بالغبار , ألقى زخة قصيرة و توقف.

" بنات .. في مطر اليوم ؟ "

" لا مس .. بالنهار ما في .. بس بالليل راح يكون مطر كثير و الجمعة صحو .. حسب النشرة "

" خير .. "

" مس سلام ممكن أحكيكي كلمتين ؟ "

" طبعا تمارا .. اتفضلي .. "

" مس احنا منحبك كثير و بدنا تبقي معنا .. "

" أي .. ان شاء الله .. "

" مس... هادية حكيت للبنات أنه أمها راح تروح المنطقة و تحكي عنك .. و أنا ما بدني أكون السبب في أنك تخسري شغلك .. مس .. الموضوع مو مستاهل .. "

" تمارا .. انت برأيك أنا عملت شي غلط ؟ "

" لا مس .. بالعكس .. انت كلامك كان كثير حلو و كله منطوق و حقيقة . "

" شوفي تمارا أنا ما أعرف شو اللي بينك و بين هادية .. و لا بدني أعرف .. بس بسألك سؤال بسيط .. أنت أذيتي هادية في شي ؟ "

" لا و الله يا مس .. أنا ما أذيتها ... هي طلبت مني شي و أنا رفضت .. و هي ما تقبل أن أحد يردلها كلام .. بس أنا ما غلظت فيها هي اللي غلظت بي و تطلع علي كلام مو صحيح و أنا ما رديت عليها .. أنا أعرف أنني ما أقدر عليها بس ما أريد أنك تتأذي بسببي "

" لا تخافي تمارا .. ما أحد يقدر يأذي أحد بشيء مو الله كاتبه عليه .. بدني تفهمي شي ضروري .. مو بكفي انه نحنا نكون صحو و ما نعمل غلط.. كمان مهم كثير انه ما نسمح للغلط يمر من خلالنا .. فهمتي علي ؟ "

" فهمت مس سلام .. فهمت .. "

" بنات .. اسمعوني لحظة .. بدني أقول شغلة .. هلاء رايحين نلعب مباراة مع فريق تاني .. بدني منكم تفهموني .. احنا تدرينا و حطينا خطة و كل شي بس لما منزل الملعب, بدنا نلعب من غير ما نفكر بشي .. بدنا نلعب هيك لأن اللعب بيخلينا سعداء و مبسوطين من غير ما نفكر بالفوز أو الخسارة .. بدنا نلعب حتى نعيش لحظات حلوة تبقى بذاكرتنا على طول .. و بدني كمان انكم تتذكروا دائما أن الرياضة شي

مهم كثير بحياتنا مو مسألة ترفيه أو تضييع وقت.. لا .. الرياضة بتمنحنا جمال روحي و جسدي .. بتخلي الطاقة السلبية تنصرف من نفوسنا و أجسادنا و بتخلينا أرقى و أسعد . مهما كان الظرف اللي نحننا عايشين فيه الرياضة لازم تكون جزء أساسي من نظامنا . نمشي نركض, نقفز و نسبح نتحرك و ما نركن للكسل و الخمول . بدي هاي تكون وصية نتذكروني دائما فيها .. "

_ " مس .. ليش عم تحكينا هيك كأنك بتودعينا ؟ "

_ " أي لحظة منعيشها مع انسان ما منقدر نعرف اذا رح ترجع مرة ثانية و لا لأ. بكرة غيب, و الغيب ما بيعرفه الا الله .. لهيك لازم دائما نحاول نخلي اللحظة اللي منعيشها لحظة حلوة لأنها ممكن كتير تكون الأخيرة .. يا الله بنات قربنا نوصل خلينا نحضر حالنا .. "

ليلة الجمعة

باب البيت بوابة مغارة طويلة و مظلمة لا يبين لها نهاية و لا قرار . اليوم مضى و انتهى . و الغد أعماق محيط مظلم و شاسع يتسع لكل الاحتمالات .

اسبوع كامل و راتب ليس هنا .. فقط ليس هنا. من غير أي معنى آخر ..

ألقت حقيبتها على الطاولة و جلست على الأريكة و اضعه رأسها بين كفيها ساهمة في القادم المجهول .. تطوف بخاطرها عينا تمارا المترعتين بالبهجة فيملوها يقين أن الفرحة الذي أهدته لإنسان لا بد عائد إليها .

تعاودها عينا هادية اللتان كانتا تقدحان شررا فتيقن أن عليها أن تقوم الآن بالاتصال بالأرقام التي جمعتها من جريدة الوسيط و السؤال عن فرصة عمل قبل فوات الأوان .

_ " السلام عليكم .. أتصل بخصوص الاعلان عن طلب مدربة رياضة في النادي عندكم "

_ " و عليكم السلام .. أهلا .. حضرتك عندك خبرة في النوادي الرياضية كام سنة ؟ "

_ " الحقيقة أنا مدرّسة رياضة بس على اطلاع دائم على تمارين الايروبيك و اللياقة البدنية و تمارين شد العضلات و نحت الجسم و حتى تمارين اليوغا الخاصة بعلاج بعض الأمراض . "

_ " أيوه .. عندك اقامة ؟ "

_ " نعم .. "

_ " عندك سيارة ؟ "

_ " لا الحقيقة .. لا .. ما عندي .. "

_ " طيب أعتذر منك حبيبي . النادي في دبي و ما في مواصلات .. أتمنى لك التوفيق . "

" شكرا . "

الرقم الثاني عرض عمل لنصف دوام .. و النادي في الشارقة .. سحبت نفسا عميقا و طلبت الرقم بهدوء

" السلام عليكم .. أتكلم بخصوص اعلانكم في جريدة الوسيط عن وظيفة مدربة رياضة .. "

" نعم .. نعم .. بس احنا نريد مدربة للفترة المسائية يعني من ستة لثمانية .. "

" أيوه .. مو مشكلة .. "

" طيب .. في اقامة ؟ "

" نعم . "

" عندك سيارة ؟ "

" لا .. "

" مو مشكلة .. النادي فيه مواصلات .. طيب .. كام خبرتك ؟ "

" عشر سنوات مدربة رياضة .. و .. "

" كويس .. تمام .. طيب حبيبتى .. ممكن السبت تمرى على العنوان المذكور في الاعلان .. و نشوفك .. وإذا اتفقنا يكون خير .. "

" إن شاء الله .. شكرا . "

الرقم الثالث يطلب مدربة رياضة خصوصي . لا بد أن هناك سيدة مترفة لا تعرف من الدنيا سوى الانشغال بجمالها و مظهرها و سيكون عملا مملا أن تمنح وقتها لها .. هذا النوع من النساء يصيبها بالضيق . لا تتخيل أن في مقدورها احتمال تمضية ساعة من الوقت برفقتها تستمتع لثريتها و لغوها التافه .. استبعدت الرقم و طلبت رقم النادي الأخير الذي أخذته من الجريدة .

" السلام عليكم .. أتكلم بخصوص عرض العمل في جريدة الوسيط بالنسبة لمدربة رياضة و .. "

" آسفة . أعتذر منك .. لقينا مدربة .. "

" أيوه .. شكرا .. "

حدقت لوهلة في الرقم الأخير .. تخيلت نفسها تقف أمام امرأة مصبوغة بالألوان مشنشلة بالزينة كشجرة الميلاد تخشخش الحلي على جسمها كيفما تحركت .. امرأة محاطة بألوان الترف و الرفاهية و تقف هي أمامها لتكمل لوحتها المترفة كجارية في بلاط أمير .. أحست بنفسها يضيق و بصداق يضرب أسفل رأسها كمطرقة .. أغمضت عينيها و كورت الورقة في يدها و هي تدير رأسها حول عنقها على مهل .. استجمعت شتات نفسها بإصرار فتحت الورقة و طلبت الرقم . قبل أن تنتهي الرنة الأخيرة سمعت صوتا هادئا :

" السلام عليكم . "

- .. " السلام عليكم . أتكلّم بخصوص الاعلان في جريدة الوسيط بالنسبة لعمل مدربة رياضة خصوصي .. "
- .. " نعم .. نعم .. حضرتك مدربة مختصة ؟ "
- .. " نعم معي شهادة أكاديمية في التدريب الرياضي .. و .. "
- .. " نعم .. طيب .. الحقيقة أنا أحتاج مدربة مختصة .. أنا عندي مشكلة في العمود الفقري و أحتاج تمارين خصوصي يعني ما أعرف إذا عندك فكرة .. "
- .. " أيوه .. عندي فكرة طبعا .. "
- .. " و عندي ترقق عظام بنسبة بسيطة .. يعني ... "
- .. " مو مشكلة في تمارين خاصة لكل حالة .. "
- .. " طيب .. الان أبعثك العنوان على هذا الرقم و ممكن تقدرني تجي السبت الصبح ؟ .. أنا لازم التدريب يكون في الصبح يعني إذا كان مناسب منتفق و الفلوس ما نختلف عليها بإذن الله .. "
- .. " بإذن الله .. السبت صباحا .. ان شاء الله خير . "
- الاحساس لا يكون دائما صادقا و النظرة المُسبقة لا تسعف الحدس دوما بحكم صائب .. يبدو أن السيدة جادة حقا في اهتمامها بالتدريب و أن الأمر لن يكون رفاهية مترفة لأجل التبرج بصورة حضارية لامرأة تهتم بجمالها و لياقتها. يبدو من صوتها أنها في حاجة حقيقية لترميم جسد أضناه الركون و الاهمال بعيدا عن ضوء الشمس و الهواء .. سيكون أمرا رائعا مساعدة انسان على استعادة توازنه على طريق الحياة الصحيح .. ولكن
- من يساعدها هي أيضا على استعادة توازنها و العودة بقاقلتها الصغيرة إلى الطريق الآمن ..
- لا أحد إلا عون الله و همّتها ..
- .. " ماما .. راح نروح على مشرف مع خالة ابتسام ؟ "
- .. " لا حبيبي .. ما رح نروح .. ممكن المرة الجاية .. "
- .. " لا .؟. ليش ماما .. خلينا نروح .. رح يشووا كباب و فروج .. و يلعبوا بالطابة .. و نحنا بدنا نضل هون بالبيت .. "
- .. " "
- .. " أي ماما خلينا نروح الله يخليكي .. لمى رفيقتي قالتلي اليوم انهم كمان رايعين و امها عملت سنبون مشان الروحة "
- .. " "
- .. " ماما انت ما تحبيننا ننسب .. بدك تخلينا هيك بالبيت زعلانين .. "
- .. " "

بعض البكاء حزن و بعض البكاء حنين . بعض البكاء ضعف و بعضه خوف و لكن عندما يكون كل أولئك معا دفعة واحدة يكون فوق ما تطيقه النفس و تحتمله فتحتمس الدموع في العيون تأبى الاتهمار لتجعل كل شيء في الإنسان, ماعدا عينيه, يجهد بالبكاء . أحيانا لا نكون متعبين لأننا ضعفاء و لكن لأننا كنا أقوياء لفترة طويلة . فترة أطول مما يحتملها حبل مشدود يحتاج لقليل من الاسترخاء و الراحة حتى لا ينقطع .

ما تعيشه الآن ليس أسوأ ما حدث لها في حياتها , و لكن مشاعرها في هذه اللحظة أشد و أثقل و طأة على نفسها من كل ما اختبرته في نفسها من أحاسيس و مشاعر من قبل . تشعر أنها أضعف من أن تكمل المشوار لوحدها هكذا . تشعر أنها في أي لحظة قد تضعف يداها و تترك الدفة لتمضي سفينتها بلا اتجاه و لا مسار حتى يوقفها شاطئ أو صخرة في عرض البحر تحيلها أشلاء ..

هل تحمل ولديها و تمضي إلى الأردن عند عائلتها لتتضم إلى قافلة المنكوبين الذي يعيشون على بطاقات المعونات . أم تذهب إلى تركيا عند أخيها و تبدأ من جديد دوامة البحث عن عمل و بيت و أمان .

راتب لم يغادر الامارات .. أين هو إذا ؟ و لم لم يخبرها بما يجري له أو عليه أو فيه ...

هل أضناه فجأة طول الطريق فقرر أن يترك جملة و يمضي لوحده بلا أعباء و لا أثقال .. راتب لا يفعل هذا . و لكن لا شيء ثابت في هذا العالم .. كل شيء يتغير . كل انسان يتغير و راتب انسان .. و هي انسان .. و .. آه

هل تراه حقا أحسن بما يجول في خاطرها فقرر أن يدعها و ما تريد ؟. أن يخلي لها المكان حتى لا تنغصها رؤية خمولة و لا تستفزها سلبيته و ركونه ؟ و بعد... هل يمكن أن تكون تلك المقولة التي تكررها النساء صحيحة .؟ هل صحيح أنه " ظل راجل و لا ظل حيطة " هل صحيح ما تقوله العجائز " وجوده رحمة و لو كان فحمة " ؟ و إلا لماذا تشعر أن لغيابه هذه المرة طعما مريرا غير ما اعتادت عليه في أيام غيابه الطويلة .. ربما لأنها هذه المرة كانت سببا في ذلك ؟ أم لأن غيابه دائما ما كان أمرا عاديا تعرف فيه مكانه و ماذا يفعل و كيف يمضي وقته . تعرف أنه هناك حيث تستطيع أن تجده في أي وقت تحتاجه و أنه سيكون حاضرا في أي شيء تطلبه .

كثير من النساء يعشن وحيدات بلا رجل و لا معين إلا رب العالمين .. كم من قريباتها و بنات بلدها الشبابات لم يبلغن الثلاثين من العمر , فقدن أزواجهن في الحرب الآن و على أكتافهن حمل ولد وولدين و ثلاثة .. كيف يكملن حياتهن هؤلاء ؟

كيف ستكمل حياتها إذا لم يعد راتب ؟

هل ترسل صور الجوازات لابتسام و تدعها تقدم لها طلبا للهجرة .؟ تحمل ولديها وتمضي في قوارب الموت ؟ تصل أو لا تصل .. تصل بولد واحد أو ربما يحالفها الحظ و تنجو بولدين ؟ و هناك تبدأ من المجهول ؟ لسان آخر و عالم آخر بمفاهيم و رؤى مختلفة عليها أن تقبلها سواء أعجبتها أم لم تعجبها . حيث لا تملك أن تربي أولادها حسب رؤيتها و إنما يفلت الزمام من يدها ليحرفهم في تيار المجهول . لماذا يريد العالم للسوريين أن يغيروا جنسيتهم و يأخذوا جنسيات أخرى لا علاقة لهم بها ؟ هل هو صراع البقاء الذي وقع السوريون في دوامته الآن و الجميع من حولهم يتفرجون عليهم كما يشاهدون مسلسلا دراميا سخيفا .؟

رنة جوالها تنبهاها من شروود طويل نسيت فيه ولديها و غدائهما .. اتصال من ابتسام . ربما تريد تذكيرها بمشوار الليلة .

_ " السلام عليكم .. كيف حالك هلاء ؟ غيرتي رأيك مشان المسا و لا ؟ "

_ " و عليكم السلام . أهلا ابتسام . لا و الله مو حابة أروح .. عندي شغل بالبيت و هيك يعني .. "

_ " طيب . براحتك .. بس هلاء قومي ابعتيلي صور الجوازات على الموبايل.. زوجي رايح هلاء مع واحد صاحبه على مكتب بدهم يقدموا طلبات .. و منقدمك معنا مو خسرانة شي . "

_ " طيب . ماشي .. على خير . "

_ " سلام . أمانة يلزمك شي ؟ بدك مساعدة ؟ أجي لعندك هلاء مو ضروري أروح المسا معهم ترا ما عطيتهم كلمة إذا بدك اجيك هلاء . "

_ " لا لا سلامتك لا و الله و لا شي .. الحمد لله .. شكرا كتير ابتسام . "

_ " شو شكرا ولي .. شو أنا بالرسبشن يعني .. "

_ " ههههه لا و الله بس عن جد إذا لزمني شي بتصل فيكي .. عن جد شكرا .. الله معك . "

_ " الله معك . "

منظر كرات العجين في البراد جعلها تبتسم .. أول مرة تترك العجين يومين دون أن تخبزه . أخرجت الصينية و وضعتها على الطاولة . هذه الليلة ستخيز الأربعة و تحضرها لطور صباح الجمعة .. طافت بخاطرها صورة راتب يلتهم رغيفا ساخنا على عجل .. ربما تكون من نصيبه احدى هذه الأربعة .. الغد في علم الله . أخرجت الصحون لتسخنها و تضع الغداء لولديها .. ألم الجوع يقرص أمعائها الخاوية منذ الصباح , مع ذلك منظر الطعام يشعرها بالغثيان .. عندما يتنافر الجوع و الشهية يصبح الجسد ساحة لصراع مؤلم يشنت الفكر و الاحساس .

وضعت أطباق الطعام على الطاولة و صاحت على ولديها ليتناولوا غدائهما ثم تذكرت اتصال ابتسام فتركتها و ذهبت إلى الخزانة لتقوم بتصوير الجوازات و ارسال الصور .

شعرت بنفسها و كأنها انسان آلي يسير مُبرمجا في اتجاه مرسوم .. هل حقا تريد الهجرة إلى بلد آخر لا علاقة له بها من قريب أو بعيد لا يعنيه و لا تعنيه في شيء . في مكان عليها أن تحترم الكلب كإنسان لأنه يكون أحيانا شريك حياة أو أخت أو صديقا وفيها لإنسان أضنته صحبة البشر . أضحكها الصورة .

مدت يدها إلى رف الخزانة حيث الأوراق و الملفات المهمة و الجوازات . تناولت ظرف الجوازات فانسحبت معها مجموعة أوراق هوت إلى الأرض . إيصالات دفع رسوم المدرسة و إيصالات الكهرباء و النت و إيصالات أخرى همت بإرجاعها إلى مكانها دون الاطلاع عليها لولا أن استوقفها إيصال بلون مختلف .. سحبته من بين الأوراق و فتحته تقرأه على عجل .

إيصال تحويل مبلغ منتي دولار إلى لبنان . المرسل راتب مصطفى و المستلم خديجة حسن .. تاريخ الإيصال أول الشهر الماضي .. أمسكت بالورقة بذهول و تدافعت في رأسها أفكار شتى .

من هي خديجة حسن ؟ لم تسمع بهذا الاسم من قبل . ترى هل يكون لراتب أقرباء لا تعرفهم .. ولكنها تعرف أهله كلهم في البلد و خارج البلد .. لا تذكر أنه ذكر هذا الاسم أمامها مرّة . مدّت يدها إلى رف الخزانة مرّة أخرى و سحبت جميع الأوراق .. فتحت الملفات و الظروف المغلقة .. هناك ثلاثة ايصالات لنفس شركة التحويل وسترن يونيون .. نفس اسم المرسل و اسم المستلم .. و التاريخ أول الشهر . المبلغ نفسه , منتي دولار مرسل على رقم موبايل لبناني .

هل يُعقل أن يكون لراتب زوجة ثانية ؟

سؤال تدفق في رأسها كحمم بركان ثار فجأة بعد ركود طويل .

ألهذا تراه كان غير مبال بوحدته راضيا أن تبقى في بلد و هو في بلد .. ألهذا لم يلح عليها في القدوم إلى الشارقة إلا بعد الحرب .. تراه يشبع رغبته من خديجة تلك ثم يأتي إليها مُملا مُستهلكا لا رغبة له في شيء . هل عاشت كل تلك السنوات غبية مغفلة لا تدري أين يمضي بها المركب و هي تخال نفسها ذكية توجه الدفة أينما تشاء ؟

لهذا اختفى و تركها تتخبط لوحدها في أول اسبوع من اجازته . لعلّ خديجته هنا الآن يمرحان معا في منتجع ساحر أو يتمتعان في فندق فخم .. و لكن راتبه موجود على رف الخزانة لم ينقص منه درهم و حتى راتب الاجازة كما هو . هل يمكن أن تكون سيدة ثرية تغدق عليه من مالها و تسرف عليه بأنواع الدلال .. ربما تأتي إليه كل حين هنا بينما هي تمضي وقتها في البلد تنتظر اكتمال المبلغ لتحقيق حلمها الغبي و زوجها يتنعم في أحضان امرأة أخرى تعرف قيمته و حقه . لا لا يمكنها أن تتخيل راتب بهذه الصورة . ليس راتب الذي تعرفه . و لكن هل تعرف راتب حقا ؟ أم أنها تعرف وجهها من وجوهه و تجهل أشياء تخفي عليها ..

حدقت بالإيصال من جديد . اسم المرأة يثير الغيرة في قلبها نارا , فكيف لو رأتها أمامها مع راتب .. إذا كانت تعتقد انها لا تحبه و تشعر بهذه الغيرة فكيف لو كانت تحبه حقا ما الذي سيحدث لها عندها ؟

ربما عليها أن تقطع الشك باليقين . ها هو الرقم أمامها . ليس عليها إلا أن تتصل عليه و تسأل , ربما يكون الأمر على غير ما تظن . تناولت جوالها بيد مرتعشة و كأنها على وشك ارتكاب مغامرة حمقاء لا تضمن نتائجها ..

ينتهي الرنين دون اجابة . لعل صاحبة الجوال ليست في لبنان الان . لعلها هنا معها في نفس البلد تمضي وقتها مع زوجها في مكان جميل ..

عاودت الاتصال بالرقم .. صوت امرأة بعيد يرد عليها :

__ " أيوه .. "

__ " السلام عليكم "

__ " و عليكم السلام و رحمة الله و بركاته . مين معي ؟ "

__ " أنا سلام . زوجة راتب مصطفى .. مين حضرتك ؟ "

__ " آه .. أهلين .. أنا أم سامر .. وين أبو مصطفى ؟ ان شاء الله بخير .. عسى مو صاير معه شي ؟ "

__ " لا .. بخير بس مشغول شوي .. طلب مني اتصل .. و أسألك .. يعني . "

" الله يوفئك يا أختي .. أي و الله صاحب البيت ما عاد يصبر بده الأجرة و الله اليوم أجي و قال إذا ما دفعتنا اليوم بده يزلنا الغراض بالشارع .. الله يستر عليكي .. احكي مع أبو مصطفى إذا ما بيقدر يحول المصاري حتى نعرف شو نعمل . "

" لا .. لا .. هو حضرتك قريبتة يعني .. ؟ "

" لا و الله . هو ما حكاكك يعني ؟ و الله الله يوفقه أبو مصطفى من يوم اللي طلغنا من البلد بيدفعنا أجار البيت . الله يجزيه الخير .. هو ما بيعرفنا بس ولاد الحلال قالوله و هو ما قصر الله يخليه ولاده و أهله .. يعني رح يحول المصاري اليوم و لا لا . مشان نعرف بس لا تأخذيني . "

" لا و لا يهملك .. اليوم بإذن الله بيكون المبلغ عندك .. على نفس الرقم ؟ "

" أي و الله يا أختي على نفس الرقم . بس لا يكون في ثقله إذا أبو مصطفى مو مستفضي .. "

" لا .. لا .. و لا ثقله و لا شي تكرم عينك .. على خير بإذن الله .. الله معك . "

أغلقت الخط و أفلتت الأوراق من يدها على الأرض .. تمننت للحظة لو أن ألف فردة حذاء تضرب رأسها مرّة واحدة .. لم تدر أي من الكلمات القبيحة تصف بها نفسها .. تلك التي كانت تشمنز لسماع صديقاتها يتفوهون بها فتنهرهم لسوقيتهن و قلة حيانهن . الآن كلها معا لا تكفي لتسكت حنقها و جنونها على نفسها الغبية التي سمحت لها أن تقيم رجلا يعيش معها وتحكم عليه من خلال ما تراه منه و ما تسمعه .. راتب يعيل أسرة محتاجة ؟ لم لم يخبرها بذلك ؟

و لم عليه أن يخبرها بكل سكنة و حركة يقوم بها ؟ أليس رجلا يتصرف كما يريد ؟

أعدت الجوازات و الأوراق إلى رف الخزانة .. تأملت برهة بينها و بين نفسها .. هزت رأسها بإصرار , لن ترسل صور الجوازات إلى ابتمام .. ستسير الأمور على خير ... سيكون كل شيء على أحسن حال .. هكذا تشعر في أعماق قلبها و ستنتبع حدسها هذه المرة دون قلق .

" مصطفى .. جنى .. خلصتوا الغدا ؟ "

" أي ماما و حطينا الصحون بالمطبخ . "

" البسوا بسرعة بدنا ننزل على صحاري . "

" ماما ! بدنا نجيب البوط ؟ "

" آه .. أي . رح نجيب البوط .. يا الله بسرعة .. "

أمامها في الصف خمسة أشخاص حتى تصل إلى النافذة و تقوم بالمهمة التي كان راتب يقوم بها لسنوات دون ان تعرف هي شيئا , و دون أن يخبرها و يتباهى امامها بالخير الذي يفعله . يراودها احساس أنها تقوم بعمل عظيم .. عمل له نتيجة غير كل تلك الأعمال التي كانت تفخر بها أمام نفسها و تعتقد أنها ذات شأن عظيم . عندما كانت تفقف بين الطالبات و تلقي نصائحها و توجيهاتها عن أسلوب الحياة الصحيح و ضرورة الحركة و الرياضة و التأمل و كل تلك الأفكار التي يضح العالم بها و يجعلها سفرا مقدسا في حياة المنعمين المترفين بينما أناس آخرون يتلونون من ألم الجوع و الحاجة لا تعني لهم

نصائحها الذهبية شيئا أكثر من أساطير تزيدهم حرقه و خيبة على عالم يسمعون به و لا يطالونه إلا في خيالاتهم و أحلامهم .

الآن أم سامر تنتظر المال الذي تأخر أياما .. كيف مرّت عليها هذه الأيام الستة و هي تعيش بقلق تخشى في كل لحظة أن تصبح هي و أولادها في الشارع بلا مأوى و لا سكن .. ترى هل لديها رجل يقوم على حاجتها أم أنها مثل كثيرات من نساء البلد أصبحت أما و أبا في وقت واحد .. هذه هي الحياة , أناس يصلحون و أناس يفسدون, و الأيام بينهم تدور من هذا إلى ذاك , إلى أجل لا يعلمه إلا الله ..

استلمت الإيصال من الموظف و وضعت في حقيبتها و قلبها ينضح بشرا و رضى .. لوهلة شعرت بنفسها خالية من كل إحساس بالضيق و كأن جبال الهمّ التي كانت تجثم على صدرها تفتت و تلاشت كسحب داكنة هبت عليها رياح فرقتها أشتاتا .. الآن تستشعر برودة في قلبها .. برودة أشبه بتلك التي تشيع في الجو قبل انهمار المطر و هطول الغيث الذي يسقي التراب فيعقب برائحة اليُسر و الفُرج .

__ " يا لله تعالوا نشوف محل الأحذية . "

__ " هاي .. يا الله .. ماما .. "

لوحة أخرى من لوحات الفرح التي تتناوب الإنسان كما تتناوب الأرض حالات النور و الظلام, حالات الصحو و المطر و حالات الغضب و السلام .. رؤية مصطفى و هو ينظر إلى الحذاء الرياضي , يلمس بأصابعه النتوءات المطاطية في أسفل الحذاء ثم يقوم ليقفز مبتهجا , كانت هبات نسيم بارد تعدّ بزخات من المطر الذي سيجلو الغبار و يعيد الصحو و الصفاء إلى سمانهم بعد أن كدّرتها العواصف لأيام ..

تنشّقت بعمق عقب اليسر القادم إليهم مع مساء الخميس المميز دائما برائحة السرور .. في سيارة الأجرة فتحت النافذة قليلا و تركت هواء الليل الرطب يلفح وجوههم ببرودته المنعشة . منظر المدينة يضجّ بالحياة .. طريق الذهاب و طريق الإياب كلاهما مزدحمان .. أناس يقودون سياراتهم في طريقهم إلى دبي لتمضية مساء الخميس في حديقة أو مجمع للتسوق و بعضهم عاندين إلى بيتهم بعد يوم عمل طويل يحلمون بعطلة هادئة تنسيهم تعب الأيام المرهقة ..

ما الذي يحمله لهم يوم الجمعة .. ؟ لم يُثر السؤال في نفسها أي قلق هذه المرة .. رفعت رأسها إلى السماء و تذكرت قول البنات في الباص , هذه الليلة ستكون ماطرة و لكن غدا صحو .. غدا سيكون يوما جميلا .. امتلأ قلبها بالبشر و هي تلمح من بين الغيوم الهلال يطل على استحياء ثم يعاود الاختفاء .. ستنجلي بإذن الله .. رددت في نفسها و هي تربت على رأس مصطفى السعيد بتحقيق حلمه العزيز ..

اندفعت إلى داخل المصعد هي و ولديها و قبل أن تغلق الباب أعاد فتحه رجل يلبس لباس عامل دخل بسرعة و ضغط على الرقم عشرة ثم أغلق الباب .. لم تكن من عاداتها مشاركة المصعد مع أحد و لكن يحدث أحيانا أن تجري الأمور على غير ما ترغّب ..

أشارت إلى مصطفى ليمد يده من جانب الرجل الذي يحتل المساحة الأمامية من المصعد و يحجب لوحة الأرقام عنها من أجل أن يضغط على الرقم اثنا عشر قبل أن يقوم أحد بطلب المصعد مرة أخرى ..

بدا الرجل طويلا للغاية و هو يغطي باب المصعد بالكامل .. كان ظهره إليهم و لا يبدو من وجهه شيء . أحسّت سلام و كأنها تكاد تلتصق بجدار المصعد و هي تعود للوراء متجنبّة رائحة العرق النفاذة التي

تفوح من الرجل و تكاد تفقدها الاحساس بأي شيء آخر .. لا بد أنه عامل منهك من التعب يمضي نهاره كله في الشمس ينضح جسده بالعرق بالتعب و برائحة رجولة كامنة ..

لثوان قليلة شعرت و كأنها تتنفس تحت الماء .. أحست بجسدها يرتعش و ينتفض و كأنها تصارع الأمواج من أجل أن تخرج رأسها من تحت الماء و تأخذ نفسا من الهواء .. أغمضت عينيها محاولة الخروج من هذا الاحساس الطاغي .. سمعت صوتا بدا لها و كأنه صدى صيحة بعيدة أطلقت من بعد سحيق .. شفتا جنى تتحركان بشيء لا تبين منه سوى همس كحفيف أوراق في الريح .. صورة مصطفى و جنى تتماهى و تتلاشى أمام عينيها .. ظهر الرجل أشبه بحاجز عملاق يحجب عنها الهواء و النور .. تكاد تفقد الاحساس بكل شيء .. يطوف في داخلها ضباب يُغيبُ كل ادراك ..

فجأة يُفتح الباب و يخرج الرجل .. تعاود الضغط على الباب ليبقى مفتوحا لثوان من أجل أن تخرج الرائحة التي جعلت حواسها تختلط عليها فلا تترك ما يتخبط في صدرها من احساس .. و كأنها عادت إلى الحياة من غيبوبة قصيرة .. توقف المصعد في الطابق الثاني عشر فاندفعت إلى باب بيتها و أسرع لفتح الباب ..

بشكل غريب للغاية و كأنها شخص آخر , و كأن أحدا يدفعها باتجاه غرفتها , لأول مرة تشعر أن شيئا في داخلها يسيئها , شيء خارج عن ارادتها و تفكيرها المتزن .. تتناول قميص راتب عن علاقة الملابس و تغمر به وجهها و هي تسحب نفسا عميقا تملأ به رنتيها كلها برائحة زوجها .. لوقت لم تدر كم طال كان قميص راتب بين يديها تتنشق رائحته و صدرها يضطرب بأنفاس متسارعة . تهدأ فجأة و تجهش في البكاء كغريق خرج للتو من لجة هانجة كادت أن تسحبه إلى الأعماق ...

تاء التأنيث الساكنة ملّت السكون .. تجيش باضطراب في حماة الجنون .. ترنو لبعض كسرةٍ أو ضمةٍ حنون .. لسكينة تغمرها .. تجلو عنها السكون ..

ما الذي حل بها الآن و لم تنتفض هكذا كسمكة خرجت من الماء ؟

صوت مصطفى يصحياها من شرود غرقت فيه و هي ترشق وجهها بالماء تغسله مرات و مرات بلا توقف .. أمام المرأة في الحمام لمحت وجهها لامرأة أخرى . امرأة جديدة تتكشف ملامحها كنخلة باسقة تحت المطر تغسل عنها الأمطار رمال العاصفة التي غطتها و أخفت جمالها عن العيون ..

__ " ماما .. شوفي كيف بقفز بالبوط و بقدر أركض بسرعة كمان . شايفة لو رحنا على الحديقة هلاء كنت سبقتهم كلهم "

__ " مصطفى ! لو رحنا على الحديقة ما كنا قدرنا نشترى البوط اليوم . صح ؟ ما نقدر نعمل كل شي بالدنيا . "

__ " أي صح ماما .. بس هلاء هم مبسوطين و بيلعبوا كرة و بياكلوا كباب .. أنا كان جاي على بالي كباب .. طيب هلاء الساعة لسه تمانة لسه بكير بدنا نقعد هيك زعلانين و بكرة الجمعة ؟ "

__ " طيب شو رأيكم نشوف فيلم على التلفزيون ؟ مندور على فيلم جديد على النت و بعملكم بشار و عصير ؟ "

__ " طيب .. يا الله .. شو في أفلام ؟ .. كلهم منعرفهم .. "

_ " خالة ابتسام قالتلي أنها حضرت فيلم

"Depicable me "

هي و أولادها من يومين و قالت أنه كثير بيضحك .. شو رأيكم نطلعه عن النت "

_ " أي ماما و رفيقتي كمان قالتلي أنه أبوها أخذهم على السينما و حضروه كمان .. بس لما يجي بابا أنا بدي قلبه ياخذنا على السيرك . "

_ " أي حبيبتي .. ان شاء الله .. يا الله خلىنا نشوف. "

جنى و مصطفى يضحكان . يتفاعلان مع الشخصيات غريبة الشكل و الحركات مأخوذان بكل حركة تقوم بها الفتيات و المخلوقات ذات العين الواحدة . كانت سلام في الحقيقة تشاهد الفيلم وتراقب ولديها معا .. تحاول جاهدة أن تفهم الرسالة المتضمنة في هذا العمل . أي مفاهيم يريدون الفئاهة في روع هذه البراعم الغضة التي تتلقف كل ما حولها بعيون مفتوحة و عقول مغلقة .

عادت إلى ذاكرتها و هي تتناول حبات البشار الساخن مشاهد من سندباد و ريمي, قصص هايدي .. فتاة المراعي و حكايات حول العالم .. حكايات تدور عن الخير و الشر تتكلم فيها الشخصيات بكلام واضح مفهوم و تتحرك بشكل طبيعي بلا افتعال و لا تصنع , توصل رسالة بسيطة أن الخير في النهاية ينتصر .. كانت تلك البرامج تدخل السعادة على قلوب الصغار و الكبار. يسعدون بالقيم التي ترسخها في قلوبهم بمحبة الخير و السلام ..

أما هذه فلا تكاد تبين لها معنى أو هدفا .. لماذا يريدون من الأولاد أن يعتادوا على الأشكال الغريبة المنفرة و الشاذة . لماذا يريدون للقبح أن يغدو مألوفاً و مقبولاً في عيون الناس . لماذا يقدمون للأولاد شكلاً بعين واحدة يجعلونه محبباً لديهم, يثير ضحكهم بحركاته المتوترة المجنونة . بكلماته المتأتاة و صوته الغريب . ما الحكمة من جعل الأطفال يضحكون على غباء الآخرين و أخطائهم ليخرجوا إلى الحياة بعيون ناقدة مترصدة لكل خطأ يرونه ليجعلوه مصدراً لفكاهة سمجة . يضحكون على من يقع في الخطأ بدل أن يساعده .. أي قيمة و أي مفاهيم هذه؟ ا

_ " مصطفى .. ليش هاد الرجل يعامل الأولاد هيك .. هو شرير ؟ "

_ " أي ماما .. لأنهم أيتام ما عندهم أب و أم يعيشوا معهم .. بس هو بالنهاية بيصير منيح ما بيبقى شرير .. "

_ " أيوه .. يعني ممكن الشرير يصير كويس و يتغير ..؟ "

_ " أي ماما .. شوفي النهاية كيف بيصير .. "

_ " أيوه .. "

يبدو أن الهوة تتسع جدا بين جيل و جيل .. لم تستطع أن تتبسم و لو لمرة واحدة على أي مشهد من المشاهد . كل ما تراه يبدو لها جنونا مستعرا غايته اخراج الانسان عن اتزانه و رشده و جعله فردا في قطيع هانج يتسابق مندفعاً نحو المجهول ..

هل سيأتي يوم تتنافر فيه رؤاها مع رؤى أولادها فلا يلتقون في شيء ؟ سيكون يوما بانسا بلا شك ..
تتمنى أن لا يأتي بأي حال . أن لا تجد نفسها على جزيرة نائية تلاحق ببصرها أطياف السفن العابرة و لا
تجد لها مركبا و لا سفينة تحملها إلى البر..

هناك لا بد مايسترو عملاق يعزف لحنا خبيثا . لحن يجعل كل شيء يسير على عوج . و من خلفه
الناعقون بما لا يسمعون إلا دعاء و نداء .. جوقة كبيرة تكاد تسمع صدى ألقانها يتردد في العالم كله
يطغى على كل صوت جميل و يفسد كل لحن عذب , كل من يخرج عليها يخرج من العالم الذي يلهث
بجنون نحو الهاوية ..

الساعة الحادية عشر قبل منتصف الليل .. صحون البُشار فارغة و إلى جانبها كاسات العصير .. بعض
حبات البشار ملقاة على الأرض و الأريكة .. مصطفى و جنى يغالبان النوم بعيون نصف مغمضة .. و
فيلم آخر يبدأ على التلفاز في بث لا ينتهي و لا يتوقف . ساعات طويلة تمتد أمامها ربما تفوق في طولها
الأيام التي مرت مجتمعة .. يوم الغد صفحة بيضاء لا ترى عليها أثرا لشكل أو تصور .. كيف تكسر
وحشة الساعات القادمة ؟

تراعت لها صورة جدتها بصفيرتها البيضاء كلون الثلج تسرح شعرها و تهمس لها :

" إذا ما عرفت شو بدك تعملي .. سرحي شعرك .. بس تسرحيه بتعرفي .. "

باغتتها ضحكة بينما كانت تحاول استحضار مشاعر الحزن على رحيل جدتها .. لا .. لا مجال للحزن على
امرأة عاشت حياة حقيقية و رحلت إلى ربها .. أكملت رحلتها بسلام و مضت إلى مقرها الآمن .. ربما
يناسبها أكثر تهنئة بالوصول بالسلامة و دعاء لها بإقامة طيبة .. كما قالت جدتها .. الدعاء يصل من
أي مكان إلى أي مكان .. الدعاء لا يحتاج بطاقة سفر . أغمضت عينيها و أرسلت دعاء من أعماق قلبها
لجدتها حيث تثوي بسلام و أمان ..

سحبت المشبك من رأسها و حلت عقدة شعرها .. خصلات شعرها ملتدة بعض الشيء يلزمها غسل و
تطرية .. خللت أصابعها بين الخصل المتشابكة و نهضت لتحضر خليط الزيوت للعناية بالشعر .. دلكت
فروة رأسها بأطراف أصابعها لدقائق ثم جمعت شعرها فوق رأسها بالمشبك من جديد .. ربما كانت جدتها
على حق .. الآن تنجلي في خاطرها الصور .. ستقوم الآن لتنظف البيت و ترتبه , تغسل شعرها , تكمل
قراءة الكتاب الذي بدأته , و الأهم من كل ذلك تضع برنامجا منظما في حال تركت المدرسة و التحقت
بالعمل الجديد و بعد ذلك تقوم بخبز الأرغفة من أجل فطور صباح الجمعة . و عندما تنجز كل ذلك لن
تحاول أبدا استجداء النعاس لتحظى بنوم مريح , ستغفو من تلقاء نفسها قبل أن يلامس جسدها الأريكة و
تنام بهدوء حتى ينبج فجر الغد حاملا معه ما يقدره الله لها أو عليها .

الخروج

لا الأرض أرضي و لا السماء سمائي .. و مُحنكُ ذي لُبِّ أعياء دائي ..

من تراه قال هذا الكلام ؟

ربما تكون رفات أبيات ترسبت في ذاكرته عبر سنين الدراسة. أو لعلها فلتت من شطحات الخلوة الطويلة .. أفلتت منه ضحكة قصيرة .. ربما هي أول ضحكة تخرج منه منذ أن دخل هذا المكان . ستة أيام مرت هو و نفسه و ملانكته و لا أحد غيرهم .. ربما جعلت منه الخلوة شاعرا يقرض الشعر .. ألا يختلي الشعراء بأنفسهم من أجل أن تتجلى عليهم جنية الشعر و تلهمهم الابداع .. لعلها طافت بخاطره و هو نائم أو غارق في كيوه من كبوات التأمل الطويل . ستة أيام مرت . أتراها تحسب من حياته ؟ أتراها تحسب له أو عليه ؟ كيف تحسب له و هو ساكن راكد هامد كحجر ملقى في فلاة ؟

لم يفلح في الوصول إلى مبتغاه. ستة أيام كلما حاول الخروج بنفسه المكبلة بالهموم كلما غاص في أعماقها أكثر و ستة أيام و أكثر .. جرب كل التقنيات التي تحدثوا عنها . تقنية الحبل , تقنية اللحم الواعي , إزاحة الوعي , التمدد و العطش و الأرجوحة و كل ما قرأ عنه و سمع به . لم ينجح في أي محاولة .. في كل مرة تتشبث نفسه بجسده و تأبى الانفصال عن هذا القفص المتين المحكم الإغلاق .

هل فعلوها حقا ؟ أولئك الذين تكلموا عن متعة الخروج و الطواف خارج الجسد . عن رؤيتهم لأجسامهم النجمية الأثرية تسبح في الهواء . و لكن إذا كانت النفس النجمية أثرية فكيف تمكنوا من رؤيتها ؟ هل بإمكان أحد أن يرى الأثير ؟

و هذه النفس هل يدري أحد ما هي حتى يأمرها بالخروج ثم العودة ؟ و هل يعرف أحد ماهيتها حتى يشاهدها بعينه تسبح و تطير ؟

أليست النفس تلك القوة المُدركة التي تنشأ من اجتماع الروح بالجسد ؟ فكيف لشيء ناتج عن شيء أن يفصل عنه إلا بأمر من أنشأه و أوجده ؟ كيف لمن لا يملك شيئا أن يملكه ؟

هل تراها خرافات و أوهام تتراءى للحالمين كما يتراءى السراب عينا دافقة لصادٍ يسير في الصحراء. و لربما يُرى الانسان عينيه ما ينسجه له الخيال من رؤى فيخاله حقيقة و واقعا يصدقه و يؤمن به .

لعل هذه النفس التي حلت في الجسد لا تخرج منه إلا عندما تفارقه الروح . إلا عندما يناديها ربها لتعود إليه . و كل ما يدعونه ليس إلا أوهام و خيالات ..

لو نجحوا بذلك حقا لما عادوا إلى أجسادهم مرة أخرى. و هل لحبيس أن يعود إلى حبسه بعد أن فرَّ منه ؟

هل يعود إلى سلام كما خرج .. ؟ و كيف له بالعودِ الأحمَد ؟

يذكر مرّة قولاً قرأه في منشور على أحد مواقع التواصل .. تلك المواقع التي تمطر قارنها بفيض من النصائح و الحكم حتى ليخال المرء نفسه في محراب الحكمة و الفضيلة .. يتعجب في نفسه لو أن هؤلاء

الناس يتمثلون ما يكتبون لغدت الأرض مدينة فاضلة لا يعيش فيها مهموم و لا منغص عيش .. و لكن لعلها تمر عليهم مرّ السحاب على اليباب ..

يقول ذلك المنشور

" إذا أرهقتك نفسك و تأبت عليك فما عليك إلا أن تمسك ورقة و قلمًا و تكتب نعم الله عليك فتلين نفسك و تستكين . "

لعلّ هذا أيسر على الإنسان من كل تلك المحاولات التي ترهق القلب و العقل و تشتت النفس . ليس عليه أن يتخيل أوهاما و يستجدي خيالات . ها هي نعم الله تحيط به من كل جانب يراها بنفسه في نفسه و في كل شيء حوله رأي العين بلا جهد و لا تعب . ما عليه إلا أن يأخذ قلمًا و يسطر ما يراه و يحس به و يدركه حتى إذا ما امتلأت الورقة أمامه هدأت نفسه و استكانت و عادت لتكمل رحلتها بلا سأم و لا كلل .

قام يجول في الغرفة يبحث عن الأوراق التي تبقت ليخط عليها شيئا مختلفا هذه المرة . شيء لا يحرقه أو يمزقه لتختفي آثاره من قلبه و نفسه , بل شيء يبقيه في يده يذكر به نفسه كلما حرّنت و أرهقتها المسير .

وجد ورقة واحدة متبقية بلا سطور و لا هامش ورقة بيضاء صافية جاهزة ليملاها بما يشاء ..

أمسك القلم ثم أسند الورقة إلى ركبته و همّ بالكتابة ..

استحضر وعيه ليرتب في ذهنه كلمات يخطها على الورقة ..

خاطره سماء صافية صفاء الورقة التي تنتظر مداده .. و كأنه يبحث عن حصة في فلاة . لا شيء يخطر في باله . لا شيء يكسر صمت الخاطر المطبق السكون .. تندفع الحرارة في رأسه ثم يغمره صقيع تتجمد له أطرافه . يتصبب العرق من جبينه يتحدر على وجهه قطرات .. ترتعش أصابعه , يرتعش القلم و تهتز الورقة على ركبته . يرتعش جسده كله و يشعر برغبة في البكاء . لماذا يبدو الأمر عسيرا إلى هذه الدرجة ؟

و كأنه على وشك أن يفرغ بحرا في إناء ...

هل يعقل أنه لا يعرف نعم الله عليه ؟ لم لا تطاوعه أنامله على الكتابة ؟ لم تطبق أصابعه على القلم و كأنها على وشك أن تسحقه و تذيبه .. تجيش نفسه بالحيرة تعصف به كضباب طاغ يغيب كل شيء فيه .. ينفذ رأسه كأبكم يحاول النطق بشيء يعرفه و لا يطاوعه لسانه .. يستجدي الكلمات لترسم المعاني المتدفقة في خاطره و لكنها تولي هاربة كأسراب طيور مجفلة .

يضع القلم جانبا و يرفع الورقة أمام عينيه .. تكبر الورقة و تتمدد . تخرج من بين أصابعه .. تملأ المكان . تملأ الكون كله .. الكون كله صفحة واحدة ينبثق من نسيجها حروف و كلمات و عبارات . كلمات و كلمات و كلمات تفيض عن الورقة و تنهمر مطرا أسود مدادا يتدفق و يعود ليخط مزيدا من الكلمات , أكثر مما يستطيع قراءته و ادراكه و فهمه ..

من أين لمخلوق مثله أن يعدّ نعم الله ؟

ضمّ الورقة إلى صدره ومدّ يدا منهكة . تناول الولاة و أشعل النار في طرف الورقة .. لا يمكن لصفحة واحدة و لا لكل الصفحات في الدنيا أن تسع ما يريد كتابته ..

النار تسري في نسيج الورقة تتسلل على مهل .

تطوف برأسه سنةً تخدر حواسه, يغمض عينيه و يغيب في وسن شفيق يهدأ حمأة قلبه المضطرب ..
صوت ماء يتدفق في مسمعه يملأه حبورا و بردا و سلام. يتبسّم راضيا كمسافر حطّ رحله بعد سفر
طويل .

يهبّ فجأة كممسوس .. ينفذ النار عن عيائه . يقفز هلعاً من أسنة اللهب المتراقصة على ملابسه
يشعر بقلبه يتوقف عن النبض . هل هي أنفاسه الأخيرة هذه التي تضطرب في صدره بجنون . يفتح
الباب برعب و يندفع إلى السطح يضرب بكفه النار المشتعلة في ثيابه . المطر ينهمر من السماء يتدفق
كسيول عارمة .. ينتفض مرتعشا تحت المطر .. يبله, يغسل عنه الفرع تخبو النار و تختفي تاركة
خطوطا سوداء تفتح شقوقا في نسيج العباءة .. يملأ كفيه من ماء المطر و يمسح آثار النار .. يتمدد
الران مع مسح كفه , تبدّ العباءة ملطخة بالسواد يتأملها و يبتسم .. يضحك فرحا . لثوان قليلة كادت
نفسه تهجر جسده و تتركه حطبا خامدا .. هذه المرة الثانية التي يزوره الموت .. هل تراه يطلّ عليه مرة
أخرى أم أنه في الثالثة يحمله حيث لا يستطيع الرجوع و لا العودة ؟ ..

يهنّز منتشيا تحت المطر كرشيم يرتجف داخل حبة رطبة يشق طريقه فوق التراب يمد رأسه باتجاه
النور. يلمح الهلال من بين الغيوم , يلوح له كطفلٍ يضحك لقطعة حلوى ..

الآن يجد سماءه و أرضه .. الآن تتربع نفسه على عرش سكينتها و تهدأ راضية ...

رائحة تعبق في الهواء يدير رأسه متلفتا.. يغمض عينيه و يتنشّق بعمق .. رائحة تناديه , تلخّ عليه .
رائحة خبز طازج , رائحة عائلة , رائحة سلام , رائحة حديقة الجدة .. رائحة الصباح الذي شاهد فيه
سلام أول مرّة تلوح بالرغيف من يد إلى يد . و يضيء وجهها الباسم في نور الشمس
يتبع الرائحة كمنحلة تتبع شذى زهرة تتضوع بالرحيق .. يتوجه نازلا درجات معتمة تقوده إلى مأمنه إلى
مستقره و مسكنه ..

الرجوع

يستلقي الرغيف على اللوح فوق النار , يتشبع بالحرارة و يبدأ بالنهوض , يفتح كزهرة يداعبها النور و
يتضوع برائحة الحياة , رائحة الإلفة و المحبة . رائحة الخبز رائحة السلام .. .

" اللي ما يباكل خبز ما يبشبع " تذكرت سلام كلمات جدتها و هي تلقي بالرغيف الناضج على الطاولة
و تضع واحد آخر على اللوح الساخن .. تأملت الأربعة الساخنة بفرح .. و بثت من أعماق قلبها دعاء
بالرحمة لروح جدتها .

من لا يضحك للرغيف الساخن ؟

مع ذلك لن تتذوق شيئا منه الليلة . طعم الخبز أشهى عندما تتناوله مع من تحب .. فطور صباح الجمعة حدث مبهج للنفس كل شيء فيه طعمه مميز .

قذفت الرغيف الساخن في الهواء و قلبته على الجهة الأخرى .. انتفخ و تورّد محمرا كخد صبية تطرق على استحياء .

لم يتبقى سوى القليل و تنتهي من المهمة .. ألقى برغيف آخر على لوح الخبز .. و وقفت تتأمله و هو ينهض منفتحا إلى فلقتين ..

صوت طرق خفيف على الباب يقطع سكون الصمت المطبق ..

أصاحت السمع بأذان مرهفة و قلب وجل .. أطفأت النار تحت الرغيف و أنصتت ..

طرق أعلى حساً على باب البيت ..

تمالكت نفسها و خطت على مهل إلى الباب .. من العين الساحرة رأته واقفا أمام الباب .. كأنه راتب .!!!.

لملمت شتات نفسها .. شدت ثوبها على جسمها و عدلته .. سوت بأصابعها خصلات شعرها الرطبة و مسحت حاجبيها بطرف اصبعها المرتعش و بيد مرتجفة سحبت المزلاج و أدارت مقبض الباب ..

و كأنه عاد بغير الوجه الذي ذهب به , بغير الحال الذي كان عليه . و كأنه حالما ولج من الباب ولجت معه أطياف لطيفة غمرت قلبها المرتجف سلاما و سكيناً .. و كأنه ليس راتب ..

" "

" "

" الحمد لله على السلامة "

" الله يسلمك .. "

" وين كنت ؟ "

" هون .. "

" مع مين ؟ "

" مع حالي. "

" "

" "

" آه ... رجلك مجروحة ؟ "

" أي .. ضربت بماسورة مكسورة و أنا عم .. شيل .. "

" رح جيب معقم .. و قطن .. "

" "

- و كأنها تخطو في الهواء .. و كأن قلبها استحال أثيرا يطوف في حناياها هناء ..
 عادت بالسائل المعقم على عجل .. رأته يتناول ورقة عن الطاولة .. و يتأملها بعجب.
 _ " شو هاد ؟ "
- _ " برنامجي الجديد .. يعني حاولت رتب وقتي .. و .. "
- _ " ثمان ساعات عمل ؟ ساعتين شغل البيت ؟ ساعتين للأولاد ؟ ست ساعات نوم ؟ ساعة للعبادة ؟
 ساعة للعناية الشخصية؟ "
- ساعة للقراءة ؟ ثلاث ساعات للمفاجآت و الحالات الطارئة ؟ "
- _ " "
- _ " ما الي مكان بجدولك ؟ "
- _ " في ثلاث ساعات للمفاجئات .. بعطيك اياهم .. "
- _ " كلهم .. ؟ "
- _ " أي ... و يوم الجمعة كله .. بس شو رح تعمل فيهم ؟ "
- _ " و يوم السبت ؟ "
- _ " يمكن يصير عندي شغل فيه .. صار شغلات بغيابك .. ببقى بحكيك .. بس يعني شو حابب تعمل
 بهاي الساعات ؟ "
- _ "ممكن نحكي عن كتاب عم تقرئه .. "
- _ " حلو .. ! و شو كمان ؟ "
- _ " ممكن ننزل نركض على البحيرة .. "
- _ " جميل ! و .. شو كمان ؟ "
- _ " قولي انت . شو تحبي نعمل ؟ "
- _ " مممم .. منعمل .. طيب . "
- _ " طيب . "
- _ " آه اقع على الصوفا حتى نضفلك الجرح . "
- _ " لا .. تيايبي مبللين و وسخين بدي أتحمم و غير ... "
- نزلت إلى الأرض و رفعت قدمه لتمسح الجرح و تطهره .. للمرة الأولى تشعر به زارف الطول, تمد
 عينيها إليه لتلمح وجهه بنظرة خاطفة و تحار في سؤال يجول في خاطرها بالحاح

" ما الذي تعير فيه ؟ " هل هو الغياب الذي ينسينا الهالة التي اعتدنا على وجودها حتى بتنا لا نراها و لا نحس بها فإذا ما غابت عنا لوقت و عادت , عادت كطيف جديد نمد عيوننا لنستطلع حقيقته و نعيد استكشافه من جديد ؟ و لكنه لطالما غاب و عاد و لم يغمرها هذا الاحساس الغريب بحضوره ..

_ " الجرح عميق .. "

_ " .. سلام ؟ "

_ " نعم ؟ "

_ " ممكن ما تسأليني أي سؤال ؟ "

_ " ممكن .. بس بشرط .. "

_ " "

نهضت واقفة و أطرقت شاردة

_ " إذا بيوم من الأيام ضعفت و نفسي تعبتني و تعبت من حالي و من المشوار و من ... "

_ " أي ... "

_ " بتوعدي انك تسندني و ما تتخلي عني و تتركني لحالي .. ؟ "

_ " انت قوية و دائما بتعرفي شو لازم عملي .. "

_ " لا ما في حدا قوي على طول .. كل الناس بتضعف و بتتعب و بتحتاج لحدا قريب منها يسندها و ما يخليها توقع .. و أنا مثل كل هالناس رح يجي يوم و اتعب و اذا اجى هاد اليوم بدي انت تكون جنبي و ما تتركني .. بتوعدي ؟ "

_ " بوعدك .. "

_ " تدخل الحمام ؟ "

_ " لا .. جوعان .. بدي رغيف سخن .. "

_ " حطلك عليه شي ؟ "

_ " لا .. لا .. بدي رغيف حاف .. بس .. مشتاق لطعمة الخبز و ريحة الخبز و ريحتك !" "

عادت من المطبخ تحمل إليه رغيفا في صحن . كان ظهره إليها و يظهر انعكاس وجهه في زجاج باب الشرفة .. رأته واقفا بعباءته المبللة بالمطر, المبقعة بالسواد , شعره ملبد بالرطوبة , نحيل مغرقا في النحول , لحيته نابثة و عينيه شاردتين في شيء بعيد .. بدا لها ضعيفا منهكاً لدرجة تثير الشفقة , و لوهلة مفاجأة بدا لها قويا للغاية ينضح فتوة و همة .. كيف يمكن للضعف أن يكون قوة أسرة يرتعش لها القلب و تضطرب لها الأنفاس و تترنح الكلمات على اللسان شاردة في هواء الغرفة المشحون باللهفة

مدّت له يدها بالرغيف .

ـ " راتب . "

بلمحة خاطفة التحما كقطبي مغناطيس .. لفظهما المكان و الزمان و تاها في فضاء الغياب لشوان تماهت
فيها الأشكال و الألوان في عالم آخر ..

في طريقه بركب آخر .. ربما هي ما قاله راتب في ذلك اليوم " استمرارية " تلك التي تدفع كل حي في طريقه من أجل أن يكمل تلوين لوحته المرسومة ..

_ " ماما ؟ هدول الناس ما الهم عظام ؟ "

_ " أي طبعا الهم عظام . "

_ " كيف بيقدروا يعملوا هيك ؟ "

_ " عندهم مرونة .. أجسامهم مرنة لأنهم بيتدربوا . "

_ " شو يعني مرونة ؟ "

_ " يبي علينا .. مرونة يعني مثل هاد البوط هيك بتطويه بينطوى و بتفرديه بينفرد هيك مرن .. شفتي كيف ؟ "

_ " ههههه هههههه . "

دخل الحلبة نمر آسيوي كبير .. الخطوط على فراءه تضي عليه رهبة آسرة رغم مهانة الأسر و مذلة القيد و صوت فرقة سوط المدرب و صيحاته العالية ..

جنى تجفل و تمسك بيد والدها بهلع .. تنظر إليه تستجدي نظرة تهدئ روعها .. مصطفى ينفخ صدره و ينظر إلى والده بفخر متصنعا شجاعة يزهو بها على خوف أخته و ضعفها .. راتب يقبض على يد جنى و يشد عليها مطمئنا .. يربت على رأس مصطفى ناظرا إليه بإعجاب .. الولدان ينظران إلى أبيهما باطمئنان . هو ينظر إليهما بمحبة .

هذه النظرات تستحق أن يفعل من أجلها الكثير .. تستحق أن يفعل من أجلها كل شيء من أجل أن لا يخبو وهجها و تنطفئ

حرارتها, من أجل أن تتقد مشاعل تضيء لهم طريقا طويلا يمضي بهم في رحلة الحياة ببسر و أمان .

حرارة نظرات سلام لفحت وجه راتب .. جعلته يلتفت عن الحلبة و يتأمل في عينيها المترعتين بالرضى .. هذه هي التي كان يريدتها .. هذه النظرات التي تمنأها و حلم بها لسنوات طويلة .. الآن تتغلغل في أعماقه كنسغ يسري في أغصان فتية يدفعها للنماء, للاندفاع للأعلى باتجاه النور, لتنبثق منها براعم جديدة, حياة جديدة. حياة حقيقية .

جميع الناس في هذا العالم يولدون مرة واحدة . المحظوظون فقط هم من يحظون بولادة ثانية. الولادة الأولى لا يمكن لأحد أن يذكرها, عندما نخرج من رحم الأم إلى العالم . أما الولادة الثانية , إن حدثت , فستكون أمرا لا يمكن نسيانه بأي حال . ستذكر دائما و لآخر يوم في حياتك , تلك اللحظات العصبية , عندما كان يقبض و ينسبط عليك رَحِمَ المحنة , ليقتف بك عندما تحين اللحظة , من عالم الظلمات إلى عالم النور , حيث ترى كل شيء على حقيقته . تقف أمام نفسك عارياً من كل زيف و كل ادعاء, ترى نفسك كما هي على حقيقتها , فتشهق شهقة المعرفة, و يبدأ عند ذلك عمرك الحقيقي. حسرة كبيرة أن تغادر هذا العالم قبل أن تشهد ولادتك الحقيقية.

تمت بعون الله

2015/8/8

الفهرس

3	مقدمة
4	اليوم الأول:
4	خلوة
6	فراغ
8	بوهيمي
10	لو
13	حُرقة
15	مكة الشكولا
19	اليوم الثاني:
19	سفاري
21	الميثاق
23	الانفصال
24	ضباب
26	مصطفى
27	سجود
30	آي باد
38	غثيان
40	اليوم الثالث:
40	حيرة
42	ألوان
44	تمارا
45	فطور جماعي
48	لفت نظر_ thank you
54	جنى
55	صحارى
63	قط و حمامة

67	اليوم الرابع:
67	الباب
74	لحن الحياة
76	تداعيات
77	صور
80	زلزال
82	بذور الحب
84	النفس العظيمة
85	خبز الفقرا
89	اليوم الخامس:
89	عرب عرب
92	عجاج
93	جميلة
96	الخليج
99	لافندر
100	المغناطيس
102	ألحان الهوى
104	يضحك للرغيف السخن
105	أبو يعرب
109	اليوم السادس:
109	رحيل
111	عطش
112	رذاذ
115	ليلة الجمعة
126	الخروج
128	الرجوع
133	اليوم السابع

